كتاب سِيَر الأئمة وأخبارهم

المعروف بتاريخ أبي زكرياء

تأليف

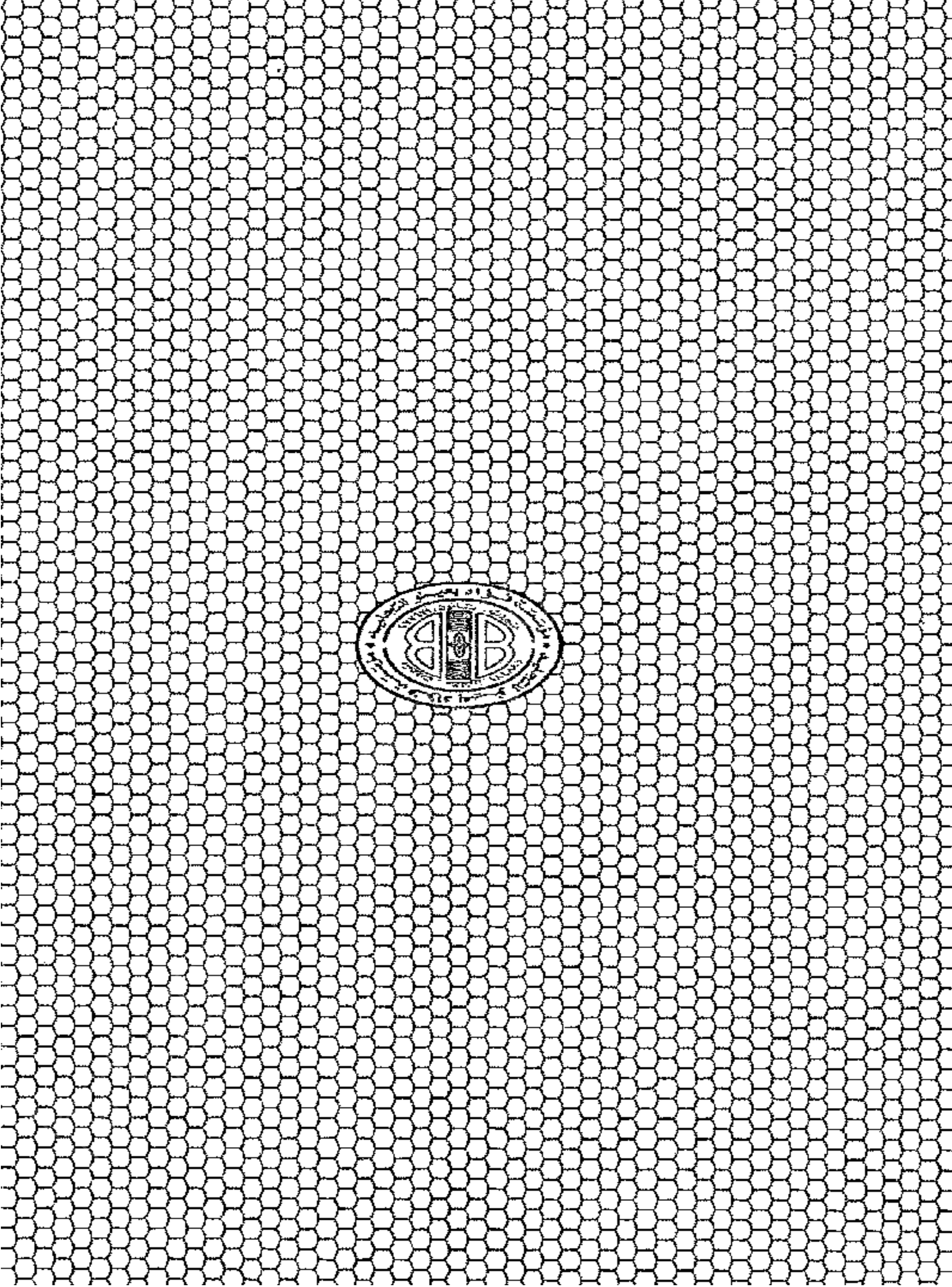
أبي زكرياء يحيى بن أبي بكر

حققه ووضع هوامشه

إسماعيل العربي

دار الغرب الإسلامي

بيروت . لبنان



كتاب سِيرَ الأئمة وأخبارهم
المعروف بتاريخ أبي زكرياء

الطبعة الأولى 1399 هـ ـــ 1979 م
الطبعة الثانية 1402 هـ ـــ 1982 م

كتاب سير الأئمة وأخبارهم

المعروف بتاريخ أبي زكرياء

تاليف
أبي زكرياء يحيى بن أبي بكر

حققه ووضع هوامشه
إسماعيل العربي

الطبعة الثانية
دار الغرب الإسلامي

الجزائر الطبعة الأولى المكتبة الوطنية الجزائرية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـدّمـة

طريق الإباضية إلى المغرب

ترجع قصة الخوارج إلى أخطر شقاق ظهر في الإسلام في خلافة علي بن أبي طالب (ض)، عقب معركة صفين، حين فارقه الخوارج الذين استنكروا قبوله لمبدأ التحكيم مع معاوية.

وبعد فشل هذا التحكيم نتيجة لمناورة عمرو بن العاص لحساب معاوية، واستئناف القتال، أبدى علي كثيراً من الحلم وسعة الصدر والميل إلى المهادنة مع العناصر الثائرة التي كانت تمثل سنداً قوياً لقضيته، ولكن بدون جدوى، حيث أن الحركة قد اتخذت موقف العداء السافر تجاه الحزبين معاً. وكذلك أعلن الخوارج مبادىء حزب جديد واتخذوا لأنفسهم زعيمًا وقائداً هو عبد الله بن وهب الراسبي [1]. (ومن اسمه أخذت الطائفة نسبة الوهبية) ونادوا بشعارهم المشهور: «لا حكم إلا لله!» الذي رد عليه الامام علي بقوله: «كلمة حق أريد به باطل!»، ثم انسحبوا إلى قرية حرورة التي تقع غير بعيد من الكوفة (ومنها أخذ الخوارج الأوائل اسم الحرورية).

ومع مرور الأيام كثرت جموع الخوارج واشتدت شوكتهم بالتحاق كثير من اتباع علي ممن أغراهم مبدأ المساواة الذي أعلنوه بجيش

---

(1) انظر ترجمته في الكامل للمبرد (191/2)؛ طبقات الدرجيني (202.201/2).

عبد الله بن وهب الذي احتل موقعاً استراتيجياً مهمًا على الضفة اليسرى لنهر دجلة، على طول ترعة نهروان[2].

ونتيجة لشعورهم بالقوة، أخذت حركة الخوارج تزداد تطرفاً وتعصباً وتصم بالكفر والردة كل من لا يرى رأيها ولا يتبرؤ من علي وعثمان، وكذلك اتخذت أعمالها طابعاً استفزازياً، بل وارهابياً، ولم تتورع بعض العناصر منها على قتل الصحابة الأبريـاء والنساء (عبـد الله بن خباب وزوجته) بدون سبب سوى رفضهم تكفير علي بن أبي طالب.

فلما بلغت هذه الأحداث عليا بعث إليهم قائلاً: «ادفعوا إلينا قتلة اخواننا منكم أقتلهم بهم، ثم أنا تارككم وكاف عليكم»[3].

ولكن الخوارج ردوا عليه قائلين انهم متضامنون في الأفعال التي يرتكبونها: «كلنا قتلهم، وكلنا مستحل لدمائكم ودمائهم»[4].

وقد حاول عدد من الشخصيات ممن كانوا يحرصون على حقن دماء المسلمين، وفي مقدمتهم قيس بن سعد[5] وأبو أيوب الأنصاري [6]القيام بمساعي للصلح ولرأب الصدع، وناشدوا الخوارج العودة إلى صفوف علي لمواجهة العدو المشترك في الشام، ولكن هذه الجهود باءت بالفشل.

---

(2) ضبطها ياقوت وقال إن أكثر ما يجري على الألسنة بكسر النون. وهي كورة واسعة بين بغداد وواسط. حدها الأعلى متصل ببغداد. راجع معجم البلدان (337-334/5)؛ الكامل (343/5)؛ العبر (180/2).

(3) نفس المصدرين الأخيرين.

(4) راجع الهامش على النص أسفله، ص 41، هامش 8.

(5) قيس بن سعد بن دليم الأنصاري الخزرجي، (ت سنة 60 هـ.)، كان من دهاة العرب وذوي الرأي في الحرب والسلم. استعمله علي على مصر صنة 36-37، وعاد فكان في مقدمة رجاله في صفين. راجع الإصابة. (الترجمة 7179)؛ النجوم الزاهرة (83/1)؛ ابن العبري، (ص 185).

(6) هو خالد بن زيد. صحابي محب للغزو. توفي 52 هـ. (طبقات ابن سعد 49:3).

وفي نفس الوقت، كان علي بن أبي طالب يواجـه ضغوطاً قوية في صفوفه حيث ارتفعت أصوات قوية من أنصاره تطالبه بالعمل لتأمين مؤخرة جيشه، ولتصفية الموقف بينه وبين الخوارج، قبل أن يقدم على مواجهة جيوش الشام.

وكذلك اضطر الخليفة إلى أن يتخذ عدتـه للقضاء عـلى الخطر المستشري، فأعطى أبا أيوب الأنصاري راية الأمان، فنادى الخوارج قائلاً ان من جاء تحت هذه الراية فهو آمن، ومن لم يقتل منكم وانصرف إلى الكوفة، أو المدائن، فهو آمن.

وعقب ذلك زحف علي بن أبي طالب على الخوارج (9 صفر 38 هـ) فيما أصبح يعرف بعد ذلك بموقعة النهروان التي قتل، من بين من قتل، فيها عبد الله بن وهب الراسبي[7] والتي أحرز فيها الخليفة الرابع نصراً مبيناً ولكنه كلَّفه كثيراً من التضحيات، فضلاً عن أنه لم يقض نهائياً على حركة الخوارج.

وهذه الحركة لم تلبث أن ظهرت من جديد على مسرح الأحداث في سلسلة من الفتن المحلية (في سنة 39 و 40 هـ) قبل أن يتوج نشاطها عبد الرحمن ابن ملجم باغتيال علي بن أبي طالب[8].

---

(7) قتل جميع الخوارج الذين اشتركوا في معركة النهروان والذين كان عددهم يبلغ ألفاً وثمانمائة، ومن بينهم جماعة من خيار الصحابة.

(8) قتل علي بن أبي طالب في رمضان، سنة 40 هـ. ولكنه اختلف في تاريخ اليوم الذي قتل فيه. فقيل يوم 17 وقيل يوم 11. وقيل في شهر ربيع الأول. وقد رجح ابن خلدون (ع) وابن الأثير وغيرهما التاريخ الأول. راجع هذه الأحداث حتى نهايتها بمقتل علي في العبر (180/2)؛ الكامل (334/3 وما يليها)؛ الشماخي، (ص 40-56)؛ وفيات الأعيان (الفهرس)؛ حلية الأولياء (61/1)؛ تاريخ ابن الخميس (276/2)؛ مروج الذهب (الفهرست)؛ تاريخ الطبري (83/6)؛ البدء والتاريخ (73/5)؛ تاريخ اليعقوبي (145/2)؛ الإصابة (ت 5690)؛ الفرق بين الفرق (في عدة مواضع) مقالة (Levi della Vida) في دائرة المعارف الإسلامية. مادة «الخوارج»، (الطبعة الأولى).

وفي العصر التالي، واجهت الدولة الأموية ثورات هنا وهنالك قام بها الخوارج، ولا سيما في الكوفة والبصرة.

وفي غضون العشرين سنة التالية، زادت حدة شوكة «الشراة» (كما يسمى الخوارج أيضاً). بازدياد عدد كبار رجالهم الذين سقطوا في الميدان ويعتبرونهم شهداء.

وأهم هذه الثورات، بدون شك، هي ثورة مرداس بن أبي حدير، التميمي، أبي بلال[9] التي لم يتمكن جيش عباد بن علقمة المازني من قمعها إلا بالغدر، حيث أحاط بأبي بلال وأصحابه، وهم في الصلاة، وقتلهم عن آخرهم، وهو حدث سيترك جرحاً في نفوس أصحاب المذهب لا يندمل مع مرور القرون.

وقد زادت شوكة الخوارج حدة وقويت جموعهم واتسعت حركتهم، خصوصاً، أثناء الاضطرابات التي أعقبت وفاة يزيد بن معاوية، فكانت هذه القوة الثالثة، إلى جانب ضغط جيوش الأمويين بقيادة الحجاج الثقفي، من العوامل التي عجلت بنهاية خلافة عبد الله بن الزبير[10] التي دامت تسع سنين (64-73)[11]. فقد كانت عداوة «الشراة» لهذا الخليفة الشجاع لا تقل حدة عن شعور العداء الذي يحملونه لبني أمية الذين نجحوا في إبقائهم بعيداً عن معاقلهم في الشام.

---

(9) راجع الهامش على النص أسفله، ص 131، هامش 4.

(10) عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي. أبو بكر. أول مولود في المدينة (السنة 1)، بعد الهجرة. بويع بالخلافة عقب موت يزيد ابن معاوية في سنة 64 هـ. وشمل سلطانه مصر والحجاز واليمن. وقد دخل في معارك عديدة ضد الأمويين. وخصوصاً ضد الحجاج ابن يوسف. انتهت بمقتله في مكة في سنة 73 هـ. راجع فوات الوفيات (210/1)؛ اليعقوبي (2/3)؛ الطبري (202/7)؛ الكامل (135/4).

(11) راجع الملل والنحل للشهرستاني (161/1)؛ الكامل للمبرد (136/1)؛ الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادي (ص 54-93 وكذلك 265.263).

وفي هذه الأثناء، تفرَّقَتْ حركة الخوارج إلى عدة فرق، يقول المؤرخون انها تجاوزت عشرين فرقة لا تجمع بينهم سوى نظريتين: نظرية الخلافة التي لم يعودوا يشترطون أن تكون من قريش، ونظرية اعتبار العمل جزء من الايمان[12].

وقد اشتهر من هذه الفرق، خصوصاً، الأزارقة (أتباع نافع بن الأزرق) والصفرية الذين لا يختلفون كثيراً عن الأزارقة، من حيث أنهم جميعاً يكفرون المسلمين ماعداهم. والإباضية (نسبة إلى عبد الله بن إباض، زعيم الطائفة[13] الذين تتكون منهم الأغلبية الساحقة من الخوارج في المغرب.

والاباضية طائفة تمتاز بالاعتدال في نظرتها إلى مخالفيها، حيث أنهم لا يحكمون بتكفيرهم، بل انهم يعتبرون التزاوج والميراث مع غيرهم من المسلمين حلالاً. وهم لا يستبيحون قتل غير الخوارج من المسلمين إلا في حالة إعلان الحرب (عكس الأزارقة).

خرج عبد الله بن اباض المري التميمي عن المتطرفين من الخوارج باتخاذه موقفاً يختلف عن موقفهم تجاه أهل التوحيد[14].

وبعد مقتل أبي بلال الذي قاد ثورة سنة 61 هـ، وقتل فيها، تسلم زمام رئاسة الطائفة عبد الله بن اباض الذي وصفه الشماخي بأنه «إمام أهل التحقيق والعمدة»[15] وقد كان عبد الله يتسم بحصافة وبعد نظر

---

(12) راجع الهامش على النص أسفله، ص40، هامش 5.

(13) راجع : Welhausen. Die Religios-Politischen Opposition in Alter Islam, (Berlin, 1901, p. 2-28).

(14) سير الشماخي، (ص77).

(15) نفس المصدر.

سياسي سيضمن لطائفته فترة من السلام والاستقرار هي في أشد الحاجة إليها.

فان الرجل لم يقف عند حد تناسي الماضي الدامي وعداء الخوارج المستحكم للأمويين، بل ان علاقة متينة قامت بينه وبين عبد الملك بن مروان (26-86 هـ) سمحت له بأن يقوم بدور المستشار لهذا الخليفة[16].

وسواء أكان هذا التقارب قد وقع بوحي من أكبر تلامذة عبد الله وأنجبهم جابر بن زيد[17] أم أن عبد الله بن اباض هو صاحب هذه الخطة السياسية، فإن من المؤكد أن هذا الموقف لا يمكن أن يوصف بالتقية التي وصف بها موقف أبي نوح سعيد بن زنغيل وأبي القاسم يزيد بن مخلد من المعز لدين الله الفاطمي، بعد ذلك بنحو قرنين. وهذا الموقف يمثل انقلاباً في علاقات الخوارج بواحد من الحزبين اللذين قاوموهما طويلاً، وتلك العلاقات السلمية ستستمر حتى أواخر القرن الأول للهجرة.

وبعد عبد الله بن اباض، حمل لواء الدعوة في البصرة أبو الأشعث، جابر بن زيد الأزدي[18].

وجابر بن زيد الذي ينتمي إلى مدينة نزوة، والذي ولد في سنة 18 للهجرة، يعتبر، بشهادة أبي زكرياء نفسه من أكبر علماء المذهب. ومن يدري، فلو وصل إلينا ديوانه المشهور (مجموعة أعماله) والذي يحدثنا عنه أبو زكرياء باستفاضة، لكان من المحتمل أن نستخلص منه علمًا غزيراً عن عقيدة المذهب ورجاله، ولكان اسم هذا الامام أكثر شعبية مما هو الآن. ولكن هذا الديوان الذي يقع في حجم كبير يعتبر الآن مفقوداً.

---

(16) نفس المصدر.

(17) راجع حاشية الجامع الصحيح على مسند الربيع بن حبيب لعبد الله السالمي (1/7-8)؛ طبقات الدرجيني (205/2)؛ سير الشماخي، (ص 75 وما يليها).

(18) راجع طبقات الدرجيني (205/2)؛ سير الشماخي، (ص 70).

وقصارى القول ان جابر بن زيد الذي يصفه الشماخي بـ «بحر العلوم العجاج، وسراج التقوى، أصل المذهب»[19] هو الذي أقام دعائم المذهب الاباضي نهائياً على الأسس التي وضعها شيخه، عبد الله بن اباض.

وانطلاقاً من القاعدة السياسية التي أرساها سلفه، فقد سار جابر في السنوات الأولى من زعامته على سياسة ودية تجاه الأمويين، وارتبط بعلاقات وثيقة مع الحجاج بن يوسف الثقفي (40-95 هـ). بحيث عرض عليه عامل بني أمية على العراق القضاء[20]. وقد كانت الواسطة بينهما، هو يزيد بن أبي مسلم الثقفي[21].

صحيح أن هذه الصداقة السياسية يمكن أن تفسر بأنها مهادنة من الحجاج الذي لم يشتهر باللين ولا بالمسالمة، حيث أنه كان في تلك الفترة منهمكاً في قتال الطوائف المتطرفة من الخوارج، ولم يكن من حسن السياسة أن يدفع بالاباضيين المعتدلين في أحضان أعدائه، ولكنه يجب ألا ننسى أن الحجاج كان عامل عبد الملك بن مروان الذي رأينا عطفه على الاباضيين وتقريبه لإمامهم.

وأياً ما كان الأمر، فان هذه العلاقات التي استمرت حتى بعد بناء مدينة واسط (83-86 هـ)، أخذت تسوء تدريجياً في أواخر القرن.

---

(19) سير الشماخي.

(20) أمير شجاع. ولد في سنة 53 هـ. وعينّ والياً على خراسان بعد وفاة أبيه، في سنة 83 هـ.

(21) كان أبو مسلم من موالي ثقيف ويعمل كاتباً للحجاج. وقد ظهرت براعته بحيث أن الحجاج استخلفه على العراق لما حضرته الوفاة وأقره في منصبه الوليد بن عبد الملك بعده. توفي في سنة 102 هجرية.

وسبب تدهور العلاقات بين الحجاج وجابر بن زيد، يعزى، في المكان الأول، إلى وفاة عبد الملك بن مروان (سنة 86 هـ). ولكن مما لا شك فيه أيضاً، أن التقارب الذي وقع بين الاباضيين في البصرة وأسرة يزيد ابن المهلب[22] الذي كانت نصيحة الحجاج للخليفة عبد الملك بن مروان السبب في عزله من منصب الوالي على خراسان، كان عاملاً آخر في تحول الحجاج عن الاباضيين.

وهذا التقارب ندرك عمقه إذا عرفنا أن عاتكة، شقيقة يزيد بن المهلب، كانت من المناضلين في صفوف الإباضيين، ومن الدعاة المتحمسين لعقيدتهم[23].

وبعد ما تمت القطيعة، أخذ الحجاج يقوم بحملة اضطهاد ضد الاباضيين كان من نتائجها تشتيت رجال المذهب، كما أبعد هو نفسه كثيراً من علمائهم عن العراق، ومن بينهم جابر ابن زيد، وساروا إلى عمان وغيرها من المناطق.

كان من أعلم تلامذة جابر بن زيد (الذي توفي في سنة 93 هـ). وأشدهم تفانياً في الدفاع عن الدعوة، رجل اسمه مسلم بن أبي كريمة التميمي، أبو عبيدة.

ويبدو أن أبا عبيدة ينحدر من أصل فارسي (فيما يقول صاحب الأغاني)، مثل تلميذه، عبد الرحمن بن رستم، وأن انتماءه إلى قبيلة تميم إنما كان بالولاء. على أن الأصل الفارسي أو البربري، لا يؤخذ في الاعتبار عند الخوارج لدى النظر في اختيار الامام (وأبو زكرياء يعقد فصلاً خاصاً في سيره لذكر فضائل البربر والعجم). ولذلك، فان أصل أبي عبيدة لم يقم حائلاً دون اختياره خليفة لجابر بن زيد، على رأس الأمة الاباضية.

---

(22) راجع: Perier (J), la vie d'El-Hadjadj, Paris, 1904 (pp. 221-231).

(23) سير الشماخي، (ص 78).

والشيء الذي يتميز به أبو عبيدة عن شيخه وسلفه، هو أنه تعرض لاضطهاد الأمويين وعرف سجون الحجاج ابن يوسف وما تنطوي عليه من ألوان التعذيب.

وفي معرض الحديث عن تجربة أبي عبيدة مع الحجاج ابن يوسف، يقول الشماخي:

«لما سجن الحجاج أبا عبيدة وضماما، منع أن يوصل إليهما شيء، وكانا يقصان شاربهما بأسنانهما، وكان أحدهما ينفض لحيته فيتساقط منها القمل. وكان طعام أهل السجن خبز الشعير وملح الجريش، ويعمد إلى مراكن عظام فيسكب فيها الماء ويطرح فيها الملح، ثم يضربونه حتى تخرج رغوته، فمن شرب أولاً، كان أمثل قليلاً ومن شرب أخيراً، كان (ذلك) العذاب»[24].

كان مركز الامامة الاباضية في البصرة، وهناك أنشأ أبو عبيدة معهداً للدراسات الاباضية، كان هو نفسه يشرف عليه ويعلم الطلبة ويدربهم على القيام بنشر الدعوة ثم يبعث بما يسمى «حملة العلم» إلى مختلف البلدان. وكانت التعليمات التي يزود بها هؤلاء تقضي بأن يقوموا بعمل سياسي وبنشر الدعوة في السر حتى يخلقوا الظروف الملائمة ويجتمع لديهم عدد كاف من الأنصار والمؤيدين، ثم يعلنوا «حالة الظهور».

وفي هذا السياق، يجب أن نعرف أن الاباضية في هذه المرحلة قد

---

(24) راجع مقالة (A. De Motylinski) في دائرة المعارف الإسلامية، (الطبعة الأولى)، مادة «اباضية».

وكـــذلـك: Sachau (E), Uber ein Arabonik aus Zanzibar (Siminar fur orientalische spraken), 1898, (p. 1-19).

وجدت تربة خصبة في بعض أطراف الجزيرة العربية، وخصوصاً، في عمان وفارس وزنجبار وأفريقية الشرقية، وفي المغرب[25].

وهذه الأقليات الدينية هي التي عمل أبوعبيا.ه على تغذيتها بالعلم وتزويدها بوسائل التوغل الايدولوجي ولشحذ همم أبنائها لتوسيع دائرة إشعاع المذهب.

وكذلك وجه أبوعبيدة بعثات إلى اليمن وحضرموت وعمان وخراسان، وإلى المغرب أيضاً. وقد كانت بعثة المغرب تتألف من أبي الخطاب المعافري، وعبد الرحمن بن رستم، وعاصم السدراتي، واسماعيل بن درار الغوامسي، وأبي داود القبلي النفزاوي[26].

وهذه العمليات التي نالت نجاحاً باهراً بسبب ما كانت تتمتع به من التنظيم، ولكن أيضاً، لأن نشاط «حملة العلم»، صادف انهيار سلطة الدولة الأموية في مختلف أطراف الخلافة[27].

ولما قامت الدولة العباسية، استمر الاباضيون على نشاطهم الذي وجد تشجيعاً، بل ورعاية، من بعض الشخصيات البارزة في الدولة الجديدة، وفي مقدمتهم عمة الخليفة، المهدي، وزوجها، عبد الله بن الربيع الذي اعتنق المذهب الاباضي[28]، بل ان الخليفة أبا جعفر نفسه كان يبدي ميلاً إلى الطائفة الاباضية.

---

(25) راجع سير الشماخي، (ص 124-125).

(26) راجع مقالة ليويسكي (T. Lawicki) في دائرة المعارف الإسلامية، (الطبعة الثانية)، مادة «الاباضية».

(27) سير الشماخي، (ص 107-108).

(28) راجع ليويسكي (المصدر المذكور).

ولكنه بعد وفاة أبي عبيدة في سنة (145 هـ)[29] دخل نشاط المذهب الاباضي في مرحلة من الركود النسبي، ولو أن وجود الطائفة استمر تحت إمامة الربيع بن حبيب البصري، الذي خلف أبا عبيدة. بل ان هذا الامام حاول احياء التقليد الذي سنه أبو عبيدة بارسال بعثات من حملة العلم إلى الأقطار.

على أن علماء المذهب لم يلبثوا أن أخذوا في الهجرة جماعات من البصرة إلى عمان، ولو أن وجود الطائفة استمر في الكوفة، فيما يبدو، طوال القرن الثاني الهجري[30]. وكذلك تحول مركز الثقل في الاباضية الآن إلى عمان، بفضل الأثر الذي تركه هناك جابر بن زيد وغيره من زعماء المذهب الذين لحقوا به. ومن عمان، انطلق اشعاع المذهب في اتجاه الهند والصين، وخصوصاً إلى شواطىء افريقية الشرقية المجاورة، كما أصبحت مصر مركزاً للدراسات الاباضية لا يقل أهمية عن البصرة سابقاً.

ولكن الدور الذي سيلعبه رجال المذهب في المغرب سيكون حاسمًا في المراحل الأولى من تاريخ الإسلام في هذه البلاد.

فأول من حمل الدعوة إلى المغرب، كما ذكر أبو زكرياء، هو سلامة بن سعد وعكرمة بن عبد الله (الذي يعزى إليه نشر مذهب الصفرية) في أوائل القرن الثاني الهجري.

ويبدو أن نشاط سلامة وجد أرضاً بكراً، فنالت دعوته نجاحاً

(29) هذا هو التاريخ الذي تورده الرواية لوفاة أبي عبيدة، ولكن المستشرق ليويكي (المصدر المذكور)، يرى أن قول أبي زكرياء بأن أبا عبيدة مات في عهد عبد الرحمن بن رستم لا يمكن قبوله. على أن هذا الباحث لا ينوه بالأسباب التي حملته على هذا الرفض.

(30) راجع ابن عبد الحكيم، فتوح مصر، (ص 224).

ملحوظاً، حيث أنه لم يكد يمضي على دخوله إلى المغرب عشرون سنة حتى تكونت جماعة معتبرة من الاباضيين في طرابلس يتزعمها رجل يدعى عبد الله بن مسعود التجيبي وكانت تسانده قبيلة هوارة. ولكن هذا الزعيم لم يلبث أن قتله عامل طرابلس[31].

وبعده، تحولت زعامة المذهب إلى عبد الجبار بن قيس المرادي، ومعه الحارث بن تليد الحضرمي.

وتحت رئاسة هذين الزعيمين اللذين كانا يتمتعان أيضاً بتأييد هوارة، أصبحت طرابلس قاعدة للمذهب. على أن خلافاً ظهر بينهما فاقتتلا وقتل كل منهما الآخر في سنة 131 هـ.

وعقب ذلك، انتخب أتباع المذهب رئيساً عليهم اسماعيل بن زياد النفوسي الذي «عظم شأنه وكثر بيعه»، فيما يقول ابن عبد الحكم[32] وخلعوا عليه لقب «إمام الدفاع».

وكذلك نال المذهب تأييد زناتة في مرحلة لاحقة في المناطق الغربية لطرابلس في جبل نفوسة.

وفي سنة 132، استولى اسماعيل النفوسي على مدينة قابس، ولكنه قتل على مقربة من هذه المدينة في معركة خاضها مع جيش عباسي بقيادة عبد الرحمن بن حبيب، عامل القيروان[32].

وبمقتل اسماعيل النفوسي، انهارت الدولة الاباضية الأولى في طرابلس، وذلك على الرغم من بقاء بعض العلماء في طرابلس ومن تمسك سكان المنطقة بالمذهب.

---

(31) نفس المصدر، (ص 225).

(32) نفس المصدر.

وعقب هذه المرحلة، عادت إلى المغرب بعثة «حملة العلم» التي من بينها عبد الرحمن بن رستم وعبد العلاء ابن السمح المعافري، أبو الخطاب الذي عينه أبوعبيدة رئيساً، بعدما تلقى التعليم والتدريب على هذا الامام.

وبعد وقت قصير، تمكن أبو الخطاب من الاستيلاء على مدينة طرابلس وولايتها، ثم اتجهت الجيوش الاباضية إلى مدينة القيروان، حاضرة افريقية، التي كانت تحتلها ورفجومة (في صفر 141 هـ) واستولت عليها.

وبذلك أصبحت الدولة الاباضية قوية وتمتد حدودها من برقة، مروراً بطرابلس ونفوسة، حتى حدود الجزائر الشرقية، بما في ذلك مناطق قسنطينة وأراضي كتامة من سطيف.

على أن دولة أبي الخطاب لم تعمر طويلاً، حيث قضى عليها جيش عباسي، جمع إلى القوة دقة التنظيم وبراعة التخطيط بقيادة محمد بن الأشعث الخزاعي، والي مصر، عقب معركة حاسمة وقعت في شرق طرابلس، فقد فيها أبو الخطاب عدة آلاف من جيشه وقتل هو نفسه فيها[33].

وعقب هذه الهزيمة التي ضمنت للعباسيين السيطرة على ولاية طرابلس وافريقية، انسحب الاباضيون في اتجاه جنوب طرابلس وتونس والمغرب الأوسط.

---

(33) راجع عن هذه الأحداث العبر (192-191/4)؛ البيان (70/1 و82)؛ الاستقصا (55/1 و57)؛ سير الشماخي، (ص 123-132)؛ الخلاصة النقية (ص 17)؛ طبقات الدرجيني (25/1-33 و22/2 ومايليها). وانظر كذلك تاريخ فتح ليبيا للطاهر الزواوي، (ص 173-180).

وقد كان في مقدمة الفارين للنجاة بأنفسهم، عامل أبي الخطاب على القيروان ورفيقه في الدراسة، عبد الرحمن بن رستم، الذي سلك طريق الجريد إلى منطقة تيهرت حيث ستواتيه الظروف ويؤسس الدولة الرستمية.

وموضوع الدولة الرستمية عالجه أبوزكرياء في الكتاب الذي نقدمه بكثير من التفصيل بحيث يعتبر المرجع (مع تاريخ ابن الصغير) عن هذه الدولة، وبالتالي، فنحن لا نكلف أنفسنا مؤنة الحديث عن العهد الرستمي لاستعراض ما تخلله من الأحداث الدينية والسياسية.

وإلى جانب عبد الرحمن بن رستم كان يوجد علماء اباضيون آخرون عاشوا بعد هزيمة أبي الخطاب وكانوا يتمتعون بمكانة عظيمة بين الطائفة بقوا في جبل نفوسة. وبعض هؤلاء كانوا يرون أن الامامة تؤول إلى عبد الرحمن الذي استخلفه أبو الخطاب على القيروان، ولذلك أعلنوا ولاءهم له وكانوا يبعثون إليه بالزكاة اعترافاً له بالولاية. وقد كان في مقدمة هؤلاء أبوحاتم الملزوزي.

وفي سنة 151 هـ. قامت ثورة اشترك فيها الاباضيون مع الصفرية، بقيادة أبي حاتم الملزوزي الذي خلع عليه لقب «امام الدفاع»، كان من نتائجها استيلاء أبي حاتم على طرابلس والقيروان، قبل أن يتجه غرباً ليضرب حصاراً على مدينة طبنة.

وبعد سنوات من النضال، انهزم أبوحاتم واتجه إلى جبل نفوسة في فلول جيشه، فطارده يزيد بن حاتم إلى أن أدركه في جندوبة، فقتله في ثلاثين ألفاً من أصحابه (في سنة 155 هـ)، وبذلك بسط بنو العباس سلطانهم من جديد على طرابلس وافريقية.

وكما حدث عقب هزيمة أبي الخطاب، قامت عناصر مهمة، بعد مقتل

أبي حاتم الملزوزي بالهجرة من طرابلس وتونس نحو الغرب والجنوب الغربي، وخصوصاً إلى بلاد كتامة حيث استقرت جماعة معتبرة منهم من سنة 156 هـ، وانضم كثير منهم إلى منطقة تيهرت التي انتخب عبد الرحمن بن رستم إماماً عليها في سنة 160 هـ، (وفي رواية، في سنة 161 هـ) والتي أصبحت الآن الموئل الرئيسي للاباضيين[34].

* * *

وتحت الأئمة عبد الرحمن، وابنه عبد الوهاب، وحفيده، أفلح، بلغ المذهب الاباضي أوج عظمته العلمية والسياسية حيث كان أساساً لحضارة لم يشهد لها المغرب الأوسط مثيلاً من قبل. فإن الأسرة الرستمية التي استطاعت أن تفرض سلطانها على القبائل المضطربة في هذه المنطقة دون أن يكون لها سند من العصبية القبلية، إنما تمكنت من ذلك بسبب المكانة الأدبية التي كان يتمتع بها هؤلاء الأئمة، وبفضل عنايتهم بالعلوم والفنون وحرصهم على اقامة العدل والقسطاس، واعتمادهم في السياسة منهج الشورى واحترام رأي الأغلبية[35]، وباختصار تلك المبادىء التي ناضل الاباضيون من أجلها كثيراً وكلفتهم تضحيات باهظة عبر العصور، ولم يتمكنوا من تطبيقها في المشرق.

كان سلطان تيهرت يشمل منطقة تمتد من تلمسان غرباً حتى طرابلس شرقاً. وفي الشمال الغربي كانت حدود المملكة تمتد حتى البحر

---

(34) راجع البكري، (ص 78)؛ سير الشماخي (ص 133-135 و138)؛ طبقات الدرجيني (36-34/1)؛ معجم البلدان (27/2)؛ الأزهار الرياضية (ص 83 وما يليها)؛ تاريخ ابن الصغير (ط. تونس، ص 32 وما يليها). وانظر كذلك مقالة ليويكي (المصدر المذكور).

(35) راجع طبقات الدرجيني (56/2).

الأبيض عند مرسى الفروج، ومن الشمال الشرقي حتى مرسى الخرز (أي بين أرزيو الحالية والقالة) وتشمل مرسى الدجاج (الجزائر) ومرسى بجاية.

وفي هذه الرقعة كان يقطن عدد من القبائل أهمها وأكبرها، لماية وسدراتة ومزاتة وزناتة ولواتة ومكناسة وغمارة وازداجة وهوارة ونفوسة، وهي، بالطبع لم تكن كلها تدين بالمذهب الاباضي، ولكنها تخضع لسلطان الرستميين السياسي.

وفي الجنوب، كانت رقعة الدولة الرستمية تشمل عدداً من الواحات التي أهمها وادي ريغ ووارجلان، إلى جانب الزاب وجزء من الجريد.

وكذلك كان يوجد مضيق يمتد بين جزء من الحضنة والزاب وجبل أوراس يقطنه الاباضيون ويمثل حلقة الوصل بين أمامة تيهرت وبين المناطق المأهولة بالاباضيين في جنوب تونس وطرابلس.

والمناطق الشرقية الاباضية، كانت في أوائل القرن الثالث الهجري، تشمل مناطق قفصة وقسطيلية، وقنطرارة، ونفزاوة، والجبال التي تمتد من الجنوب الشرقي التونسي، كما تشمل جميع ولاية طرابلس (فيما عدا المدينة نفسها).

ومن هذه الملاحظات، نستخلص أن الدولة الرستمية كانت تحيط بدولة الأغالبة من جميع الجهات (فيما عدا شريط يمتد من الشمال) بحيث كانت رقعة هذه الدولة في الربع الأول من القرن الثالث الهجري لا تتجاوز الشمال التونسي وجزء صغير من الشمال الشرقي الجزائري.

ولكنه في سنة 224 هـ، نجح الأغالبة في تحطيم هذا الحصار،

باحتلال المضيق الذي يربط تيهرت بطرابلس (أي منطقة قفصة وبلاد الجريد)، وكان ذلك بفضل حملة قادها عيسى بن ريعان الأزدي[36].

وفي منتصف القرن الثالث منيت تيهرت بالشقاق الذي أحدثه النكار والواصلية واستغلته القبائل الساخطة سياسياً، ثم بخروج الخلفية وابن مصالة الذي كون دويلة صغيرة مستقلة عن تيهرت، وغير بعيد منها. وهذه أحداث يتناولها أبو زكرياء باستفاضة، ولكن القارىء يحسن صنعاً إذا قارن رواية مؤلفنا الاباضي برواية ابن الصغير المالكي الذي كان يعيش تلك الأحداث في تيهرت.

وقطع الأغالبة لطريق الاتصال بين تيهرت والمناطق الشرقية التابعة لها، والشقاق العقائدي، ومحاولة الولاة الاستقلال بما ولوا عليه أو اقتطعوه لأنفسهم، كانت كلها ضربات قاسية هزت كيان الدولة الرستمية، ولكن الضربة القاضية على سلطان الاباضيين، كانت معركة «مانو» (بين طرابلس وقابس) التي ألحق فيها ابراهيم بن أحمد الأغلبي في سنة 283 هـ، هزيمة منكرة بالاباضيين، لا يتحرج مؤلفنا من ذكر تفاصيلها وآثارها السياسية والعسكرية الوخيمة[37].

ففي هذه المعركة تحطمت شوكة نفوسة التي كانت بمثابة العمود الفقري للدولة الرستمية في المنطقة.

ومع ذلك، فقد استمرت الدولة الرستمية في الوجود، في الغرب، حتى سنة 296 هـ، حين تعرضت لضغوط قوات العبيديين المباشرة، قبل أن

---

(36) راجع عن هذه الأحداث العبر (200/4)؛ اليعقوبي (ط. دوخويه، ص 346-347)؛ طبقات الدرجيني الشماخي (ص 154-159 و 161).

(37) قارن البيان الذي يؤرخ لهذه الوقعة في سنة 284 هـ. (130/1)؛ العبر (303/4)؛ طبقات الدرجيني (86/1-90)؛ سير الشماخي (267-269).

تسقط في أيديهم، في آخر الأمر. وحينئذ، لم يكن لآخر الأئمة الرستميين، أبي يوسف يعقوب بدٌّ من الفرار مع أسرته وأعيان دولته إلى سدراتة وارجلان، في الجنوب الشرقي من تيهرت.

وهناك فكر البعض في اعادة بناء الامامة، ولكن هذه الفكرة لم تكن واقعية. وقد أدرك هذه الحقيقة الامام نفسه.

* * *

وفي هذه الأثناء، تكونت دويلة اباضية في جبل نفوسة الذي لم يقتحمه العبيديون إلا في وقت متأخر، بزعامة عالم يسمى أبو يحيى زكرياء الأرجاني[38]. وخلع عليه لقب «الامام المدافع»، وقد دامت هذه الدويلة نحو 15 سنة. وهذا هو الحاكم الاباضي الوحيد الذي أخذ لقب «الامام» بعد الرستميين. وعلى الرغم من أن سلطان أبي يحيى لم يكن يتجاوز جبل نفوسة، فهو، مع ذلك، كان يحكم هذه المنطقة فعلاً، ومنع عنها العبيديين.

والاباضيون في الوقت الحاضر لا يزالون متمسكين بتراثهم ومميزاتهم التي ورثوها عبر القرون، وهم يعيشون في جماعات متضامنة منطوية على نفسها ثقافياً، ولكنها ترتبط بعلاقات بتبادل تجاري وتعيش في وئام مع مختلف الجماعات الدينية والاثنوغرافية في المغرب. والمناطق الجغرافية الأساسية التي يعيشون فيها (فيما عدا المدن الرئيسية التي يمارسون الأعمال فيها) هي ورجلة ووادي ميزاب في الجزائر وفي جبل نفوسة في ليبيا، وفي جربة، في تونس، حيث توجد أقلية تمثل النكارية، كما هي الحال في زواغة بليبيا.

* * *

(38) ترجم له الشماخي ووصفه بـ «القاضي العادل، العالم الكامل، الإمام الفاضل، جمع علمًا وعملاً وورعاً». راجع السير، (ص 243-244).

من هو أبو زكرياء؟

لم يرد في التراجم القديمة غير الاباضية التي بين أيدينا ذكر لأبي زكرياء يحيى بن أبي بكر[1]. وأما كتب التراجم الاباضية التي تعرضت لسيرة أبي زكرياء، فهي تعود كلها إلى أصل واحد، وهو طبقات أبي العباس الدرجيني (ت. سنة 670 هـ). وترجمة الدرجيني التي لخصها الشماخي تلخيصاً جيداً ولكنه لا يضيف إليها شيئاً يذكر[2]، تصنف أبا زكرياء ضمن علماء الطبقة العاشرة (450-500 هـ) مع أخيه زكرياء ومع أبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي (الذي مات في نفس السنة التي مات فيها أبو زكرياء ــ 471 هـ). وأبي سليمان يوسف[3]. ونحن نكتفي هنا بنقل ما ورد في هذه الترجمة:

«ومنهم أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر وأخوه، أبو يحيى زكرياء، رحمهما

---

(1) يجب عدم الخلط بينه وبين أبي زكرياء يحيى بن أبي زكرياء الذي كان أيضاً عالماً ومن كتاب السير، ولكنه جاء متأخراً حيث عاش في النصف الأول من القرن السادس الهجري.

(2) راجع السير، (ص 417-418).

(3) انظر للمتأخرين عن أبي زكرياء. معجم المطبوعات (1914)؛ تاريخ الجزائر العام (400/1)؛ معجم أعلام الجزائر (ص 204)؛ الأزهار الرياضية (613/2، هامش 2)، وكذلك Brock S: 1/336.

الله. كانا من الأفاضل المقتفين لآثار الأوائل، لم تزل الديانة بحياتهما حية، وطرق البر ناهجة، وطلب علوم المذهب وسير من تنسك وترهب، ولهما في علوم النظر أطول باع بأدلة ذات اقناع، وحجج تملأ القلوب والاسماع، وتغني عند المحاضرة ما لا تغني المشرفية عند القراع، فكانا مراد الفارين. مع تباعد الدارين».

«وذكروا أن أبا زكرياء بن أبي بكر[4]، توجه ذات سنة إلى وارجلان زائرا، ثم رجع، فمر بجماعة من أصحابه بقنطرارة، فسألوه عن أحوال أهل وارجلان، وكان ذا فطنة وبصيرة فقال: أما ذهب بصري، فلم أر أحداً، وأما رأيت ورجلان خلت فما بها أحد».

«وحكي أن أهل وارجلان قالوا له حين وصل إليهم: أقِمْ عندنا قليلاً فنأنس بك. فقال لهم: قولوا أقم عندنا قليلاً يمت قلبك، وذلك لما اطلع عليه من سوء طريقتهم ورداءة أحوالهم».

«وذكر غير واحد من تلامذة أبي الربيع بن يخلف، قال: أردنا الطلوع إلى جبل دمر لدراسة الكتب، ونحن جماعة نقرأ بتمولست، فلم يوافق ذلك أبا الربيع ولا أبا زكرياء»[5].

---

(4) هكذا في سير الشماخي. ولكن النص المطبوع من الطبقات يورد اسم أبي يحيى زكرياء، انه لمن المؤسف أن محقق الطبقات الفاضل لم يقم بمقارنة نسخه بالنسخة المطبوعة من السير (وهي نسخة حسنة في مجموعها). ولو فعل ذلك لأمكن توضيح كثير من الفوارق واللبس، ولا سيما في أسماء الأعلام التي ترجم لأصحابها كلا المؤلفين. ونحن نعتمد في هذا النص قراءة الشماخي، لأن أبا زكرياء أشهر من أخيه، كما أن اسمه ورد قبل اسم أخيه في الترجمة. وبالتالي، فمن الطبيعي أن يدور الحديث حوله أكثر من أخيه.

(5) قراءة الشماخي. وفي النص المطبوع من الطبقات: ولا أبا يحيى زكرياء.

«وقال أبو زكرياء، اعلموا ان سوء الرأي انما يخرج منه من دخل فيه بالرجوع عنه لا بالتمادي عليه. وقال لهم أيضاً: إنكم إن مضيتم إلى أهليكم على هذه الحالة، كنتم كمن تعمد إماتة الدين. وهذا تحريض وترغيب في طلب العلم».

وكان كثيراً ما يوصيهم. فيقول لهم: إيَّاكم والتسارع إلى قبول صنائع الناس وهداياهم، فإنه قيل كن عبداً لله ولا تكن عبداً للناس. وأنشد في ذلك:

ولست وان قربت يوماً ببائع لديني وأخلاقي رجاء التقرب
ويعتاده قوم لقوم تجارة ويمنعني من ذاك ديني ومنصبي»

ويمضي الدرجيني، فيورد مراسلة أبي زكرياء لأبي نوح محمد في مسألتين فقهيتين وإجابة أبي نوح ثم يقول: «وروى أبو عمرو[6] عن أبي زكرياء بن أبي بكر، انه كان كثيراً ما يردد قول يحيى بن معاذ الرازي: للتوبة ثلاث مقامات، الندم، والاستغفار، والحقيقة. فالندم عند التحول والشعور بمرارة المعاصي. والاستغفار، طلب الغفران بصحة الإرادة. والحقيقة، الاوبة إلى الله عزَّ وجلَّ. فآفة الندم الأمل، وآفة الاستغفار، الغفلة، وآفة الحقيقة الشهوة»[7].

---

(6) كذا في الطبقات، وفي الشماخي: أبو عمر.

(7) الطبقات (451-448/2).

كلمة
عن كتاب السير

قمت بتحقيق نص كتاب السير على أساس مخطوطة واحدة مكتوبة بخط مغربي حسن واضح ــ والعناوين مكتوبة بالحبر الأحمر. ويبلغ عدد صفحات المخطوطة 180 صفحة مقاس 25×18 ، وعدد أسطر الصفحة 21 سطراً من المتوسط.

والنسخة ملك للشيخ سليمان بن داود من غرداية، أعارها لي، مشكوراً، لغرض تحقيق الكتاب. وهذه النسخة منسوخة على نسخة أخرى بخط الشيخ عمر بن يوسف وصححت على نسخة أخرى بخط ابن أخ المذكور، وهو يحيى ابن الحاج سعيد بن يوسف. وقد قام بنسخ النسخة التي اعتمدت عليها، بكير بن إبراهيم الذي نسخها للشيخ محمد بن إبراهيم بن سليمان بن إبراهيم، وفرغ من نسخها في غرة محرم سنة 1335 هجرية، بغرداية، وقد حبست النسخة برسم محكمة غرداية (سجل 101).

ونظراً لجودة النسخة التي أسعفني الحظ بالعثور عليها والتي هي النسخة الوحيدة المعروفة لدي ولدى أصدقائي الاباضيين الذين تحدثت معهم في الموضوع، فإنني لم أجد سوى صعوبات ثانوية في تحقيق هذا النص.

وهذه الصعوبات تتصل، خصوصاً، بقراءة أسماء بعض الأشخاص

والأماكن، وقد تمكنت من تذليلها بالرجوع إلى سير الشماخي وطبقات الدرجيني. وذلك بالإضافة إلى مخطوط أباضي آخر (أتيحت لي منه نسختان) قمت بتحقيقه، في نفس الوقت، تقريباً، وأعني بذلك سير أبي الربيع الوسياني.

فهذه النصوص بالإضافة إلى المراجع المعروفة والتي استعنت بها لوضع الهوامش، هي التي استعملتها لمقارنة ما أشكل علي من أسماء الأشخاص والأماكن الواردة في مخطوطة كتاب السير.

وهذا الكتاب يحقق وينشر لأول مرة بالرغم من مضي نحو عشرة قرون على وضعه، ولكنه مع ذلك معروف لدى القدماء والمحدثين من الدارسين لشؤون الاباضيين الدينية والسياسية.

فان المستشرق الالماني، ادوارد ساخو (E. Sachau) يخبرنا أن الكتاب قد اعتمده المشارقة مصدراً للأخبار التي تتعلق باباضية المغرب، وان المؤلف المجهول لكتاب «كشف الغمة في سير أئمة عمان» إنما أخذ مادته عن رجال المذهب في شمال افريقية من كتاب السير لابن زكرياء[1].

وقبل ذلك، كان كتاب السير المصدر الأساسي (مع سير أبي الربيع الوسياني) الذي استقى منه الدرجيني مادة طبقاته (ولا سيما الجزء الأول الذي يشتمل على عشرات الصفحات الملخصة أو المقتبسة حرفياً من كتاب السير) وكذلك استفاد منه ونقل كثيراً من روايات أبي زكرياء أبو الربيع الوسياني الذي عاش في القرن السادس في سيره[2].

---

(1) راجع، ادوارد ساخو. المصدر المذكور، (ص 1-19).
(2) قام هذا الكاتب بتحقيق الجزء الثاني من سير أبي الربيع الوسياني، والكتاب تحت الطبع.

وأما الشماخي، فيبدو انه لم يطلع على نص الكتاب، ولكنه مع ذلك ينقل عنه كثيراً بواسطة طبقات الدرجيني. وكذلك استفاد منه سليمان الباروني كثيراً في كتابه، أزهار الرياض (الجزء الثاني) الذي أرخ فيه لتيهرت وللأئمة الرستميين.

وكتاب أبي زكرياء، هو المصدر الاباضي الأول والوحيد الذي يمكن بواسطته وضع صورة تركيبية للدولة الرستمية[3]. وهو أيضاً من المراجع التي لا يمكن كتابة تاريخ المغرب دون الاستعانة بها[4].

وبالفعل، فان المؤرخين الأوربيين الذين كتبوا عن المغرب في غضون القرن الماضي، منذ ترجمة كتاب السير إلى اللغة الفرنسية (سنة 1878 م). إنما أخذوا مادتهم الأساسية عن عدد من الموضوعات، وفي مقدمتها ما يتعلق بتاريخ تيهرت، من هذا الكتاب.

على أن الشيء الذي ينبغي تسجيله أيضاً، هو أن الكتاب قد صادف سوء طالع غريب. فبينما نجد الكتب الاباضية التي استقت منه واعتمدته، مثل سير الشماخي وطبقات الدرجيني قد نشرت نصوصها (والأول نشر مرتين)، فإذا به هو يظل مخطوطاً نادر الوجود.

والترجمة الفرنسية التي أشرنا إليها لكتاب السير قام بها ماسكاري تحت عنوان «تاريخ أبي زكرياء»[5]. وإنه لمن سوء الحظ أن هذه الترجمة

---

(3) مع اعتبار أن ابن الصغير مالكي وليس اباضياً، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

(4) راجع: Basset (R), Les sanctuaires du Djebel Neffousa, Paris, 1889, (p. 6).

(5) Emile Masqueray, La Chronique d'Abou Zakaria, Alger, 1878.

لم تكن في المستوى المطلوب، بل ان من الممكن القول صراحة بأنها رديئة[6].

فإلى جانب الثغرات الكثيرة الموجودة في النص الفرنسي والتي تهمل فيها جمل أو فقرات هنا وهنالك، والتي أشرنا إليها، متى كانت مهمة، في هوامش كتابنا، نلاحظ أن النسخة التي اعتمدها المترجم مبتورة في الوسط وفي الأخير، بحيث يبلغ عدد الورقات التي سقطت في مكان واحد 30 ورقة (من الورقة 130 حتى 161 في مخطوطتنا). وفي الأخير، يعترف المترجم بأن نسخته غير كاملة بحيث أنه لا يعرف عدد الصفحات الناقصة منه.

وعلى الصعيد التقني، فان ترجمة مخطوط مغامرة كبيرة. ولكي يضمن المترجم لنفسه حظاً من النجاح، يجب أن يتأكد من أنه ليس متضلعاً من اللغتين فحسب، بل هو أيضاً متمرن على آليات قراءة الخط العربي، وله تدريب معقول في ذلك. وهذه، مع الأسف، ليست حال مترجم مخطوطنا، الذي كان محروماً من الميزة الأخيرة، في الوقت الذي كان فيه مستوى لغته العربية لا يتجاوز مستوى معلم فرنسي في مدرسة ثانوية لهذه اللغة في عهد الاستعمار. وفي هذا السياق، نلاحظ أن الطريقة التي انتهجها المترجم، هي أنه يهمل بكل بساطة الجملة التي وجد صعوبة في قراءة إحدى كلماتها.

والترجمة في مجموعها تنطوي على كثير من التمديد والإضافة غير الضرورية والحشو والاقتضاب. والمترجم، بعد، لم يبذل أي مجهود للتعرف

---

(6) وصفها البعض بأنها ناقصة. وقال جورج مارسي (G. Marçais) في مقاله «الرستميون» في دائرة المعارف الإسلامية «انها ترجمة جزئية». وتحدث عنها المستشرق البولندي ليويسكي في موضعين، وصفها في الأول بأنها «متواضعة» وفي الثاني بأنها «رديئة جداً».
راجع: Revue des Etudes Islamiques, 1934 (p. 74 et p. 59. note 2)

على أسماء الأماكن الواردة في النص، أو على الاعلام المترجم لها، بل إن اسم المؤلف نفسه ورد في العنوان بهذا الاقتضاب الغريب: «أبو زكريا»، وهو إسم (كنية) يشترك فيه عشرات من العلماء الاباضيين.

وفي غضون التعليقات الضافية التي كثيراً ما تفقد الصلة بالموضوع كلية، عبثاً يحاول القارىء أن يكتشف حالة بذل المترجم فيها مجهوداً للتوفيق بين روايات أبي زكرياء وأقوال غيره من المؤلفين. ونحن على كل حال، نعلن بكل أسف أننا لم نستفد من هذه التعليقات قليلاً أو كثيراً في الهوامش التي وضعناها على النص الذي بين أيدينا. وإذا استغرب القارىء عدم الإشارة إلى هذه الترجمة وإلى هوامشها، فينبغي أن يعرف أن السبب في ذلك، هو أننا غير مدينين لهذا المترجم بشيء على الإطلاق.

على أن الأسوأ من كل ما تقدم، هو الروح الاستعمارية الفجة التي تسود هوامش المترجم ومقدمته والتي لا نجد لها مثيلاً إلاّ في الجيل الأول للمعمرين، أمثال بيجو وخلفائه. وهذه النزعة يصدمنا بها المترجم ويبرزها في مناسبة وفي غير مناسبة، ولا سيما حين يستعمل كلمات مثل: «ممتلكاتنا» و«جزائرنا» و«شاويتنا» و«ميزابنا». وهذه كلها تتردد في المقدمة والهوامش بالاعتزاز والفخر الذي يتحدث به الإقطاعي عن قطعانه وعبيده. والعملية كلها (الترجمة) في ذهن المترجم لا تنحصر في نقل معلومات وتقديم خدمة للباحثين والدارسين، بل هي تستهدف توفير صورة خلفية لكي يفهم المستعمرون «عقلية الأهالي الذين يحكمونهم: «فإذا أردنا فهم شعب لكي نحكمه، فيجب أن نأخذه كما هو»[7].

وبعد مرور ما يقرب من قرن على ظهور ترجمة مسكاري لكتاب السير، قام المؤرخ المستعرب المعروف. لوتورنو (R. Le Tourneau) في سنة

---

(7) ترجمة كتاب السير، (ص 151، هامش 1).

1960، بمحاولة لإعادة ترجمة الكتاب، ونشر قسماً من هذه الترجمة يمثل أقل من ثلث النص الأصلي، في المجلة الأفريقية[8].

وقد ذكر المترجم في الفقرة التي قدم بها لهذه الترجمة انه اكتشف عدداً من مخطوطات الكتاب، بعضها كامل، والبعض الآخر عبارة عن أقسام منه.

ونحن نأسف لأن المترجم لم يدلنا على أماكن وجود هذه المخطوطات، وما إذا كان قد عثر عليها في مكتبة عمومية أم في خزائن الأفراد. وهو كذلك لم يقدم لنا أي وصف للمخطوطة (أو المخطوطات) التي اعتمدها للترجمة (مثل عدد أوراق المخطوطة وسطورها ونوع الخط وحالة ورقها إلخ)، بل هو اكتفى بالقول بأن «جماعة من المستعربين والمستشرقين قد عكفت على مهمة تحقيق النص العربي للكتاب وعلى ترجمته إلى اللغة الفرنسية[9]، وذلك دون أن يذكر أسماء أفراد هذه الجماعة.

وعلى الرغم من أن القسم المترجم من الكتاب لا يحمل سوى توقيع المسيو لوتورنو، فان قلم تحرير المجلة نوه بأن هذه الترجمة جزء من ترجمة جماعة المستشرقين المقترحة[10].

وكذلك أهمل المترجم أن يورد أرقام أوراق المخطوطة الأصلية، الأمر الذي كان يمكن معه التعرف على حجم المخطوطة إجمالاً. على أن يداً مجهولة قامت بهذه المهمة بوضع أرقام الأوراق بقلم رصاص على هامش الترجمة في النسخة المحفوظة في المكتبة الوطنية الجزائرية، فكان عدد أوراق المخطوطة المترجمة 49 ورقة (وهو يمثل أقل من ثلث الكتاب).

---

(8) Revue Africaine, 1960 (p. 99-172), 1960 (99-172)

(9) نفس المصدر (ص 99).

(10) نفس المصدر.

ونحن لم نحاول دراسة هذه الترجمة بتعمق بمقارنتها بالنص العربي (كما فعلنا بالترجمة الأولى)، لأن نيفاً وسبع عشرة سنة مضت دون أن يتمكن المترجم من إتمام عمله الذي لا يزال مجرد قطعة. ولكن الانطباع بشأنه هو أنه على الرغم من وجود أغلاط فيها (تبرعت يد مجهولة بتصحيحها في نسخة المكتبة الوطنية من المجلة)، فإن هذه الترجمة أفضل من ترجمة مسكاري.

قلنا ان حظ الكتاب من الترجمة سيِّىء،وقد شاءت الأقدار أن تكون هذه الترجمة الرديئة هي التي اعتمدها الكتاب في كل ما كتب في غضون هذا القرن عن الأحداث التي تناولها أبو زكرياء. ولكن ما هي العوائق التي حالت دون تحقيق هذا الكتاب ونشره؟

السبب الأساسي، فيما يبدو لي، هو أن الكتاب يعتبر مفقوداً، حيث أننا لا نعرف وجود نسخة منه في مكتبة عمومية أو فردية[11].

وأما المخطوطة المبتورة التي اعتمد عليها ماسكاري لترجمة الكتاب، فانها قد اختفت عقب وفاة هذا الكاتب الذي اختطفته يد المنون اثر نشر ترجمته بوقت قصير، وقد فشلت جهود الباحثين المهتمين بالموضوع في العثور عليها. وكذلك اعتبر النص العربي لكتاب السير ضائعاً. مما جعل العلامة

(11) ذكر ليويكي (Revue des Etudes Islamiques, 1934) أنه توجد نسخة من كتاب السير في مكتبة جامعة «لوو» (Lwow) ببولندا. ولكنا نعرف أن معظم المخطوطات التي جمعها المستشرقون البولنديون (ومنها مجموعة سموجورزوفسكي Smogorgowski الثمينة)، قد نقلت إلى الاتحاد السوفيتي عقب ضم مساحات شاسعة من الأراضي البولندية إلى أوكرانيا وروسيا البيضاء. وقد علمنا بطريقة غير مباشرة أن سموجورزوفسكي كان يملك نسخة من كتاب السير. لأن المؤرخ جوتييه (Gautier) أنه وعده بتحقيق المخطوط ونشره. ولكن ذلك لم يقع. والمخطوطة نفسها لا نعرف عن مصيرها شيئاً.

جوتييه يقول بصدد الحديث عنه باستغراب: «إنه من الأشياء المحيرة للعقل أن لا نعرف كتاباً عربياً في التاريخ إلا عن طريق ترجمته»[12].

قلنا ان كتاب السير قد احتل المكانة اللائقة به بين المراجع التاريخية منذ ظهور ترجمته. ولكن ما هي نوعية المساهمة التي يقدمها أبو زكرياء بن أبي بكر للبحث التاريخي؟

في المكان الأول يعرفنا الكاتب بعدد من مراكز إشعاع المذهب الاباضي، مثل قنطرارة وقفصة ووارجلان وتيهرت وما كان يجري فيها من نشاط في التعليم والجدال والاجتهاد والافتاء إلخ؛ في الوقت الذي يترجم فيه لعدد من أئمة المذهب ومشائخه ويقدم إلينا عنهم صفحات مؤثرة تبرز، إلى جانب علمهم، فضلهم وتقشفهم وميولهم إلى العدل والتمسك بأهداب الدين الحنيف. وهو في ذلك كله، يتحدث عن شخصيات معاصرة له، أو هي قريبة العهد به ولا تزال مآثرها حية وذكراها عاطرة في نفوس الناس. ونحن نستطيع أن نطمئن إلى روايات أبي زكرياء لأنه واحد من ذلك القوم، ولأنه لم يكن من مؤرخي القصور ولم يلتمس رضا سيد من الأسياد، وانما هو عالم يدفعه إلى تسجيل سير أشياخه ليكونوا قدوة للأمة، نفس الإيمان الراسخ الذي حمل أسلافه على الوقوف في وجه أمواج القوة المتعاقبة.

والصفحات التي خصصها المؤلف لثورة أبي يزيد الخارجي (صاحب الحمار) مفعمة بالتفاصيل المثيرة، وذلك فضلاً عن أن الكاتب يفند زعم القائلين بأن الاباضيين متضامنون بطريقة العصبية وينصرون أخاهم «ظالماً أو مظلوماً»، حيث أنه لا يتردد في استنكار الفظائع التي ارتكبها هذا الثائر ويصفه بأنه «عدو الله».

---

(12) راجع: Gautier (F), le Passé de l'Afrique du Nord, éd, Payot, 1954 (p.304).

وفي نفس الوقت، فان وصف المؤلف للعبيديين بأنهم، هم أيضاً، «أعداء الله»، لم يمنعه من أن يخصص صفحات من كتابه لينقل إلينا صورة فريدة عن معاملة المعز لدين الله لأبي نوح سعيد بن زنغيل ولأبي القاسم بن يزيد بن مخلد، الامامين الاباضيين اللذين قادا ثورة فاشلة ضده، وقد بلغ به الأمر في حرصه على إرضائهما وإرضاء أتباعهما أنه عرض عليهما إعادة ملك تيهرت إلى الطائفة الاباضية. وكذلك يعرض علينا المؤلف بسخاء تفاصيل مالقيه أبو نوح في بلاط القيروان من الرعاية والكرم والتقدير لعلمه، مما يدل على نزاهة هذه الرواية وبعدها عن التعصب والحزازات التاريخية.

صحيح أن رواية أبي زكرياء عن عبيد الله المهدي وعن أبي عبد الله (الداعي) تختلف في بعض التفاصيل عن رواية بقية المؤرخين (ومثال ذلك ما يتصل بإقامة عبيد الله في وارجلان وفي سجلماسة وكون اليسع بن مدرار قد عينه وزيراً في دولته)، كما أننا لا نفهم إلحاحه على تسمية أبي عبد الله الداعي باسم «أبي محمد الحجاني» (هل كان ذلك جهلاً بهذا الاسم اللامع؟).

ولكن هذا الاختلاف ينطوي على عناصر جديدة توسع آفاق النظرة التقليدية إلى بداية عهد العبيديين. ونحن لا نغالي إذا قلنا ان الباحث الذي يريد رسم خريطة تبرز مسيرة عبيد الله من الشام عبر مصر والجنوب التونسي وبلاد كتامة ووارجلان إلى سجلماسة، يحتاج إلى أن يدرس بعناية رواية أبي زكرياء.

وكذلك نرى أن الباحث الذي يدرس ثورة أبي يزيد صاحب الحمار وشخصية هذا الرجل لا يمكنه أن يستوفي البحث حقه إذا أهمل العناصر الجوهرية التي يقدمها أبو زكرياء. والحق أن «تغطية» أبي زكرياء لهذه الثورة لا تفوقها في التفاصيل سوى رواية ابن الأثير.

وأما ما ذكره أبو زكرياء عن الأئمة الرستميين، فهو بالتأكيد أدق وأغنى ما وصل إلينا من المعلومات عن هذه الدولة. وكتاب السير سيظل المرجع الأول والأخير عنها.

ولكن هذا لا يعني أن الكتاب يخلو من فجوات هنا وهناك. فان القارىء، مثلاً، سيندهش حين يلاحظ أن أبا زكرياء لا يذكر شيئاً عن دور ورفجومة التي كانت تناصر أبا حاتم عندما نشب القتال بينه وبين يزيد بن حاتم، بعدما تحولت هذه القبيلة من موقف العداء الذي لا هوادة فيه للخوارج منذ بضعة أعوام إلى موقف الحليف والنصير.

ومن الغريب كذلك أن الكاتب الذي يقدم إلينا صفحات ثمينة عن العبيديين في الشرق، لا يذكر قليلاً أو كثيراً عن دولة الأدارسة ولا عن علاقات هذه الدولة بالرستميين الذين كانت تتعايش معهم في سلم ووئام. وهذا الصمت يحيرنا، خصوصاً إذا اعتبرنا أن الأدارسة كانوا، مثل الرستميين وبني مدرار في سجلماسة، جميعاً يقاومون عدواً مشتركاً غزا أراضيهم وشتت شمل أسرهم الحاكمة.

وأكثر من ذلك، فان الكتاب لا يعطينا سوى صورة غامضة عن تيهرت في أيامها الأخيرة، قبل أن يدمرها العبيديون.

والكتاب لا يذكر شيئاً عن علاقات تيهرت بالخلافة الأموية في الأندلس، تلك العلاقات التي كانت نتيجة لظهور قوة العبيديين ولرغبة قرطبة في إقامة حواجز بينها وبينهم في أبعد نقطة ممكنة.

ومن جهة أخرى، أهمل المؤلف كلية تاريخ الأغالبة، وما شهدته دولتهم من الثورات في القارة وحروبهم في صقلية وانما يذكرهم لأول مرة لدى مرور جيوشهم بجبل نفوسة في طريقهم إلى تيهرت، حيث دخلوا في معركة حاسمة في تاريخ الاباضية (مانو).

بل إن أبا زكرياء لم يتعرض في روايته لافتتاح أبي عبد الله للجنوب

التونسي، وخصوصاً، لقسطيلية وقفصة، وهما معقلان اباضيان من الدرجة الأولى[13].

تلك وغيرها فجوات تستلفت أنظار الدارس المدقق لكتاب السير، وليس من السهل تفسيرها، اللهم إلاّ إذا راعينا أن انسحاب الاباضيين إلى الجنوب واحتلال العبيديين لكثير من مراكز الإشعاع لبلدهم قد حرمهم من مكتباتهم ولا سيما، مكتبة «المعصومة» بتيهرت التي قيل إنها أحرقت[14] واضطر علماءهم إلى اجترار الرواية الشفهية التي عملوا بها لتسجيل الأحداث التي نقلتها إليهم واعتمدوا عليها دون سواها. وهذا الاعتبار يفسر لنا أيضاً ظاهرة أخرى في سير أبي زكرياء وفيما كتب بعده من السير الاباضية، وهي خلوها من تواريخ ميلاد المترجم له وتاريخ وفاته، ومن التواريخ بصفة عامة، وخلوها كذلك، من الحقائق المجردة، ومن تسلسل أنساب المترجم لهم إلى ما فوق الأب والجد، وعدم إيرادها أية مراجع تاريخية لغير الاباضيين.

ومهما يكن من أمر، يجب ألا يغيب عن أذهاننا أن تاريخ أبي زكرياء إنما هو تاريخ اباضي ديني في المكان الأول، يرتكز على سير العلماء والأئمة الذين يقتصر على إيراد الحوادث التي وقعت لهم أو شاركوا فيها، دون أن يهتم بسياقها التاريخي العام في المغرب. ونحن يجب أن نأخذه كما هو ونثني على منهجية صاحبه وعلى دقته ونزاهته.

الجزائر في 8 إبريل 1977 .

إسماعيل العربي

---

(13) راجع عن افتتاح هاتين المدينتين، رسالة افتتاح الدعوة، (ص 197-198)؛ البيان (145/1)، الذي ذكر هذا الفتح ضمن حوادث سنة 296 هـ. التي هي السنة التي افتتح فيها أبو عبد الله تيهرت أيضاً. نفس المصدر (197/1)؛ الكامل (49/8)؛ الاتعاظ (ص 66).

(14) أعرب الأستاذ الباحث موسى لقبال عن تشككه في الرواية القائلة بأن العبيديين أحرقوا مكتبة «المعصومة» في مقال نشره في مجلة الأصالة، عدد يناير 1977 (ص 61، وما يليها).

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله
الجزء الأول من كتاب السير واخبار الأيمة تأليف الشيخ الفقيه
الأجل السيد الفاضل الأعدل أبي زكرياء يحيى بن أبي بكر
رحمه الله تعالى ورضي عنه وأرضاه . آمين
الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة
وهو الحكيم الخبير اما بعد فانه لما رأينا ما انطمس من الآثار
وما اندرس من الأخبار انبعثت أفكارنا الى تأليف أخبار من
سلف من الأشياخ أهل هذه الدعوة وعلمائها ونذكر مناقبهم
وحسن سيرهم وجميل مذاهبهم ونشر فضائلهم بكتبنا من ذلك
ما تيسر لنا كتابته ورجونا منفعته من بعد ما خشينا على العوام
ان يتخذوه وراءهم ظهريا ويجعلوه نسيا منسيا والى الله الرغبة
واياه نسأل العصمة ومن لدنه نرجو الثواب فيما اليه قصدنا
وله المنة علينا وهو حسبنا ونعم الوكيل فأول ذلك ذكر سبب
وقوع الاباضية ببلاد المغرب وكيف كان الخمسة الذين حملوا
العلم الى أرض المغرب وكيف كان ابتداء الامامة الى انقراضها ثم ما يتلوا
ذلك من أخبار المشايخ واخبار اهل الدعوة مع الأيمة المسودين
وكيف كان من قام عنهم فرقا بعد فرق بعد ما يتبع ذلك من
أحاديث أهل الدعوة ونشر مآثرهم وطلب أخبارهم سلف
عن خلف وخلف بعد خلف وعسى ان يتذكر به متذكر ويستيقظ
ذو همة فان الذكرى تنفع المومنين حدث غير واحد
من أصحابنا وحدث الامام أفلح عن ابيه عبد الوهاب عن ابيه
عبد الر

عبد الرحمن بن رستم رضي الله عنهم في بعض ما يعد شيوخهم
وكان أبا داود إذا ذكره ذكره بالإمام قال أخبرنا الإمام أو قال سمعته يقول أول
من جاء بهذه الصفة يريد مذهب الإباضية ونحن بغيرها ناو بغيبة
سلمة بن سعيد قدم علينا من أرض البصرة هو وعكرمة مولى
ابن عباس وكانا على جمل واحد جملا عليه زادهما سلمة
ابن سعيد يدعو إلى الإباضية وعكرمة مولى ابن عباس يدعو إلى الصفرية
قال وسمعت سلمة يوما يقول وددت أن يظهر هذا الأمر يعني
مذهب الإباضية بالمغرب يوما واحدا من غدوة إلى الليل فما
أبالي بعد ذلك ضربت عنقي ثم إن عبد الرحمن بن رستم قام في هذا
الأمر مجتهدا في طلبه غاية الاجتهاد فقال له رجل من أهل الدعوة
إن كنت تريد علم هذا الأمر الذي كلفت به وعلقت به إنك تطلبه
فحوتك أرض البصرة فإن بها عالما يكنى أبا عبيدة واسمه مسلم بن أبي
كريمة التميمي وإنك تجد عنده ما تطلبه وقيل إن أمه هي التي قالت
ذلك له فلذلك توجه عبد الرحمن بن رستم إلى أبي عبيدة رضي الله عنه
وله حديث عنه سأذكره بعد إن شاء الله مع النفر الذين طلبوا
العلم إلى أبي عبيدة إذ صرنا إليه ذكر فضائل الفرس من
العجم ونظرنا في كتاب أعلام النبي صلى الله عليه وسلم لابن قتيبة وقد ذكر
أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في كتاب الوعظ والزهد أن إيوان
كسرى اهتز وسقطت منه أربع عشرة شرافة ليلة تولد بها
النبي صلى الله عليه وسلم فهاله ما رأى من ذلك وعزم على كتمان
ذلك عن وزرائه فلم تحتمله نفسه وضاق به صدره فلما

كتاب السير
لأبي زكرياء

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد وآله الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير.

أما بعد، لما رأينا ما انطمس من الآثار، وما اندرس من الأخبار، انبعثت أفكارنا إلى تأليف أخبار من سلف من الأشياخ، أهل هذه الدعوة[1] وصلحائها ونذكر مناقبهم، وحسن سيرهم، وجميل مذاهبهم، ونشر فضائلهم، فكتبنا من ذلك ما تيسر لنا كتابته ورجونا منفعته من بعد ما خشينا على العوام أن يتخذوه وراءهم ظهرياً، ويجعلوه نسياً منسياً، وإلى الله الرغبة وإياه نسأل العصمة، ومن لدنه نرجو الثواب فيما له قصدنا، وله المنة علينا، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

فأول ذلك، ذكر سبب وقع مذهب الاباضية ببلاد المغرب، وكيف كان الخمسة النفر الحملة العلم إلى أرض المغرب، وكيف كان ابتداء الإمامة إلى انقراضها، ثم ما يتلو ذلك من أخبار المشائخ وأخبار أهل الدعوة مع الأئمة المسودة[2] وكيف كان قيام من قام عنهم، قرناً بعد قرن،

(1) الدعوة الأباضية.

(2) بنو العباس الذين اشتهروا بلباس السواد. ولكن أبا زكرياء كثيراً ما يتحدث عن الفاطميين ويسميهم أيضاً المسودة لسبب نجهله.

وما[3] يتبع ذلك من أحاديث أهل الدعوة ونشر مآثرهم، وطلب مخابرهم، خلف عن سلف[4] وخلف بعد خلف، وعسى أن يتذكر به متذكر، ويستيقظ ذو هفوة، فان الذكرى تنفع المؤمنين.

حدث غير واحد من أصحابنا وحدث به الإمام أفلح عن أبيه عبد الوهاب عن أبيه عبد الرحمن بن رستم ـ رضي الله عنهم ـ في بعض ما يحدث به عنهم، وكان إذا ذكره، ذكره بالإمام، قال أخبرنا الإمام، أو قال سمعته يقول، أو من جاء بهذه الصفة يريد مذهب الاباضية[5]

---

(3) في الأصل: بعدما.

(4) في الأصل: سلف عن خلف.

(5) ينسب المذهب إلى عبد الله بن إباض (ت 86هـ) بكسر الألف في أكثر الروايات وبالضم والفتح في بعضها. وهو عبد الله ابن اباض المقاعسي المري التميمي. من بني مرة. كان معاصراً لمعاوية وعاش في أواخر أيام عبد الملك بن مروان (26-86 هـ) الذي كان على علاقات حسنة معه. وإذا كان المؤرخون قد وقعوا في اضطراب بشأن تحديد سنة وفاته، فإن الدرجيني يعتبره من الطبقة الثانية (50-100 هـ) ويعده الشماخي من التابعين، ويرى صاحب أزهار الرياض أنه من أبناء النصف الثاني من المئة الأولى للهجرة. بعد جابر بن زيد. وصفه الدرجيني بقوله: «كان إمام أهل الطريق وجامع الكلمة، فهو العمدة في الاعتقادات والمبين لطرق الاستدلالات». وقال عنه الشماخي انه «إمام أهل التحقيق والعمدة».

قيل نقلاً عن نشوان الحميري، عن أبي القاسم المعتزلي. ان عبد الله «لم يمت حتى ترك قوله كله ورجع إلى الاعتزال». ولكن هذا القول لا تؤيد المصادر الاباضية، ونحن نعرف أن الاباضية كانت تتمشى مع الاعتزال في عقلانيته، وأنه على الرغم مما كان بينهما من خلافات ثانوية لم ينفصلا إلا في عهد الإمام عبد الوهاب.

ومن الأقوال الأخرى التي تبدو غريبة عن سيرة عبد الله ابن اباض، ما رواه الشهرستاني من أن عبد الله اشترك في ثورة طالب الحق وحارب في وقعة بقديد، مع عبد العزيز بن عبد الله بن عثمان. ولكن المستشرق دو موتلينسكي (A. De Motylinski)، عرض لتفنيد هذه الرواية بحجج وجيهة، حيث أن المصادر الاباضية الموثوق بها تفيد بأن عبد الله مات قبل هذه الثورة بزمن طويل.

راجع: سيرة عبد الله بن اباض في طبقات الدرجيني (214/2)؛ سير الشماخي =

ونحن بقيروان افريقية، سلمة بن سعيد، قدم علينا من أرض البصرة، هو وعكرمة(6) مولى ابن عباس، وهما راكبان على جمل واحد حملا عليه زادهما، سلمة بن سعد(7) يدعو إلى الاباضية، وعكرمة بن عباس يدعو إلى الصفرية.

قال وسمعت سلمة يوماً يقول، وددت أن يظهر هذا الأمر، يعني مذهب الاباضية بالمغرب يوماً واحداً من غدوة إلى الليل، فما أبالي بعد ذلك ضربت عنقي.

ثم ان عبد الرحمن بن رستم قام في ذلك الأمر مجتهداً في طلبه غاية

= (ص 77-78)؛ الملل والنحل للشهرستاني (ص 168-196)؛ الفرق بين الفرق للبغدادي (ص 61-62)؛ تاج العروس (مادة أبض) فجر الإسلام (ص 260-261)؛ الكامل (179/2 و180)؛ ضحى الإسلام (337/3-338)؛ الكامل للمبرد (ط. Wright، ص 610) Beker, Der Islam (412، تعليق 1)؛ الاباضية للمستشرق A. De Motylinski، في دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الأولى)، مقالة «الاباضية للمستشرق T. Leweski»، في دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية).

— Welhausen, Dies Religios-Politischen opposition parlein in Alten Islam, Berlin, 1910, pp. 9-28.

(6) هو عكرمة بن عبد الله البربري (25-105 هـ) مولى ابن عباس، تابعي، كان من أعلم الناس بالتفسير والمغازي. وقد روى عنه مايقرب من 300 رجل. كثير منهم من التابعين. وقد خرج إلى بلاد المغرب فأخذ عنه رأي «الصفرية» من الخوارج، وعاد إلى المدينة فطلبه أميرها فاختفى عنه حتى مات.

راجع: سيرته في حلية الأولياء (3-326)؛ ميزان الاعتدال (2-208)؛ وفيات الأعيان (265/3-266)؛ طبقات الدرجيني (1-11-12).

(7) ذكره الشماخي بالعبارات التالية: «هو الذي وصل إلى المغرب يدعو الناس إلى هذا المذهب، وهو يتمنى ظهوره يوماً واحداً ويموت في آخره» وقال انه هو الذي دل حملة العلم على موضع ابن عبيدة بالبصرة؛ السير (ص 98). قارن طبقات الدرجيني (11/1).

راجع: الاباضية في موكب التاريخ (25/1-26).

الاجتهاد، فقال له رجل من أهل الدعوة، ان كنت تريد علم أهل هذا الأمر الذي كلفت به وعلقته وأراك تطلبه، فدونك أرض البصرة، فإن بها عالماً يكنى أبا عبيدة، واسمه مسلم ابن أبي كريمة التميمي، فإنك تجد عنده ما تطلبه. وقيل إن أمه هي التي قالت ذلك له، فلذلك توجه عبد الرحمن بن رستم إلى أبي عبيدة ــ رضي الله عنه ــ، وله حديث عنه سأذكره بعد ان شاء الله، مع النفر الذين طلبوا العلم إلى أبي عبيدة إذا صرنا إليه.

ذكر
فضائل الفرس من العجم

ونظرنا في كتاب اعلام النبي صلى الله عليه وسلم لابن قتيبة[1] وقد ذكر أبو عثمان، عمرو بن بحر الجاحظ في كتاب الوعظ والزهاد، أن إيوان كسرى اهتز وسقط منه أربع عشرة شرفة ليلة تولد بها النبي صلى الله عليه وسلم، فهاله ما رأى من ذلك فعزم على كتمان ذلك عن وزرائه، فلم تحتمله نفسه وضاق به صدره. فلما كان بالغد من ليلته، أخذ بزته ولباسه وقعد تحت تاجه، فأرسل إلى وزرائه وأهل مملكته، فلما اجتمعوا عليه تكلم كسرى[2] فقال لهم:

---

(1) عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينور. أبو محمد. ولد في بغداد سنة 213 هـ، وسكن الكوفة ثم ولي القضاء في الدينور وتوفي في بغداد، سنة 276 هـ. له عدد كبير من التآليف معظمها مطبوع من أهمها: كتاب «المعاني»؛ وعيون الأخبار. راجع عنه آداب اللغة العربية Ch. Brock. S. I/184، وكذلك مقالة «عبد الله بن قتيبة» في دائرة المعارف الإسلامية (1028/2)، والمراجع التي أحيل إليها، وكذلك (الفهرست) Ch. Pellal, le Milieu bassrien dans la formation de Gâhiz.

(2) كسرى أنو شروان (531-578 م.).
راجع: Basset (R) La Borda de Cheikh El-Boussiri, Paris, 1894, p. 51;
وفجر الإسلام، (ص 111-112).

أخبروني بم بعثت إليكم. فقالوا: ليخبرنا الملك، فإن يكن عندنا شيء أخبرناه به. فقص عليهم خبر الإيوان.

وكان من وزرائه رجل يقال له الموبدان، فقال: وأنا، أصلح الله الملك، رأيت رؤيا أهالتني وأقلقتني.

فقال له الملك: يا موبدان[3] هات رؤياك. فقال الموبدان: إني رأيت ابلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً[4] حتى انتشرت في دجلة وبلادها.

فقال الملك: أي شيء يكون ذلك يا موبدان؟

فقال الموبدان: لا أدري غير أنه حدث يكون في ناحية المغرب. (وبينما) هم في ذلك يتحاورون الكلام، إذ أقبل عليهم راكب (يخبر) بخمود نار فارس[5]. وكانت قبل ذلك لم تخمد ألف عام، فهاله ذلك بأشد مما رأى من الإيوان ورؤيا الموبدان (وبينما) هم في ذلك أتاهم آت بغور بحيرة ساوة وفيض ماء السماوات، فاشتد جزعه واستشار وزراءه وأصحابه. فقال له بعضهم ان في ناحية المغرب علماء الكهنة، فلو بعثت إلى عاملك النعمان بن المنذر[6] فيبعث إليك بأعلم من فيهم.

---

(3) موبدان. اسم فارسي معناه: «القسيس الأكبر لعبدة النار».

(4) الاعراب: إجراء الفرس. يقال أعرب على فرسه. إذا أجراه. والخيل العراب، هي الخيل العربية السليمة من الهجنة. ومن حديث سطيح: «تقود خيلاً عراباً». اي عربية. راجع تفاصيل أخرى في تاج العروس (372/1).

(5) راجع عن الزردشتية وطقوس عبادة النار بين الفرس. الفصل الذي خصصه أحمد أمين لدين الفرس في ضحى الإسلام، (ص 98-112). والمراجع التي أحال إليها.

(6) هو النعمان بن المنذر بن امرىء القيس اللخمي. أبو قابوس، ممدوح النابغة الذبياني وحسان بن ثابت، من ملوك الحيرة قبل الإسلام، اشتهر بالدهاء والشجاعة، وتعزو إليه الرواية بناء «النعمانية» التي تقع على ضفاف دجلة اليمنى. ورث النعمان ملك الحيرة عن أبيه. وكانت تابعة للفرس، فاستمر في حكمها حتى نقم عليه كسرى =

قال، فأرسل الملك إلى النعمان بن المنذر، أن ابعث إلي بأعلم من في بلادك. قال فبعث إليه النعمان بن المنذر بعبد المسيح بن عمر بن حيان بن ثعلبة[7] الغساني، وقد أتى عليه من السنين نيف وثلاثمائة سنة، وعمر حتى كانت ردة العرب، بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم. فمر به خالد بن الوليد[8] حين صدر من اليمامة، وهو في بلاد الحيرة[9] وهو حي، وله معه حديث ليس هذا موضعه، وكان على دين النصرانية.

= أبرويز، فعزله ونفاه إلى خانقين حيث حبسه حتى مات في حوالي سنة 602 ميلادية. وبموته الغت الحكومة الفارسية نظام اللخميين وأصبحت الحيرة خاضعة لكسرى الذي يولي عليها حاكمًا فارسياً. راجع عن النعمان ابن المنذر؛ اليعقوبي (173/1)؛ الكامل (171/1-173)؛ العبر (265/2)؛ الأغاني (طبع ساسي (20-132)؛ صبح الأعشي (الفهرست) النويري (15-321-331)؛ مروج الذهب (30-201-208)؛ فجر الإسلام، (ص 16-18).

(7) كذا في الأصل. والأصح: ابن بقيلة. وقد سمي بهذا الاسم لأنه خرج من ثوبين أخضرين، فقال له إنسان: ما أنت إلا بقيلة!

وهو عبد المسيح بن عمرو بن قيس بن حيان العساني (من أهل الحيرة بالعراق)، زعم أنه باني قصر الحيرة. عاش في زمن الجاهلية وأدركه الإسلام (ت. حوالي سنة 12 هـ.) ولكنه لم يسلم، بل بقي على النصرانية. له شعر وأخبار، وهو ابن أخت سطيح الكاهن المذكور أسفله. راجع عن عبد المسيح الديارات (ص 154)؛ البيان والتبيين (74/2)؛ اللباب (136/1)؛ أمالي المرتضى (1-188)؛ المقتضب (ص 72)؛ الجمهرة (ص 374، هامش 3).

(8) خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي القرشي، الصحابي، أسلم قبل فتح مكة (سنة 7 هـ)، وولاه رسول الله (ص) الخيل. ولما تولى الخلافة أبو بكر، وجهه لقتال المرتدين من العرب، ثم سيّره إلى العراق في سنة 16 هـ. ففتح جانباً عظيمًا منه، كما فتح الحيرة، ثم ولي على الشام حتى عزله عمر. وقد مات بحمص (وقيل بالمدينة)، سنة 21 هـ. راجع سيرته في الإصابة (413/1)؛ وتاريخ الخميس (247/2) وفي غير هذين المصدرين من كتب السير التي صدرت حديثاً وتتناول حياته بالتفصيل.

(9) قصبة الملوك اللخميين، وكانت تقع على مسيرة ثلاثة أميال من الكوفة وعلى بحيرة نجف، عند تخوم الصحراء. ويعود تخطيط المدينة إلى عهد بختنصر في تاريخ لا تحدده الرواية. وقد بلغت الحيرة شأوا معتبراً من الحضارة تحت الملوك اللخميين. فانتشرت =

فلما قدم على كسرى الملك، قال له: أخبرني فيم بعثت به إليك. فقال عبد المسيح: ليخبرني الملك. فإن يكن عندي شيء قلته، وإلا أتيت رجلاً من بني عمي بمشارف الشام، وهي ما والى الحجاز من أرض موتة استشهد بها جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه. فيخبرني عن سؤال الملك، من غير أن أسأله فضلاً عن أن استخبره.

قال، فأخبره الملك بإيوانه ورؤيا الموبذان وكل ما جرى عليه. فقال عبد المسيح، ليس عندي في هذا شيء مما أراد الملك، ولكن أنظرنا حتى نقدم الشام وآتيك بعلم ذلك.

قال فمضى عبد المسيح متوجهاً إلى الشام حتى قدمها، وقد أشرف في طريقه على الموت بالعطش.

فلما قدم على سطيح[10] وقف بين يديه، فلم يجب سطيح جواباً، ولم يرفع إليه رأسه. فلما استبطأه عبد المسيح، أنشأ يرتجز ويقول:

= فيها صناعة الكتابة وازدهر الشعر في بلاطهم (وفي مقدمة شعراء اللخميين امرؤ القيس والنابغة الذبياني). وقد استمر الأكاسرة بعد عزلهم آخر ملوك اللخميين، على حكم الإمارة بواسطة حاكم فارسي، حتى غزا خالد بن الوليد في سنة 12 هـ. واستولى عليها بدون قتال وقبل سكانها دفع الجزية. وبعد ذلك، قلت أهمية الحيرة بازدياد ظهور الكوفة على المسرح السياسي والثقافي، قبل أن تتدهور وتضمحل. راجع معجم البلدان (331-328/2)؛ تاريخ الطبري (ط. دوخويه 82/1 وما يليها)؛ البلاذري (ط. دوخويه، ص 241)؛ الكامل (105/6 و131/18)؛ صبح الأعشى الفهرست المطبوع على انفراد، (ص 17-18)، وكذلك (ص 140/138). Rothstein, Dynastie des Lakhmid.

(10) سطيح الكاهن. هو ربيع بن ربيعة بن مسعود بن عدي بن الذئب، من الأزد، غساني عاش في الجاهلية ومات في سنة 52 قبل الهجرة. كان العرب يحتكمون إليه ويقبلون بحكمه، وهو الذي عناه ابن الرومي بقوله:

تبدى له سر العيون كهانة ‏ ‏ ‏ يوحي بما رأى كرأي سطيح

له أخبار كثيرة يمكن مراجعتها في مروج الذهب (364/3)؛ اليعقوبي (602/1)؛ الجمهرة (ص 375)؛ تاج العروس (مادة سطيح)؛ تاريخ الخميس (201/1).

أصم أم يسمع غطريف اليمن　　أم فدفان لم به شأو العنن
يا فاصل الخطة أعيت من ومن　　أتاك شيخ الحي من آل سنن
وأمه من آل ديب بن حجن　　أبيض فضفاض الرداء والبدن
يجوب في الأرض علندات شزن　　ترفعني وجن وتهوى لي وجن

حتى أتاه عاري الجابي والفطن. الخ.

حتى أتم أرجوزته ورفع إليه سطيح رأسه، فقال جاء عبد المسيح على جمل مشيح أتى إلى سطيح، وقد أشفى على الضريح. فقال بعثك ملك ساسان لارتكاس الإيوان، وخمود النيران، ورؤ يا الموبدان، وإبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً حتى انتشرت في دجلة وبلادها. فقال عبد المسيح: أي شيء يكون ذلك؟

فقال سطيح: إذا كثرت التلاوة، وبعث صاحب الهراوة، وفاضت السماوات وغاضت بحيرة كساوت، فليس الشام لسطيح بشام. فقال: ما بال الشرفات؟ فقال: يملك منهم ملوك وملكات على عدد الشرفات، وكل ما هو آت آت. وذكر الجاحظ في كتابه أن سطيحاً قضى مكانه. ثم إن عبد المسيح رجع إلى كسرى، فلما كان ببعض الطريق أنشأ يقول:

شمّر فإنك ماضي الهمم تشمير　　لا يفزعنك إدلاجً وتهجير
أن يمسي ملك بني ساسان أفرطهم　　فإن ذا الدهر أطوار دهارير
منهم أخو الصرح بهرام واخوته　　والهرمزان وسابور وسابور
فربما ربما أضحوا بمنزلة　　يخاف صولهم الأسد المهاجير
والناس أولاد علات فمن علموا　　أن قد أقل فمحفور ومهجور
والخير والشر مقرونان في قرن　　والخير متبع والشر محذور

فلما وصل كسرى خبره بما قال سطيح، قال له الملك: إلى أن تملك

منا أربعة عشر، تكون أمور عظام. فملك منهم تسعة، فتأخر ملكهم بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم.

قال عبد الله بن قتيبة في كتابه: والله أعلم بمن كان به التمام ونرجو أن هؤلاء الذين وصلوا أرض المغرب بتاهرت من أئمتنا، وقد بلغوا فيها درجة عظيمة، وولوها نيفاً ومائة وخمسين سنة، فيما ذكره بعض الرواة.

وبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾. فأشار إلى سلمان الفارسي، وكان سلمان جالساً بين يديه، فقال: ولعلهم أن يكونوا من رهط هذا.

وذكر في الكتاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن لله كنوزاً ليست من ذهب ولا من فضة، ولكن في ظهور أبناء فارس». وذكر ابن أب (؟) أن عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ مشى ذات مرة مع المغيرة بن شعبة (11) وكان المغيرة أعور، فقال له عمر رضي الله عنه: هل

---

(11) هو المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي. أبو عبد الله، أحد قادة العرب ومن ذوي الحصافة في الرأي من الولاة بحيث يسمى «مغيرة الرأي». صحابي ولد في الطائف في سنة 20 قبل الهجرة. ولما ظهر الإسلام تردد في قبوله حتى سنة 5 هجرية، فأسلم وشهد الحديبية، وأصيبت عينه في اليرموك، كما شهد القادسية ومواقع نهاوند وهمدان وغيرها. ولاه عمر بن الخطاب (ض) على البصرة ثم الكوفة، ثم عزله، ولما حدثت الفتنة بين علي ومعاوية، ابتعد المغيرة عنها وحضر مع الحكمين، وقد ولاه معاوية الكوفة بعد ذلك، ولم يزل عليها حتى مات في سنة 50 هـ. راجع سيرته في الطبري (131/6)؛ الكامل (182/3)؛ الإصابة (ترجمة 8181)؛ أسد الغابة (406/4)؛ المرزباني (ص 368)؛ الجمهرة (ص 267).

أبصرت بعينك هذه شيئاً يا مغيرة؟ فقال المغيرة: نعم، يا أمير المؤمنين. فقال له عمر: ثم عورت؟ فقال له المغيرة: ثم عورت. فقال له عمر: ليعورن الإسلام كما عورت، ثم ليعمى حتى لا يدري من له ومن عليه. فإذا مرت عليه مائة وستون سنة، رد الله عليه سمعه وبصره كوفد الملوك طيبة أرواحهم صالحة أعمالهم.

فسأله المغيرة: من أي ماء يا أمير المؤمنين، أمن ماء الحجاز، أو من ماء العراق، أو من ماء الشام؟ فولى عنه عمر ــ رضي الله عنه ــ وتركه. ثم ان الفرس وليته على رأس مائة وستين بتاهرت. وذكر بعض أصحابنا أن ولايتهم على رأس اثنتين وستين سنة.

وروي عن زيد بن أسلم[12] أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رؤيا فقصها على أصحابه، فقال: «رأيت غنمًا سوداء خالطها غنم بيضاء، فأولتها أن العجم يدخلون الإسلام، وسيشركونكم في نسائكم وأموالكم، فتعجبوا من ذلك، فقالوا: العجم: يا رسول الله؟ فقال: «اي، والذي نفسي بيده لو أن الدين متعلق بالثريا لتناولته رجال من العجم، وأسعدهم به فارس».

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من طريق آخر أنه قال: لو أن العلم معلق بالثريا لناولته الفرس.

وذكر بعض المفسرين في قوله عز وجل: ﴿ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون﴾. فقال بعضهم هم بنو حنيفة، وقال بعضهم الفرس.

---

(12) زيد بن أسلم العدوي العمري، فقيه مفسر من المدينة، كان ثقة كثير الحديث وله كتاب في التفسير. راجع عنه تذكرة الحفاظ: (394/1).

فضائل
البربر من العجم

وبلغنا أن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، دخل عليها ذات يوم رجل من البربر، وهي جالسة ومعها نفر من المهاجرين والأنصار، فقامت عائشة عن وسادتها، فطرحتها للبربري دونهم، فانسل القوم غضاباً، فاستفتا البربري في حاجته ثم خرج، فأرسلت إليهم عائشة فالتقطتهم من دورهم، فجاؤا كلهم، فقالت لهم عائشة رضي الله عنها: أراكم قمتم عني غضابا، ولم ذلك؟

قال بعض (هم): غضبنا عليك من أجل رجل جاءك من البربر كنا نزدريه ونقص قومه، فأثرته علينا وعلى نفسك.

قالت لهم عائشة رضي الله عنها: أثرته عليكم وعلى نفسي لما قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم. قالت: أتعرف فلاناً البربري؟ قالوا: نعم.

قالت عائشة كنت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم جلوساً إذ دخل علينا ذلك البربري مصفر الوجه غائر العينين، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: ما دهاك، أمرضت مرضة؟ فارقتني بالأمس ظاهر الدم صحيح اللون، وجئتني الساعة كإنما نشرت من قبر.

فقال له البربري: يا رسول الله، بتّ بهمّ شديد. قال له النبي صلى

الله عليه وسلم، ما الذي همك؟ قال: تردد بصرك عليَّ بالأمس، خفت من ذلك أنه قد نزلت في آية من الله. قال له النبي صلى الله عليه وسلم: لا يحزنك ذلك إنما تردد بصري عليك بالأمس من أجل جبريل عليه السلام، جاءني فقال لي: يا محمد، أوصيك بتقوى الله وبالبربر. قلت: يا جبريل، وأي البربر. قال: قوم هذا، وأشار إليك. قال النبي: فقلت لجبريل: وما شأنهم؟ قال قوم يحيون دين الله، بعد أن يموت ويجددونه بعد إذ يبلى. قال جبريل: يا محمد، دين الله خلق من خلقه ينشأ بالحجاز واصله بالمدينة. خلقة ضعيفة، ثم ينميه وينشئه حتى يعلو ويثمر كما تثمر الشجرة. ثم يقع. وإنما يقع رأس دين الله بالمغرب. والشيء إذا وقع لم يرفع من وسطه، ولا من أصله وإنما يرفع من عند رأسه.

وبلغنا أن عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ حين قدم عليه قوم من البربر، «لواتة»، أرسلهم إليه عمرو بن العاص، وهم محلقو الرؤوس واللحا، فقال لهم من أنتم؟ قالوا من البربر، لواتة، فقال عمر لجلسائه: هل منكم من يعرف هذا القبيل في شيء من قبائل العرب والعجم؟ قالوا: ليس لنا بقبيلهم علم. فقال العباس بن مرداس السلمي: إن عندي فيهم علمًا يا أمير المؤمنين. هؤلاء من ولد بربر بن قيس، وكان لقيس عدة من أولاد، أحدهم سالم بن قيس، وفي خلقه بعض الرعونة، يعني ضيقاً، فقاتل اخوته ذات يوم، فخرج إلى البراري، فكثر بها نسله وولده، وكانت العرب تقول تبربروا، أي كثروا. فنظر إليهم عمر رضي الله عنه، وكان أوفدهم إليه عمرو بن العاص[1] وأرسل معهم ترجماناً يترجم كلامهم إن

---

(1) عمرو بن العاص بن وائل السهمي أبو عبد الله. فاتح مصر وأحد كبار الساسة الدهاة في الدولة الإسلامية. كان من أمراء الجيش في الشام في زمن عمر الذي ولاه فلسطين ثم مصر. ولما وقعت الفتنة اصطف عمرو في صف معاوية الذي ولاه في سنة 38 هـ. ولد في سنة 50 قبل الهجرة وتوفي في سنة 43 هـ. راجع كتاب حسن إبراهيم حسن؛ تاريخ عمرو بن العاص، والمراجع التي أحال إليها.

سألهم عمر عن شيء، فقال لهم عمر: مالكم محلقو الرؤوس واللحا. فقالوا: شعر نبت على الكفر، فأحببنا أن نبدل شعراً في الإسلام.

فقال لهم عمر: هل لكم مدائن تسكنون بها؟ قالوا: لا. قال: هل لكم حصون تتحصنون بها؟ قالوا: لا. قال: فهل لكم أسواق تتبايعون فيها. قالوا: لا. فبكى عمر ــ رضي الله عنه ــ وقال له جلساؤه: وما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ قال: أبكاني حديث سمعته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، يوم حنين، حين انهزم المسلمون، ونظر إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم أبكي، فقال: ما يبكيك يا عمر؟ قلت: أبكاني يا رسول الله قلة هذه العصابة من المسلمين واجتماع أمم الكفر عليهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لأنبئنك يا عمر، فإن الله سيفتح للإسلام باباً من المغرب (ب) قوم يعز الله بهم الإسلام ويذل بهم الكفر، أهل خشية وبصائر، يموتون على ما أبصروا، ليست لهم مدائن يسكنونها ولا حصون يتحصنون بها ولا أسواق يتبايعون فيها. ولذلك بكيت الساعة حيث ذكرت حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما ذكره لي عليهم من الفضائل، فردهم عمر إلى عمرو بن العاص وأمره أن يجعلهم في مقدمة عسكره، وكانوا مع عمرو بن العاص حين قتل عثمان بن عفان.

فلما كان هذا الحديث في عصابة من أهل المغرب عن عمر، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، رجونا أن يكونوا أهل دعوتنا، وأن يستوجبوا فضل هذا الحديث.

وقد بلغنا عن رجل من ذرية أبي بكر، قال عليّ بن أبي طالب (ض): يا أهل مكة، ويا أهل المدينة، أوصيكم بالله وبالبربر، فإنهم سيأتونكم بدين الله من المغرب، بعد أن يضيعوه، هم الذين ذكر (هم)

الله في كتابه: ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يوتيه من يشاء﴾. وهم الذين لا ينظرون في حسب أحد خلاف طاعة الله.

قال البكري: فمن حين وقعت الفتنة إنما نقاتل نحن العرب على الدينار والدرهم. واما البربر، فإنما يقاتلون على دين الله ليقيموه.

قال وهو يرفع الحديث إلى ابن مسعود[2] : إن آخر حجة حجها قام خطيباً. فقال: يا أهل مكة والمدينة أوصيكم بتقوى الله وبالبربر، فإنهم سيأتونكم بدين الله من المغرب، وهم الذين استبدل الله بكم إذ يقول: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونون أمثالكم﴾.

والذي نفس ابن مسعود بيده لو أدركتهم لكنت لهم أطوع من إمائهم وأقرب لهم من دثارهم، يعني ثيابهم.

وبلغنا عن عائشة رضي الله عنها، إنها أبصرت صبياً له ذوابتان ذا جمال وهيئة، فقالت: من أي قبيل هذا من السبع. قالوا: من البربر. قالت عائشة: البربر يقرون الضيف، ويضربون بالسيف ويلجمون الملوك لجام الخيل اللجم.

---

(2) عبد الله بن مسعود بن غافل الهزلي. أبوعبد الرحمن، من أكابر الصحابة ومن السابقين إلى الإسلام كان مقرّباً من رسول الله (ص) ورفيقه في الأسفار وفي غزواته، ولي بعد وفاة النبي بيت المال في الكوفة. رويت عنه أحاديث كثيرة، وله ترجمات عديدة يمكن مراجعة بعضها في الإصابة (ت 4955)؛ حلية الأولياء (124/1)؛ تاريخ الخميس (257/2).

رجع الحديث إلى ذكر النفر الخمسة الحَمَلَة العلم:

أحدهم أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري[3] ومعافر قبيلة من العرب[4] وعبد الرحمن بن رستم الفارسي وعاصم السدراتي، واسماعيل بن درار الفدامي.

أخبار عبد الرحمن بن رستم بن بهرام بن كسرى الملك الفارسي[5].

كان أصله من العراق وكان أبوه رستم عنده في العلم أن ذريته ستلي أرض المغرب. فأقبل رستم متوجهاً من العراق ومعه ابنه عبد الرحمن

---

(3) هو عبد الأعلى بن السمح المعافري الحميري اليمني، أبو الخطاب (ستأتي ترجمة أبي زكرياء له)، زعيم ديني على المذهب الإباضي، وقائد عسكر شجاع محنك ومن أهل الرأي. ولاه حملة العلم على أنفسهم بناء على أمر أبي عبيدة للقيام بالدعوة سراً ثم الظهور بعدما تشتد شوكتهم. وعقب ظهور الدعوة ثار أبو الخطاب واستولى على طرابلس الغرب على غفلة من أهلها في سنة 141 هـ. وانفتح أمامه طريق افريقية في سنة 141 هـ. وبعدما هزم ورفجومة دانت له القيروان التي جعل عبد الرحمن بن رستم، أحد حملة العلم، عاملاً عليها. وقد قتل أبو الخطاب في معركة فاجأه فيها جيش العباسيين في «سرت» في سنة 144 هـ. وكان عدد جيشه يتراوح بين 12 و 14 ألف مقاتل. راجع سيرته في سير الشماخي (ص 123-132)؛ الكامل (316/5)؛ العبر (112/6)؛ الاستقصا(955/1-57)؛ البيان (70/1 و 82)؛ مرآة الجنان (293/1)؛ وانظر تفاصيل مبايعة أبي الخطاب وحروبه أيضاً في طبقات الدرجيني (22/2-35)؛ الاباضية في موكب التاريخ (49/1-54).

(4) راجع عن معافر بن يعفر. العبر (256/2)؛ النويري في نهاية الارب (303/2)؛ معجم البلدان (472/2)؛ عمر كحالة؛ معجم قبائل العرب (1115/3).

(5) تعتبر رواية أبي زكرياء عن الرستميين، وعن عبد الرحمن بصفة خاصة من أدق وأقدم وأوثق الروايات التي وصلت إلينا (ونحن يجب ألا يغيب عن أذهاننا أن أبا زكرياء كان يكتب تاريخاً لا يفصله عن عصره سوى ما يقرب من قرن من الزمن). ومع ذلك يمكن مقارنة هذه الرواية بالإصابة (ترجمة 5110)؛ سير الشماخي (ص 138)؛ الأزهار =

وزوجه ليتوصل إلى أرض المغرب منها. فلما كان بمكة أو قريباً منها، أدركه حمامه، فانقضت أيامه، فمات. فالتقى ابنه عبد الرحمن وامه مع الحجاج بمكة من أهل المغرب، فتزوجت أم عبد الرحمن رجلاً من أهل القيروان. فأقبل بها حتى قدموا أرض القيروان، ونشأ بها عبد الرحمن بن رستم. فلما بلغ مبلغ الرجال وقرأ وأفصح، نظر إليه رجل من أهل الدعوة، فقال له: يا فتى، إن كنت طالباً ما أراك تطلبه، فاقصد إلى أبي عبيدة، مسلم بن أبي كريمة التميمي[6]، رضي الله عنه، تجد عنده ما رجوت. فسار عبد الرحمن بن رستم إلى أبي عبيدة، فالتقى مع النفر الذي ذكرنا، فصافحهم أبو عبيدة وسألهم عن أحوالهم ومن أين أقبلوا، فأخبروه أنهم من أهل المغرب، وانهم أرادوا تعليم العلم، فأجابهم إلى ذلك، ومكثوا عنده سنين عدة. وكان الشيخ أبو عبيدة ـ رضي الله عنه ـ مستخفياً متخوفاً من بعض أمراء البصرة وأدخلهم سرباً وجعل فيه سلسلة، فصار

= الرياضية (84/2)؛ البكري، (ص 68)؛ البيان (196/1)؛ الكامل (50/3)؛ طبقات الدرجيني (الفهرست) تاريخ ابن خلدون (ط. دوسلان 154/1) ابن الصغير (ط. A. De Motylinski)، (ص 9-10). البرادي، كتاب الجواهر، Basset (R), les) sanctuaires de Djebel Nefousa, Journal Asiatique, 1899, T. II)؛ ومقاله: «بنو رستم في دائرة المعارف الإسلامية لجورج مارسي».

(6) هو مسلم بن أبي كريمة (أبو عبيدة) البصري، فقيه من كبار علماء الاباضية، أخذ أصول المذهب عن جابر بن زيد وصار مرجعاً تشد إليه الرحال، وكان أعور. ويقول صاحب حاشية الجامع الصحيح أنه روى أيضاً (رواية تابع عن تابع) عن أنس بن مالك، وأبي هريرة، وابن عباس، وأبي سعيد الخدري وعن عائشة. ويقول الشماخي أنه تعلّم العلوم وعلمها وأصبح ممن «يشار إليهم بالأصابع بين أقرانه... وقد اعترف له بقصب السبق في العلوم». ووصفه الدرجيني الذي يعتبره ضمن علماء الطبقة الثالثة (100-150 هـ) بأنه كان عالماً بالكلام وحاجج واصل بن عطاء المعتزلي وغلبه. توفي في نحو سنة 145. راجع سيرته في سير الشماخي (ص 83-88)؛ سلم العامة (ص 6)؛ حاشية الجامع الصحيح (ص 6-7)؛ لسان الميزان (32/6)؛ طبقات الدرجيني (238/2-246)؛ الاباضية في موكب التاريخ (89/1-103).

يعمل القفاف بباب السرب، فمتى رأى شخصاً حرك السلسلة فيسكتون. فإذا انصرف حركها، فيأخذون في عزمهم[7].

وكان عبد الرحمن شاباً جميلاً حدث السن، وكان أبو عبيدة يجعل بينه وبين الناس ستراً لئلاً يشغلهم بجماله، فلما بلغوا من العلوم ما قدر الله لهم، وأرادوا الانصراف إلى بلادهم، كلم العجائز أبا عبيدة وطلبن إليه أن يريهن عبد الرحمن فيدعونه، فأجابهن أبو عبيدة، فأدخلهن عليه، وكن ثلاثاً، فدعت الواحدة منهن، فقالت: بارك الله في عين الشمس. وقالت الثانية: وبارك الله فيك كما بارك في البحر. وقالت الثالثة: وبارك الله فيك، كما بارك في مطيب الطعام من الملح.

قال، فلما عزموا على المسير إلى بلادهم، كلموا أبا عبيدة واستشاروه في شأنهم، فقالوا: يا شيخنا، قد كانت لنا في المغرب قوة، ووجدنا من أنفسنا طاقة، أفنو لي على أنفسنا رجلاً منا. وما ترى؟ فقال لهم أبو عبيدة: توجهوا إلى بلادكم، فإن كان في أهل دعوتكم ما تجب به عليكم التولية في العدد والعدة من الرجال، فولوا على أنفسكم رجلاً منكم، فإن أبى، فاقتلوه فأشار إلى أبي الخطاب رضي الله عنه. فلما أراد الخروج من عنده تهيأ الشيخ للركوب ولموادعتهم وجعل رجله من الركاب، فسأله اسماعيل بن درار عن ثلاثمائة مسألة من مسائل الأحكام، قبل أن يستوي على متن الدابة، فقال له أبو عبيدة: أتريد أن تكون قاضياً يا ابن درار. فقال له اسماعيل بن درار: أرأيت ان ابتليت به يرحمك الله في ذلك الوقت أم قبل ذلك؟ ثم توجهوا إلى المغرب، فلما وصلوا عرضوا الإمامة على عبد الرحمن بن رستم، فاعتذر إليهم، وقال لهم: إن بيدي أمانة الناس

(7) قارن الشماخي (ص142)؛ والدرجيني (21/1). راجع الاباضية في موكب التاريخ (16-13/3).

وبضائعهم، وقبلوا عذره وتركوه، وأرادوا تولية أبي الخطاب، ــ رضي الله عنه ــ (الإمامة).

إمامة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح، رضي الله عنه

ذكر بعض أصحابنا أنه لما قدم أبو الخطاب مع أصحابه من أرض الشام إلى طرابلس، اهتم بأمور المسلمين من له النظر فيهم من المشايخ، فاجتمع جماعة من المسلمين بعدما اقتتل الحارث وعبدالجبار والناس في الكتمان، فكانوا يجتمعون ويذكرون عقد الإمامة، فأجالوا النظر وأطالوا الفكر فيما بينهم فيمن يولونه أمرهم، إن كانت لهم قوة على عدوهم، فكانوا يجتمعون في موضع يقال له صياد غربي المدينة، مدينة طرابلس، يظهرون على أنفسهم أنهم إنما يجتمعون في أمر أرض بين قوم أرادوا قسمتها، وأظهروا ذلك وأعلنوه. وقيل إنهم إنما يجتمعون على أمر رجل وزوجته اختصما، وإنمامرادهم الإمامة. فإذا اجتمعوا في ذلك الموضع، وفرغوا من كلامهم، توجهوا إلى عامل المدينة، فيسلمون عليه مداراة له، حتى اتفق رأيهم على عقد الإمامة، فاجتمعت كلمتهم على مبايعة أبي الخطاب، رحمه الله.

وذكر بعض أصحابنا أنهم لما اتفقوا على ذلك، جعلوا بينهم موعداً يوماً معلوماً يجتمعون فيه بالصياد، فاتفقوا على أن كل واحد منهم يأتي بمن خلفه من الرجال، ومن تبعه من الناس، بالسلاح، ويجعلون الدروق في الغرائز، ويحشونها بالتبن.

وكان بينهم وبين مشائخ المسلمين من أهل المدينة ومن لا يقدر على النهوض معهم علامة، إذا رأوها دخلوا المدينة بجماعتهم (و) أن يشهروا السلاح ويظهروها. وأخبروهم أن الإمام (هو) أبو الخطاب في

السر. فلما كانوا بالموعد اجتمعوا فيه بعامة المسلمين من شيوخهم البربر وغيرهم، من نفوسة وهوارة وجريشة، وغيرهم من أبناء القبائل.

فلما توافوا بصياد، وقد أخرجوا أبا الخطاب حين خرجوا، وقالوا: امضِ معنا على بركة الله وعونه في هذا الأمر الذي تحيرنا فيه منذ زمان. قال، فخرج معهم أبو الخطاب ولم يدر ما يريدونه، وهو غافل عن مرادهم، فلما وصلوا إلى صياد تكلم متكلمهم وقال: أليس قد اجتمع رأينا على ما قد علمتموه؟ قالوا: بلى. قال: فأتموا أمركم إذاً. قال، فقامت منهم طائفة ناحية فتكلموا فيما بينهم، ثم رجعوا، فقالوا لأبي الخطاب: ابسط يدك لنبايعك على أن تحكم بيننا بكتاب الله وسنة رسوله. فقال لهم أبو الخطاب: استغفلتموني، وليس لهذا أخرجت إليكم. فقالوا له: لا بد لك من الدخول في أمور المسلمين.

فلما رأى الحقيقة منهم والجد، قال لهم: لا أقبل أمانتكم إلا على شرط. فقالوا له: كل شرط يجوز، فنحن معطوكه ونطيعك فيه.

فقال: شرطي فيكم ألا تذكروا في عسكري مسألة الحارث وعبد الجبار، خوفاً منه عليهم أن لا يكونوا في جماعة المسلمين اختلاف وفرقة.

وقد حدث بعض أصحابنا أن مسألة الحارث وعبد الجبار[8] اتصلت إلى أرض المشرق بينهم فيها اختلاف وفرقة، وفي المغرب أشد من ذلك، حتى كتب إليهم أبو عبيدة مسلم وأبو مودود حاجب، رحمهما الله، يأمران جماعة المسلمين بالكف عن ذكرهما. فأراد أبو عبيدة أن يقطع الاختلاف من جماعة المسلمين بإماتة ذلك.

---

(8) راجع تفاصيل أخرى عن الأحداث التي تصل بدور هذين الشخصين في سير الشماخي (ص 125-126).

فقالوا له: لك ذلك علينا، وبايعوه على الإقامة بحق الله فيها في كتاب الله وسنة رسوله واتباع الأئمة المهتدين، فقبل مبايعتهم، وانصرف إلى المدينة ومعه جماعة المسلمين.

وذكر بعض أصحابنا أن ولاية أبي الخطاب، كانت على رأس سنة أربعين ومائة سنة.

ثم اجتمع رأيهم على دخول المدينة، مدينة طرابلس، وبها عامل لأبي جعفر المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس. ثم إنهم عمدوا إلى رجال مع سلاح، فحملوها في جوالق في هيئة الرفقة، وجعلوا أفواه الجوالق مربوطة في داخل من أسفل، وجعلوا مع كل جمل رجلين بالسلاح.

ولما توسطوا المدينة ولم يفطن بصنيعهم أحد، فتحوا الجوالق وخرج الرجال والسلاح من أيديهم، فقالوا: لا حكم إلا لله، لا طاعة إلا طاعة أبي الخطاب!.

وقصدوا إلى نحو العامل ليقتلوه، وأبى عليهم أبو الخطاب ذلك، وقال لهم: إنما دخلنا عليهم بالأمان.

فلما نظر أهل المدينة إليهم، وقد أشهروا السلاح، قالوا: هذه غدرة. وقال لهم المسلمون: ليس ذلك بغدر، لا بأس عليكم. فمن أراد منكم العافية فليقم في منزله. فخير أبو الخطاب العامل في الإقامة بالمدينة وينخلع من العمالة والخرج بالامان، فاختار العامل الخروج إلى أرض المشرق، فدفع إلى أبي الخطاب مفاتح بيت المال فأخذ منه، وأحسن أبو الخطاب السيرة في أحكامه وأيامه.

وكانت ولاية أبي الخطاب أربع سنين، فقد ولي على رأس أربعين ومائة سنة.

وبلغنا أن امرأة من نساء القيروان كتبت بطاقة إلى الإمام أبي الخطاب، رضي الله عنه، تشكو إليه جور ورفجومة، فقالت:

«أما بعد يا أمير المؤمنين، فإن لي بنتاً لم أحرزها إلا في حفرة حفرتها تحت سريري مخافة عليها من الورفجومية أن يفسدوها».

وكانت ورفجومة ولاة القيروان، فلما وصلت البطاقة إلى الإمام أبي الخطاب، رضي الله عنه، صادفته وهو يتوضأ، وقرأ كتابها وصار يبكي رحمة لها لما نزل بها، فنادى بالصلاة جامعة، فاجتمع إليه الناس، فصلى بهم وصعد المنبر خطيباً، فحمد الله واثنى عليه خيراً ورغب أصحابه في الجهاد، وأمر رعيته بالاستعداد للحرب، وخرج أبو الخطاب من المسجد، فلما وصل إلى بابه، سل سيفه وكسر غمده، وقال: لا حكم إلا لله! ترغيباً للمسلمين في الجهاد وغضباً لله ولدينه.

وبلغنا من طريق آخر أن ورفجومة أخرجوا من القيروان امرأة وهي تصيح وتقول: أغيثوني معاشر المسلمين من عسكره.

ولم تجد أحداً يدفع عنها. فلما بلغ أبا الخطاب ــ رضي الله عنه ــ ما حل بها واستغاثتها بمعاشر المسلمين. ولم تجد أحداً يدفع عنها. قال أبو الخطاب مجيباً لها: لبيك يا أختاه!

فعند ذلك أمر أبو الخطاب ــ رضي الله عنه ــ مناديه بالنفير:

وذكر بعض أصحابنا أن امرأة من أهل القيروان ظلمها ورفجومة. وصاحت من القيروان: يا أبا الخطاب: أغثني! فمد الله في صوتها. وسمعها أبو الخطاب ــ رضي الله عنه ــ من مدينة طرابلس. فقال مجيباً لها: لبيك يا أختاه!

فعند ذلك أمر بالنفير. فعسكر على طرف المدينة. حتى اجتمع إليه من أصحابه جموع كثيرة.

ثم إن أبا الخطاب، رضي الله عنه. خرج بمن اجتمع من أصحابه وتبعه عبد الرحمن بن رستم. رضي الله عنه. فخرجوا في سنة قحلة ذات قحط وجوع وجدب. فأمرهم الله فيها بالجراد. فإذا نزلوا نزل عليهم. وإذا ارتحلوا. ارتحل معهم.

وبلغنا أن أبا الخطاب. رضي الله عنه. لما خرج أمر مناديه. فنادى، أيها الناس! من كان له أبوان كبيران أو (أب) واحد. فليرجع. ومن كانت له عروس قريب العهد بها. فليرجع. ومن كانت له غروس صغار. فليرجع. ومن أراد منكم الرجوع. فليرجع بليل. فلما جنهم الليل. رجعت طائفة من عسكره.

فلما كان بالغداة أمر خيلاً تقطع وراءه. فوجد أثر الناس قد رجعوا. فأمر مناديه. فنادى. وأمرهم أن لا يرجعوا إلا بالليل. فلما جنهم الليل رجعت طائفة.

فلما أصبح أبو الخطاب، قطع خلفه ليعلم من رجع، فوجد أثر بعض عسكره قد رجع. فأمر مناديه أيضاً في اليوم الثالث، فنادى، فلما جنهم الليل، رجع من أراد الرجوع، وبقي من له رغبة في الجهاد، وعددهم ستة آلاف، فأمر أبو الخطاب، رضي الله عنه، (أن) يقطع خلف العسكر، ليعلم إن كان رجع أحد «أم لا فقطعوا» فلم يرجع أحد بعد ثلاث.

وقال أبو الخطاب، رضي الله عنه: أنا ضامن لمن مات في غزوتنا هذه الجنة، إلا من كانت معه إحدى ثلاث خصال:

إحداها، قاتل النفس التي حرم الله، والثانية من كان على فراش حرام، والثالثة، من كانت في يده أرض الغصب، وله منها مخرج.

أما من كان على فراش حرام، فليبرأ منه وليستشهد انها ليست بامرأته ويتوب إلى الله. وأما من ملك أرض غيره، إذا كانت في يده، فليتبرأ منها وليستشهد على تركها. وأما من قتل نفساً من غير حلها، فليفد نفسه لأولياء القتيل، فإن لم يجدهم فليدفع نفسه في سبيل الله، فقام إليه رجل فقال: قد اجتمعت في يا أمير المؤمنين، فأمره الإمام أن ينتفي من الفراش الحرام ويتبرأ من الأرض المغصوبة ويقيد لأولياء القتيل، فإن لم يجدهم، فليدفع نفسه في سبيل الله.

وبلغنا أن أبا الخطاب، رضي الله عنه، جاز على مدينة قابس، فحاصر أهلها حتى ضعفوا وأذعنوا له بالطاعة، فجعل على المدينة عاملاً.

ولما وصل أبو الخطاب، ـ رضي الله عنه ـ إلى أرض القيروان حاصرهم بأشد الحصار ما شاء الله.

ثم إن عاصمًا السدراتي مرض مرضاً شديداً، وكان من خيار العسكر، وهو أحد الخمسة الحملة للعلم، وأشد شوكة على أهل القيروان، فسمع أهل القيروان بمرضه وأنه اشتهى قثاة، فبعث أهل القيروان رجلاً بياعاً يبيع القثاء، فسموا منها قثاة وأمروه ان لا يبيعها إلا لعاصم السدراتي.

قال فمضى البياع بما معه من القثاء إلى أن وصل إلى العسكر واشترى لعاصم أصحابه القثاة المسمومة وأتوه بها فأكلها، فقطعه السم فمات وهرب البياع حين باعها لهم، فاستشهد عاصم رحمه الله، فصاح أهل المدينة: أين عاصم السدراتي القتيل بالسم. ثم قال (أحدهم): مات عاصمكم يا بربر!

فعلم أبو الخطاب أنهم خدعوه، وبلغ فيه موت عاصم[9] مبلغاً عظيماً، فقال لاصحابه: إنهم خدعونا وغدرونا، فسنخادعهم كما فعلوا. فخادعهم رحمة الله عليه، فأمر أهل العسكر أن يأخذوا أسلحتهم ويخلوا أخبيتهم، ويخرجوا تحت الليل، ويأخذوا الطريق شبه منهزمين، فأصبح عسكر أبي الخطاب خالياً، فظن أهل القيروان أنهم انهزموا لهم ليلاً. فقالوا: انهزمت البربر. فأخذوا فى طريقهم على أثرهم.

ومضى أبو الخطاب، ــ رحمة الله عليه ــ فيمن معه من إلى واد وراء فحص رقادة، وكمن فيه برجله وخيله، فأخذ أهل المدينة في طلب أبي الخطاب ــ رضي الله عنه ــ وأصحابه، فلما لحقوهم وجدوهم معسكرين، فترأى أبو الخطاب فيمن معه في وجوههم، فهزموهم، فتبعهم أبو الخطاب وأصحابه يقتلونهم حتى دخلوا المدينة معهم، فحصلت المدينة لأبي الخطاب، وذلك في سنة إحدى وأربعين ومائة من التاريخ.

فلما استولى أبو الخطاب على المدينة، استعمل عليها عبد الرحمن بن رستم.

وكان أبو الخطاب في حصاره المدينة قد أمر أصحابه ألا يفسدوا زرعاً من زرعهم.

وحدث بعض أصحابنا أن شيخاً من شيوخ القيروان بعث ابناً له يرتاد مزرعة كانت بقرب مناخ عسكر أبي الخطاب رضي الله عنه، فقال: أي بني اذهب وانظر إن كان قد بقي في مزرعتنا شيء. قال: فخرج الغلام إلى المزرعة فوجدها كما كانت، لم يفسدوا فيها شيئاً، فرجع الغلام إلى أبيه فأخبره، فتعجب الناس من عدل أبي الخطاب رضي الله عنه. ومن سيرته وطاعة أصحابه له فيما يأمرهم به من الحقوق.

---

(9) قارن عن وفاة عاصم السدراتي، سير الشماخي (ص 128-129)؛ وطبقات الدرجيني (29-28/1)؛ تسمية شيوخ نفوسة، (ص 21)؛ تعليق (73، ص 77).

وقال الشيخ لمن كان بحضرته: إنما تشبهون دينكم بدين أبي الخطاب، وأين مثل أبي الخطاب في عدله وفضله.

وبلغنا أن امرأتين خرجتا من مدينة القيروان حين هزم الله أهلها على يد أبي الخطاب، فنظرت واحدة منها إلى القتلى مزملين في ثيابهم كأنهم رقود، فسمي ذلك الموضع رقادة إلى يومنا هذا. فأمر أبو الخطاب أهل المدينة، إذ هزمهم، أن يخرجوا إلى قتلاهم ليدفنوهم، فتفقد أبو الخطاب القتلى، فوجد قتيلاً مسلوباً، فأمر أبو الخطاب منادياً ينادي في عسكره: من أخذ منكم من القتلى شيئاً فليرده. فلما أيس أبو الخطاب منه دعا أن يفضحه الله ويظهره على أعين الناس، فأمر أبو الخطاب أصحابه أن يركبوا ويجروا خيولهم بين يديه. وكان من أهل العسكر رجل من سدراته، فأجرى أهل العسكر خيولهم، فأجرى معهم.

قال فانقطع حزام سرجه، فوقع وخرجت كساة سفارية تحت سرج فرسه. وقال بعضهم جبة حرير فأخذه الإمام، فحده، وقال إنما نغزو بمن يغزى.

وبلغنا أن أبا الخطاب رضي الله عنه، حين هزمهم، أحسن فيهم السيرة، فأمر أصحابه ألا يتبعوا مدبراً ولا يجهزوا على جريح، فقال رجل من لواتة، من عسكر أبي الخطاب: نأكل من أموالهم كفعلهم بغنائمنا. فقال أبو الخطاب: إن فعلنا كما فعلوا، فحقيق على الله أن يرفضنا ويدخلنا معهم جهنم، فنكون كما قال الله تعالى: ﴿كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا ادّاركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربّنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار﴾[10].

---

(10) قارن عن هذه الأحداث، العبر (190/4)؛ البيان (61/1-71)؛ الكامل (311/5-317)؛ اليعقوبي (385/2-386).

ثم إن أبا الخطاب توجه إلى مدينة طرابلس وقد استعمل على القيروان عبد الرحمن بن رستم، ـ رضي الله عنه ـ وولاه على ما والاها من المدن، واستعمل عبد الرحمن بن رستم على كتامة رجلاً منهم يقال له عبد الله بن عقيبة.

ثم أن الرجل المحدود من سرقة الثوب توجه مغضباً بما فعل معه أبو الخطاب إلى أرض المشرق، قاصداً إلى بغداد يريد أبا جعفر المنصور(11) فلما وصل إلى بغداد، وقف على بابها سنة لا يؤذن له (خلالها) بالدخول ولا بالانصراف.

فلما كان عند رأس الحول، أذن له أبو جعفر المنصور، ودخل عليه وخلا معه، فسأله عن حاجته، فقال له، حاجتي أن تنفذ معي عسكراً إلى ناحية المغرب، فأمر أبو جعفر بالاستعداد للمسير إلى أرض المغرب، فأنفذ جيشاً إلى ناحية المغرب، وجعل عليه محمد بن الأشعث الخزاعي.

---

(11) عبد الله بن محمد بن علي بن العباس. ثاني (أبو العباس) الخلفاء العباسيين ولد في الحميمة في سنة 95 هـ. وهو والد الخلفاء العباسيين جميعاً. عرف أبو جعفر برعايته للعلوم والفلسفة. وكان هو نفسه عارفاً بالفقه والأدب. ومن آثاره بناء مدينة بغداد التي أمر بتخطيطها في سنة 145 هـ. وجعلها عاصمة الخلافة عوضاً عن الهاشمية التي بناها السفاح، وقد مات أبو جعفر في أراضي مكة، سنة 158 هـ. راجع سيرته في البدء والتاريخ (90/6)؛ تاريخ الخميس (324/2)؛ اليعقوبي (100/3)؛ مروج الذهب (194-180/2)؛ الكامل (172/5 و 6/6)؛ الطبري (322-292/9).

سير ابن الأشعث[1]
إلى إفريقية

وذكر بعض أصحابنا أن عدة العسكر خمسون ألفاً، وقال بعضهم، بل سبعون ألفاً، وجعل على طائفة من العسكر رجلاً دون ابن الأشعث وأمره أن يطيع ابن الأشعث. فتوجه ابن الأشعث من المشرق قاصداً إلى أبي الخطاب.

فلما فصل عنه عسكره من مصر، أرسل عيونه إلى عسكر أبي الخطاب، وبعث أبو الخطاب عيونة، فصارت العيون تختلف إلى الفريقين بكل ما حدث فيهما. فقد (عاد) عيون ابن الأشعث من عسكر أبي الخطاب، فسألهم عن أخبار أبي الخطاب، وقالوا: نجمل أم نفسر؟ فقال هم: بل اجملوا. فقالوا: رأينا رهباناً بالليل أسراباً بالنهار، يتمنون لقاءك، كما يتمنى المريض لقاء الطبيب. لو زنى صاحبهم لرجموه،

---

(1) محمد بن الأشعث بن عقبة الخزاعي. كان أحد كبار القواد في خلافة أبي جعفر. وقد وجهه الخليفة إلى المغرب عقب هزيمة جيش أبي الأحوص العجلي في بداية ثورة أبي الخطاب. وقد دخل ابن الأشعث القيروان في سنة 146، واستقر له الأمر في افريقية حتى ثار عليه عيسى بن عجلان على رأس جماعة من قواد الجيش وأخرجوه في سنة 148 هـ. وقد مات في غزو بلاد الروم سنة 148 هـ. راجع سيرته في الولاة والقضاة، (ص 108)؛ دول الإسلام للذهبي (78/1)؛ الجمهرة (ص 241)؛ النجوم الزاهرة (346/1)؛ الكامل (317/5 و318).

ولو سرق لقطعوه. وخيلهم من نتاجهم، ليست لهم بيت مال يرزقون منه، وإنما معاشهم من كسب أيديهم.

فلما وصفوا لابن الأشعث من أخبار أبي الخطاب وأصحابه، ـ رحمة الله عليهم ـ ما وصفوا من ذلك، استشار العامل المأمور له بالطاعة بالرجوع، فأبى له ذلك. ولما رأى ابن الأشعث ذلك تخوف من افتراق الكلمة، عمد إلى الرجال من عسكره، فأعطاهم هيئة المسافرين، وأعطاهم كتاباً يأتون به على لسان أبي جعفر المنصور، فأمرهم ابن الأشعث أن يتنحوا عن العسكر، فإذا كان أوان الضحى، أقبلوا وكأنهم جاءوا من المشرق من عند أبي جعفر، من بغداد.

فلما كان الوقت الذي أمرهم فيه بالاقبال إلى العسكر، أقبلوا، فابتدرهم الناس من كل نواحي العسكر، وأتوا بهم محمد بن الأشعث الخزاعي وأعطوا له كتاباً فقرأه ابن الأشعث وأمر الناس بالرجوع، وأظهر لهم أن أبا جعفر يأمره بذلك، ويقول انه قد ظهر بأرضنا ما نحن أحوج إليه (العسكر) مما أنتم فيه.

فرجع ابن الأشعث وكره صاحبه الرجوع. فلما رآه ابن الأشعث كذلك أرسل إليه، فأمر به فقتل، فخيل إلى الناس أن أبا جعفر أمر بذلك، فضم إلى نفسه العسكرين.

ثم ان ابن الأشعث كر راجعاً إلى المشرق وتباطأ في مسيره، وقرب المراحل والعيون تختلف بالأخبار (ل) كلا الفريقين. فإذا ارتحل ابن الأشعث من أول النهار (ارتحل) من أول النهار. فإذا انتصف النهار نزل. فإذا كان بالغداة ارتحل، والعيون التي لأبي الخطاب، كلما رأوا ابن الأشعث، رجعت طائفة منهم مرحلة. وابن الأشعث، كلما ارتحل مرحلة، أمر خيلاً تقطع الأثر من خلفه، إن كان بقي في عسكره من عيون أبي الخطاب شيء أم لا. وعيون ابن الأشعث في عسكر أبي الخطاب مقيمة.

فلما وصلت عيون أبي الخطاب إليه من عسكر ابن الأشعث تخبره برجوعه، وقد اجتمع على ابن الخطاب قريب من سبعين ألفاً، ابتدره الناس بالرجوع إلى منازلهم ومواطنهم، وذلك في زمان الحصاد.

فقال لهم أبو الخطاب، يا قوم، إن العرب أصحاب مكر وخداع، فلا تفترقوا عن ملككم، حتى تستيقنوا برجوع القوم، فغلبته العامة، فأذن لهم أبو الخطاب، رحمه الله، فسار كل إلى منزله ووطنه، فتفرقوا عن أبي الخطاب، وكل ذلك (على مرأى من) عيون ابن الأشعث مع أبي الخطاب، فلما تفرقت جنوده وجموعه، أسرعت العيون السير إلى صاحبهم يخبرونه بافتراق العسكر عن أبي الخطاب، فكر ابن الأشعث راجعاً يطوي المراحل طياً، فلم يشعر بهم أبو الخطاب حتى غشيت عساكره حيز طرابلس، بعد رجوع أبي الخطاب إلى مدينة.

فقال أبو الخطاب، إن العدو قد غشي حريمي ولا يسعني أن أقعد ولا أدافع عن رعيتي، فهذا ما أقول لكم: ان العرب أصحاب مكر وغدر وخداع ونكر.

قال ففرق أبو الخطاب رسله في البلدان التي وليها يستنفرهم ويستمدهم، وأرسل إلى عبد الرحمن بن رستم يستنفره ويستمده ويستحشده.

فأمر أبو الخطاب أصحابه بالخروج، وأشار عليه بعضهم بالإقامة حتى يأتيه إمداده من عماله ورعيته، فأبى عليهم وقال لا يسعني المقام بعد دخولهم حريمي ورعيتي إلاّ أن أرد ظلمهم، أو ألحق بالله.

قال فخرج أبو الخطاب فيمن حضر من أصحابه ومن كان بقرب المدينة من نفوسة وهوارة وجريشة وسائر البربر، يريد محمد بن الأشعث الخزاعي، فلقيه بتاورغا، وكان بينها وبين المدينة مسيرة ثمانية أيام، فيما قيل، والله أعلم.

مقتل أبي الخطاب وأصحابه
رضي الله عنهم

حدث غير واحد من أصحابنا أن أبا الخطاب لما سمع بإقبال ابن الأشعث إليه، خرج، فيمن خرج معه من البربر، فأغذ السير إلى ابن الأشعث، فوجده أبو الخطاب، وقد سبقه إلى الماء ونزل عليه.

فقال ابن الأشعث لأصحابه، إن نزل أبو الخطاب ومن معه فاستراحوا وسقوا كرعهم، واستقوا، فإنكم لا تقدرون لهم على شيء، وإلّا، فأنتم أقدر عليهم منهم عليكم، وقد بدأت (المعركة بين) الفريقين بموضع يقال له تورغا بقرب مدينة طرابلس على مسيرة أربعة أيام، فيما قيل، والله أعلم.

فلما وصلهم أبو الخطاب، تاقت نفوسهم إلى لقائهم والجهاد في سبيل الله، والناس على بصائرهم، ولاقوهم، وأبو الخطاب في قلة وابن الأشعث وأصحابه في كثرة، فأسرع القتل في أصحاب أبي الخطاب، وكان بينهم قتال شديد، فصار الرجال في الصفين[1] كالحيطان.

ولم يبرح أبو الخطاب، رحمه الله، بقلة من معه من المسلمين، حتى استشهدوا. و(قد) استشهد معه أربعة عشر ألفاً فيما ذكر بعض الرواة.

---

(1) في الأصل كلمة غير مفهومة شكلها: تنهد.

وذكر آخرون اثني عشر ألفاً، ولم يفلت من عسكره إلاّ اليسير، فتسامعت رعيته بمقتله، فهربوا إلى الجبال ولجأوا إلى الحصون المنيعة والقلاع العالية.

وبلغنا أن عبد الرحمن بن رستم، لما وصلت رسل الإمام أبي الخطاب إليه يستنفره، أسرع السير، فأدركه (خبر) مقتل أبي الخطاب ومن معه من المسلمين، بمدينة قابس، فافترقت عساكره، ومر مستخفياً حتى دخل القيروان.

فلما سمع عبد الرحمن بن حبيب بمصاب أبي الخطاب ومن معه من المسلمين، بافتراق عساكره، ثار في مدينة القيروان، وطلب عبد الرحمن بن رستم، فلم يصبه، ولم يقدر عليه، فما زال يبحث عن أخباره ويتكشف عن آثاره حتى ظفر به، فابتدر رجل من أهل المدينة من أصحاب عبد الرحمن بن رستم إلى عبد الرحمن بن أبي حبيب، فشفع فيه، فقال أيها الأمير، لي إليك حاجة.

فقال له ابن حبيب، حوائجك كلها مقضية، إلاّ عبد الرحمن ابن رستم. فقال له الرجل القروي، إن لم أسألك في عبد الرحمن ابن رستم ففي من أسألك؟

قال، فتركه له ابن حبيب.

وبلغنا أن عبد الرحمن بن رستم، رضي الله عنه، قال في عبد الرحمن بن حبيب، قبل ذلك، وقد أرادوا استعماله في بعض أمور المسلمين، قال: يا معشر المسلمين، لا تولوا عبد الرحمن بن حبيب أمور المسلمين، فإنه إبليس إلاّ أن عليه بشرة بني آدم، فحقدها عليه ابن حبيب.

فلما افترقت جنود أبي الخطاب وجنود ابن رستم[2]، جعل عليه ابن حبيب الطلب، حتى شفع فيه القروي.

---

(2) في الأصل كلمة زائدة: ولذلك.

خروج عبد الرحمن بن رستم
من القيروان

وبلغنا أن عبد الرحمن بن رستم خرج من القيروان، هو وابنه، عبد الوهاب وعبد لهما، خائفين مستخفيين، فتوجهوا إلى أرض المغرب، ولم يكن معهم إلاّ فرس واحد، فمات لهم ببعض الطريق ودفنوه، مخافة أن يقتص أثرهم فيطمع فيهم من يتبعهم ويجتهد في طلبهم، إن علم بموت فرسهم، فسمي ذلك الموضع الفرس.

وقد ضعفت قوة الشيخ عبد الرحمن، فصار يحمله عبده تارة وابنه تارة (أخرى). فإذا حمله العبد، قال له عبد الوهاب إن أدركنا العدو، فلا تضعن أبي إذا لم يكونوا إلاّ دون خمسمائة أو نحوها. فإذا أعيا العبد حمله عبد الوهاب، فقال له العبد مثل ذلك.

فلما وصلوا إلى حوالي سوف أجج، وكان جبلاً منيعاً، تيممه عبد الرحمن وقصده والتجأ إليه.

وحدث أبو الربيع، سليمان بن يخلف عمن حدثه أن عبد الرحمن بن رستم لحقه بسوف أجج ستون شيخاً من مشائخ الاباضية من طرابلس. وتسامع ابن الأشعث بخبر عبد الرحمن واجتماع الناس عليه، (فـ) أقبل مجداً في طلبه، فأخبر أنه في جبل منيع يقال له سوف

أجج، فقصده حتى وصله، وحاصر عبد الرحمن بن رستم وأحدق على عسكره في حصاره إياه، مخافة أن يفاجئهم عبد الرحمن ومن معه من المسلمين ويطرق عليهم بليل. فأطال المقام تحته، فوخم عسكر ابن الأشعث ووقع فيه الجدري، فمات منهم بشر كثير وجمع ابن الأشعث أصحابه وقال لهم إن هؤلاء القوم في جبل منيع يقال له سوف أجج لا يدخله إلّا دارع أو مدجج، ماذا ترون؟

فأشار عليه بعضهم بالإقامة تحتهم، وأشار عليه آخرون بالارتحال عنهم، فأخذ برأي الذين أشاروا عليه بالارتحال، فارتحل إلى مدينة القيروان، وقد أيس من (إدراك) عبد الرحمن وأصحابه، ودخلها وتحصن فيها.

ولاية أبي حاتم[1]
رضي الله عنه وأرضاه

وحدث غير واحد من أصحابنا أن أباحاتم يعقوب ابن لبيب الملزوزي[2] ولي مدينة طرابلس في رجب سنة خمس وأربعين ومائة، ومكث فيها أربع سنين، وكانت ولايته، ولاية الدفاع، وطلب الحق، وكان يرسل بما جمع من الصدقات للإمام عبد الرحمن بن رستم، قبل أن يتولى عبد الرحمن ولاية الظهور.

وسبب ولاية أبي حاتم أن جماعة من المسلمين من بقية أصحاب أبي الخطاب لما أنسوا من أنفسهم من حيز طرابلس قوة بعد أبي الخطاب. وكان لهم عدة، أظهروا عن أنفسهم أنهم يريدون الاجتماع على أمر امرأة مسلمة، وكان زوجها رجل سوء ساءت سيرته إليها، فأظهروا الاجتماع

---

(1) يعقوب بن حبيب الكندي بالولاء، أبوحاتم الاباضي، ثار على رأس جمع كبير من البربر في سنة 151 هـ. وهزم جيوش عمر بن حفص، أمير افريقية، عند طرابلس، وحاصر القيروان، فقاتل عمر حتى قتل، وظل يغزو ويقتل في البلاد متخذاً جبل نفوسة قاعدة، حتى سيّـر إليه الخليفة يزيد بن حاتم على رأس جيش يبلغ عدد رجاله ستين ألف مقاتل. مات أبوحاتم في سنة 155 هـ. ورواية أبي زكرياء تضيف كثيراً من التفاصيل إلى المعلومات المعروفة عن هذه الأحداث، قارن المنهمل العذب (55/1 وما يليها).

(2) في الأصل: لبيد الملزوزي.

لشأنها وهم يريدون الخروج على جند طرابلس وعامل أبي جعفر، كما فعل أصحاب أبي الخطاب أول مرة حتى ولوه، فسمع باجتماعهم عامل المدينة، مدينة طرابلس، فأخرج إليهم خمسمائة فارس، وجعل عليها عاملاً.

فلما وصلتهم تلك الخيل، قال لهم عاملها، أجيبوا الطاعة لأمير المؤمنين. فقالوا أجبنا الطاعة لأمير المؤمنين، يعنون عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ويريد العامل أبا جعفر.

قال، فرجعت الخيل إلى عامل الجند بمدينة طرابلس، فأخبروه الخبر، أن القوم قد أجابوا الطاعة لأمير المؤمنين فلم يقنعه ذلك منهم.

ثم ان جميع من ينظر إليه من خيار المسلمين اجتمعوا ليلتهم تلك، فاتفقوا على عقد الولاية لأبي حاتم، ولاية الدفاع، فعقدوها له من ليلتهم.

فلما أصبحوا، خرج إليهم عامل الجند بسيفه وبخيل عظيمة، فلما أتاهم قال لهم، أجيبوا الطاعة لأمير المؤمنين. قالوا، أجبنا: الطاعة لأمير المؤمنين. قال لهم، أجيبوا الطاعة لأمير المؤمنين أبي جعفر. فقالوا له، عليك لعنة الله وعلى أبي كافر معك، يعنون أبا جعفر، وكان أبو جعفر يلقب بأبي الدوانيق. ثم ان عامل الجند ناصبهم القتال وناجزهم إياه، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فهزمهم أبو حاتم ومن معه من المسلمين، وأكثرهم من البربر، وهم الذين كانوا مع أبي الخطاب، (وساروا) حتى دخلوا مدينة طرابلس، وقتلوا منهم بشراً كثيراً.

وبلغنا أن أبا حاتم لما هزم الله على يده العدو، كان معه من عوام البربر من لم يعود النظر في أمور الدين، غير أنهم سلموا لأمر المسلمين وأحكامهم، وعمدوا إلى اسلاب المقتولين، فأخذوها وانتزعوا ثيابهم، فغضب أبو حاتم في ذات الله بفعلهم ذلك، فقال لهم: ليس من سيرة

المسلمين، إذا قتلوا من بغى عليهم من أهل التوحيد، وكفى الله مؤنتهم، أن يطلبوا من انهزم أو يجهزوا[3] على جريحهم، ولا أن ينتزعوا ثيابهم. ولكن يقال لهم، إذا انهزموا، وكفى الله المسلمين مؤنتهم، ارجعوا إلى قتلاكم وادفنوهم وخذوا ثيابهم، والآن، إن لم تردوا ما أخذتم من أمتعتهم، فقد اعتزلت أموركم وتركت ولايتكم وبرئت منها إليكم.

فلما سمعوا ذلك منه، أطاعوه وردوا أسلاب المقتولين.

وقد دخل يوماً أبو حاتم، رحمه الله، مدينة طرابلس، مع هزيمتهم، فأقام ما شاء الله، ثم نادى بالخروج إلى افريقية.

وبلغنا أنه خرج إليه جيش من افريقية، فتلقاهم أبو حاتم ببعض الطريق، فقاتلهم، فهزمهم الله، فأحسن فيهم السيرة، وأمر ألا يتبع مدبرهم، ولا يجهز[4] على جريحهم، ولا تؤخذ أسلاب المقتولين منهم. وقد تقدم إلى الناس في ذلك ونهاهم عليه. فلما قدم مدينة القيروان، حاصر أهلها سنة، وطال على أهلها الحصار، فألقوا إليه بأيديهم، فأذعنوا له بالطاعة، إلاّ ما كان من ابن الأشعث[5] فإنه انحاز وانحجز في دار الإمارة في بقية أصحابه الذين قدم بهم من أرض المشرق، فحاصره أبو حاتم سنة أخرى بعد دخوله المدينة، فأجلى أبو حاتم من بها من بقية جند ابن الأشعث، فأعطى لكل خمسة منهم قربة وخشبة يحملون عليها

---

(3) في الأصل: ولا يجيروا.

(4) في الأصل: ولا يجاز.

(5) الصواب ما ذكرناه في الهامش السابق من أن الذي حاصره أبو حاتم هو عمر بن حفص الذي قتله ثوار أبي حاتم في سنة 154 هـ. وأما ابن الأشعث، فقد مات، كما سبق أن أوردناه في سنة 148 هـ. ولمن يريد المزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث، مراجعة الكامل (5/598-600)؛ البيان (1/76)؛ العبر (4/192)؛ الاستقصا (1/58)؛ سير الشماخي (ص 2-13)؛ تاريخ الفتح العربي في ليبيا (ص 186-188).

قربتهم، وأعطاهم خنجراً يصلحون به نعالهم، وأعطى لكل واحد من الخمسة رغيفاً من خبز لزادهم، فتفرق أولئك الأسارى وانصرفوا إلى المشرق.

وذكر بعض أصحابنا أن السدراتي المحدود من السرقة الذي جاء بالعسكر من أرض المشرق من عند أبي جعفر، ندم على ما فعل حين ظفر بإخوانه وأهل مذهبه عدوهم، فأبادهم بأيدي أعاديهم، (فـ) عمد إلى بقية الأسارى، فخرج معهم يريد أرض المشرق، فأظهر لهم أنه يريد أن يردهم إلى منازلهم ويوصلهم إلى مواطنيهم، فأعمى بهم وأخذ بهم طريقاً لم يكن به ماء، فاستهلكهم عن آخرهم، وهم في كثرة. والله أعلم أي ذلك كان.

ذكر
وقعة مغمداس[1]

وبلغنا أن أبا حاتم سمع بطوالع أقبلت من المشرق فخرج من مدينة طرابلس، فتلقاهم بموضع يقال له مغمداس، وهو على مسيرة ثمانية أيام من مدينة طرابلس، فلما وصلهم أبو حاتم لاقوه[2]، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فهزم الله له العدو، ومنحهم أكتافهم، فقتل منهم ستة عشر ألفاً.

وبلغنا أن رجلاً من أهل الحضر نظر إلى رجل من أهل الدعوة فقال

---

(1) ذكر البكري مغمداس وقال انه يبعد بمرحلة عن قصر حسان وبمرحلة عن سرت (ص 7). وهذا المكان، بدون شك، هو الذي يذكره الادريسي باسم قصر مغداش (ص 134)، ويقول انه يبعد عن سرت بمجرى ونصف. وهذا التحريف لا بد وأن يكون ناجماً عن سقوط الميم. لأن الكلمة وردت بحرف الشين المعجمة في فتوح مصر لابن عبد الحكم، (ص 149)، ولربما كان هذا هو المكان الذي أورده ياقوت في معجم البلدان (158/5) باسم «معمراش» واكتفى بالقول بأنه «موضع بالمغرب» (وهو نفس التعريف الذي أورده صاحب مراصد الاطلاع). ومغمداس هو أيضاً رسم ابن خلدون والشماخي. والجدير بالذكر أن المستشرق الرحالة بارث (Barth)، حاول التعرف عن مغمداس في مرسى الزعفران التي تقع على مسيرة يوم من سرت في شرق طرابلس.
راجع:
Vandrungen, T. I. (p. 375)، وهذا التعرف قد أكده المستشرق ليويسكي (Lewiski) البولندي في دراسته القيمة عن الاباضية المعنونة Etudes abadites (1/55).

(2) في الأصل: صافوه.

له الحضري، ما تفسير تاورغا، يذكره مقتل أبي الخطاب، رضي الله عنه، ويعيره بذلك، وكان صاحبنا فطناً حاذقاً، فأجابه، فقال: تفسيرها: مغمداس، فيه أربعة أكداس، في كل كدس أربعة آلاف رأيتها، ثم ان أبا حاتم لما قتلهم رجع إلى مدينة طرابلس وحسنت حالته بها.

مقتل أبي حاتم وأصحابه
رضي الله عنهم

وبلغنا أن أبا حاتم لما تمكن في مدينة طرابلس، دست الكتب بقية أهل المشرق من طوالعهم والمخالفين من أهل مدينة القيروان إلى أبي جعفر ببغداد يشكون أبا حاتم، وأنفذ إلى أبي حاتم جيشاً كبيراً واستعمل عليه يزيد بن حاتم الأزدي.

قال، فلما انفصل يزيد بن حاتم من مصر بعسكره، وسمع أبو حاتم بخبره، جمع أصحابه ومن ولي عليه من القبائل من نفوسة وهوارة وجريشة وأخلاط البربر، فحضَّهُمْ على الجهاد ورغبهم في الاستشهاد. ثم ان يزيد بن حاتم، لما قرب من حزي طرابلس، خرج إليه أبو حاتم ومن تبعه من المسلمين إلى موضع يقال له جنى، فمدت قبيلة من البربر من هوارة يقال لها مليلة يزيد بن حاتم، فسأل أبو حاتم عمن أعان عليه من البربر، ومن كان مع يزيد، فقالوا له ليس معه خلا مليلة. فقال أبو حاتم، اللهم ذل مليلة، فبلغت فيهم دعوة أبي حاتم، فاستجاب الله فيهم. وكذلك كانوا من (بين) سائر البربر.

وبلغنا أن الموضع الذي كانت فيه معركتهم يتضىء من كل ليلة خميس ويبصر ضياؤه من مكان بعيد، أو قد سطع في الهواء وامتد صاعداً.

وقد ذكر بعض أصحابنا ممن في عصرنا هذا أنه رآه وهو نور ساطع وضياء عظيم.

وحدث يعقوب بن يوسف الياجراني الملقب بأبي منصور أنه مر به صاحب له وقد سكنا بجبال ذلك الموضع في أحياء من البربر، فجاز به يعقوب وصاحبه بليل مظلم وقصدا ذلك الموضع. فلما وصلاه، وجدا مكان معركتهم في مطمئن من الأرض، فشقاها، فاستبان أثر الهوام الصغار بالليل البهيم لما فيه من الضياء الساطع.

فلما خرجا منه دخلا في ظلمة عظيمة، التفتا وراءهما، فإذا الضياء والنور ساطع في الهواء والظلمة تحفه من جوانبه، فصارا يدعوان الله تعالى حتى توسطا مكان المعركة.

وكان يعقوب بن يوسف رجلاً شجاعاً شديد المراس[1] قوي الطبيعة لا يهتز لشيء من خور.

---

(1) في الأصل: المرة.

إمامـــة
عبد الرحمن بن رستم (ض)

وحدث غير واحد من أصحابنا أن عبد الرحمن بن رستم، رضي الله عنه، ولي بتاهرت سنة ستين ومائة، وذكر بعض أصحابنا أنه إنما ولي على رأس اثنتين وستين (ومائة) سنة. والله أعلم أي التاريخين أنفذ.

وسبب ولايته أن جماعة المسلمين اتفقوا أن ينتخبوا موضعاً يبنون فيه مدينة تكون حرزاً وحصناً للإسلام، فأرسلوا الروافد في الأرض، فرجعوا فدلوهم على تاهرت، فاتفق جمهور المسلمين مع أهل تاهرت القديمة على أشياء معلومة أن يأخذوها من غلتها.

وقد كانت قبل ذلك غياضاً عامرة بالوحوش والسباع والهوام. فلما اتفقوا على عمارتها، أمروا منادياً ينادي، إلى من بها من الوحوش والسباع: ان اخرجوا، فإنا أردنا عمارة هذه الأرض، وأجلوا لها ثلاثة أيام[1].

وبلغنا أنهم رأوا بها وحشاً تحمل أولادها في أفواهها، خارجة منها، فكان ذلك مما رغبهم فيها وزادهم بصيرة في عمارتها وانشائها.

ثم انهم أطلقوا فيها النيران، وأحرقت النيران ما عليها من أشجار.

---

(1) هذه القصة نفسها يرويها عدد من المؤرخين. وفي مقدمتهم ابن عبد الحكم، لدى ذكرهم لبناء مدينة القيروان.

وقد عمدوا إلى أصول تلك الأشجار ودوحها فغسلوها فصاروا يدفنون الحيس تحت أصول تلك الأشجار[2]. فلما جنهم الليل طرقت الخنازير تلك الأشجار، فصاروا يحفرونها حتى أتت على آخرها، حيث شمت ريح ذلك الحيس. فلما أصبحوا، وجدوها كلها مقتلعة على وجه الأرض ثم انهم عمدوا إلى مكان فأصلحوه لصلاتهم، فلما أرادوا أن يبنوها انتخبوا أربعة أمكنة واقترعوا عليها أيها يجعلونه للمسجد الجامع، فوقعت قرعتهم على المكان الأول الذي أصلحوه للصلاة، فبنوا المسجد الجامع، فأخذوا في إنشائها وعمارتها، فجعلوها دياراً وقصوراً[3].

ثم ان جماعة من المسلمين من أهل النظر منهم، وجدوا في أنفسهم قوة وأنسوا طاقة، فأرادوا التولية، فنظروا في عامة القبائل، فوجدوا في كل قبيلة رأساً أو رأسين، كل يصلحون للإمارة، فاشتوروا فيما بينهم. فقال بعضهم ان عبد الرحمن ابن رستم الفارسي، رضي الله عنه، ممن لا تجهلون فضله، وهو أحد الخمسة الحاملين للعلم، وعامل الإمام أبي الخطاب، رضي الله عنه.

وقد عرض عليه المسلمون الإمامة قبل تولية أبي الخطاب، فأعرض عنها ودفعها عن نفسه، ولم يردها، ولا سيما وأنه ليست له قبيلة تمنعه إذا تغير وتبدل.

---

(2) وقع اضطراب في هذه الجملة في الأصل فجاءت كما يلي: «ما عليها من اشجار وأصول تلك الأشجار ودوحها وعمدوا إلى حيس فغسلوه فلثوه فصاروا يدفنون تحت تلك الأشجار». والحيس: معجون من تمر وسويق.

(3) راجع عن بناء تاهرت الرستمية البيان (196/1)؛ البكري (ص 66-69)؛ اليعقوبي (ط. دوخويه، ص 14)، تاريخ ابن الصغير (الفهرست)؛ الأزهار الرياضية (6/2-45)؛ معجم البلدان (7/2-9)؛ ابن حوقل (ص 86 و93)؛ البكري (ص 66-68)؛ الادريسي (ص 87-88)؛ الاستبصار (ص 66)؛ القزويني (ص 169)؛ الاباضية في موكب التاريخ (الفهرست). وكذلك مقالة جورج مارسي، مادة «تاهرت» في دائرة المعارف الإسلامية.

وقالوا إذا رأيتم أن تولوه أمور المسلمين، فافعلوا، فاتفق رأيهم جميعاً على توليته ومبايعته، فبايعوه على الإمامة بكتاب الله وسنة رسوله، صلى الله عليه وسلم، وآثار الخلفاء الراشدين المهتدين، فقيل عبد الرحمن أمانتهم[4] وأحسن السيرة في إمامته[5] ولم ينقم عليه أحد في حكومة ولا في خصومة، ولم يكن على يديه افتراق الاباضية يومئذ. كلها مجتمعة مؤتلفة[6] لم يثر منها ثائر.

وبلغنا أن الوالي على أهل عمان في إمامة عبد الرحمن، رجل يقال له الوارث، وأبوه عبيدة، رحمه الله، حي. وفي إمامة عبد الرحمن توفي.

ثم ان عبد الرحمن اتصلت أخباره إلى أهل البصرة من أهل دعوة المسلمين، فبعثوا إليه بثلاثة أحمال مالاً.

فلما وصلت الرسل إلى تاهرت، صاروا يسألون عن دار الإمارة وقد كانوا خلفوا أحمالهم خارجاً، فلما نعتت لهم الدار، قصدوا نحوها، فإذا الإمام، رضي الله عنه، فوق البيت يعمل السقوف والعبد تحته يناوله الطين، فسألوا العبد أن يأذن لهم، وقد أيقن العبد أن الإمام سمع كلامهم، فقال له: أخرهم قليلاً، فنزل عن الحائط وغسل الطين عن جسده، فأذن لهم فسلموا عليه، فرد عليهم، فوضع لهم شيئاً من خبز مفتت، وعصر عليه عسكة.

---

(4) جاء في تاريخ ابن الصغير في معرض الحديث عن تولية عبد الرحمن (ص9): «ثم نهضوا إليه بأجمعهم وقالوا يا عبد الرحمن: رضيك الإمام (أبو الخطاب) في ابتدائنا ونحن الآن نرضى بك ونقدمك على أنفسنا. فقد علمت أنه لا يصلح أمرنا إلاّ إمام نلجأ إليه في أمورنا ونحكم عنده فيما ينوب من أسبابنا. فقال لهم: إن اعطيتموني عهد الله وميثاقه على الطاعة فيما وافق الحق وطابقه، قبلت ذلك منكم، فأعطوه عهد الله وميثاقه على ذلك». قارن العبر (121/6).

(5) في الأصل: في أمانته.

(6) في الأصل: مؤلفة.

فلما أكلوه استأذنوه أن يتناجوا عنه، فأذن لهم، فتناجوا عنه فيما بينهم، وأجمع رأيهم على أنهم راضون عنه، فاتفقوا أن يدفعوا له المال.

فلما وصلت الجمال إلى عبد الرحمن، شاور أصحابه فيها، فأشاروا عليه أن يأخذها فيبثها في فقراء المسلمين و(في شراء) السلاح والعدة[7] ففعل، رحمه الله ذلك، بمحضر تلك الرسل، فلما رجعت الرسل إلى المشرق، أخبروا أهل دعوتهم بعدل عبد الرحمن وفضله وورعه (فـ) بعثوا له بأموال أكثر من الأول[8].

فلما وصلت إلى عبد الرحمن، شاور أصحابه، فقالوا له: رأيك أمير المؤمنين، فلما ردوا الرأي إليه، قال لهم: أما إذا أرددتم إلينا رأيها، فرأيي فيها أن ترجع إلى أربابها، فهم أحوج إليها منا، وقد استغنينا وقوينا، فشق ذلك على الرسل، وليس عليهم بد من طاعة إمامهم، فردوها إلى المشرق، فعجبوا من زهادته في الدنيا ورغبته في الآخرة، فأقروا بإمامته وواصلوه بكتبهم ووصاياهم.

ثم ان تاهرت كانت حرزاً وحصناً لجماعة المسلمين وسميت بأم العسكر، عسكر المبارك. فلما حضرت الوفاة عبد الرحمن، رضي الله عنه، جعلها شورى في سبعة نفر[9] صنيع عمر بن الخطاب، رضي الله عنه،

---

(7) في تاريخ ابن الصغير: «أشاروا عليه أن يجعل منه ثلثاً في الكراع وثلثاً في السلاح، وثلثاً في فقراء الناس»، (ص 11-12)؛ وفي أزهار الرياض: «ثم شرع الإمام في شراء الكراع والسلاح، وقوي بيت مال المسلمين بالذخائر الحربية ومهمات الدفاع الوقتية، وتقوى الضعيف وانتعش الفقير»، (ص 87).

(8) يذكر صاحب أزهار الرياض أن هذه الأموال بلغت عشرة أحمال. راجع تفاصيل أخرى في هذا المصدر، (ص 90-91).

(9) في الأصل ستة نفر. وقد صححنا سبعة ووضعنا «ورجل» بين قوسين، حتى تتسق الرواية مع ما أورده الشماخي (ص 145)؛ وصاحب أزهار الرياض (ص 99). وأما الدرجيني الذي نقل رواية أبي زكرياء. فقد ذكر أن لجنة الشورى تتكون من ستة نفر=

أحدهم، مسعود الأندلسي، وكان رجلاً فاضلاً، فقيهاً ورعاً من شيوخ المسلمين، ومنهم أبو قدامة يزيد بن فندين اليفراني (ورجل) يقال له عمران[10] بن مروان الأندلسي، وعبد الوهاب بن عبد الرحمن، وأبو الموفق، بغدوس بن عطية، وسكر بن صالح الكتامي، ومصعب بن سدمان.

= (46/1)، ولكنه أهمل ذكر مصعب ابن سدمان. وقد فات محقق الطبقات أن يقوم بمقارنة نصه بالنصين الآخرين ويثبت هذا الاسم بين قوسين إن كان محذوفاً في المخطوط.

(10) في الأصل: عثمان. وقد صححنا عمران اعتماداً على الشماخي وسليمان الباروني. وأما الدرجيني فقد أهمل هذا الاسم الأول وذكر صاحبه باسم مروان الأندلسي.

ولايــة
عبد الوهاب بن عبد الرحمن

فلما مات عبد الرحمن بن رستم، رضي الله عنه وغفر له، اجتمع أهل الشورى على من يولونه أمور المسلمين فتدافع بعضهم إلى بعض، إلاّ أن عامة المسلمين مالت أنفسهم إلى اثنين منهم، أحدهما مسعود الأندلسي والآخر عبد الوهاب، رضي الله عنه. فبعض المسلمين أرادوا تولية مسعود وبعضهم أراد تولية عبد الوهاب، فمكثوا حوالي شهر يديرون الرأي فيما بينهم.

ثم ان العامة مـالت إلى مسعود فبـادروه ليبايعـوه، فهرب لهم واستخفا.

وابتدروا عبد الوهاب فلما سمع مسعود بتركهم لمبايعتهم له وإرادتهم مبايعة عبد الوهاب، رضي الله عنه خرج مبادراً ليكون أول من يبايع عبد الوهاب هو.

وكان أبو قدامة حين لم تمل أعـين الناس إليـه ولم تنصرف قلوب المسلمين لديه، ورأى أنه قد خلا منها، أراد تولية عبد الوهاب وقال: هو أقرب منا رحماً من غيره، ولعل ذلك أن يعطفه علينا، لأن أم عبد الوهاب يفرانية، فرجوا فيه أن يؤثرهم في الأمور لأنه ابن أختهم. فقام أبو قدامة في نفر من أصحابه، فأبوا إلاّ مبايعة عبد الوهاب، للمناسبة التي بينهم، فطمعوا فيه أن يؤثرهم على غيرهم، ولكن تخوفت أنفسهم من جهته.

فلما أراد الناس مبايعة عبد الوهاب، رضي الله عنه، تقدم مسعود

الأندلسي ليبايعه فتكلم يزيد بن فندين وأصحابه، فقالوا نبايعه بشرط ألا يقضي دون جماعة معلومة.

فقال لهم مسعود، ما علمنا من أمور الإمامة شرطاً غير أن تحكم فينا بكتاب الله تعالى وسنة نبيه، عليه السلام، وآثار الصالحين قبله. فترك ابن فندين وأصحابه الشرط، حين رد عليهم المسلمون، فتقدم مسعود، فبايع عبد الوهاب، رضي الله عنه، وبايع الناس بعد ذلك بيعة عامة[1] فحملوه إلى دار الإمامة، فلم يختلف عن بيعته أحد، ولم ينقم عليه أحد في أمور حكومة ولا في خصومة، حتى نجم ابن فندين وأصحابه.

---

(1) الأرجح أن عبد الوهاب تولى الإمامة بعد وفاة أبيه (بنحو شهر) في سنة 171 هـ، على أن المؤرخين يختلفون في هذه القضية. والشائع بينهم هو أن إمامة عبد الوهاب دامت 40 سنة، باعتبار أنه تولى الملك في سنة 168 هـ، وتوفي في سنة 208 هـ. وقد أورد ابن الأثير خبراً مؤداه أن عبد الوهاب سار على رأس البربر في جمع عظيم في سنة 196 م، إلى طرابلس وحاصرها ودام حصاره لها حتى وفاة ابراهيم بن الأغلب (الذي مات في تلك السنة)، ثم صالحه عبد الله (ابنه) الأغلبي. وهذا الخبر الذي يدل على أن عبد الوهاب كان حياً في سنة 196 هـ. ردده الشماخي، ولكن ابن عذاري (الذي يسمي عبد الوهاب عبد الوارث) يقول ان إمامته دامت عشرين سنة ويذكر أن الإمام توفي في سنة 188 هـ: أي أنه تولى الإمامة في سنة 168 هـ. وهذا التاريخ لبدء ولاية عبد الوهاب، هو الذي اعتمده كل من جورج مارسي وزمباو في معجم الأنساب والأسر الحاكمة (وكلاهما ذكر أن عبد الوهاب مات في سنة ٢٠٨هـ). على أن سليمان الباروني يصحح رواية ابن عذاري فيقول: «والصحيح أن ولايته كانت في سنة 171 هـ تقريباً، ومدتها 19 سنة فوفاته تكون في سنة 190 هـ تقريباً».

راجع عن عهد عبد الوهاب: السير للشماخي (144-163)؛ طبقات الدرجيني (72-47/1)؛ الأزهار الرياضية (165-100/2)؛ الكامل (270/6)؛ العبر (194/4)؛ البيان (1-197)؛ معجم الأنساب (ص 100)؛ سلم العامة (ص 12-14)؛ البكري (ص 66-68)؛ تاريخ ابن الصغير المالكي (ص 16-23)؛ البرادي في كتاب الجواهر؛ تاريخ الجزائر (23/2)؛ مقالة جورج مارسي (بنورستم) في دائرة المعارف الإسلامية.

وكذلك: — Basset (R), les Sanctuaires de Djebel Nafousa

ولنفس المؤلف (المجلة الآسيوية، ج 1899/2).

— Etude sur la Zanata de Ourqla et de Oued Rir, Publication de la Faculté des Lettres, Alger.

أول افتراق الإباضية

مع أن طائفة تنتحل اسم الاباضية، يقال لها العمرانية، لم تجمعنا واياهم الكلمة من أول، وزعموا أنهم اباضية، وكثيراً ما يسندون مذهبهم إلى عبدالله ابن مسعود، رضي الله عنه، فهم تبعة عيسى بن عمير وسنذكر مذهبهم إن شاء الله والرد عليهم فيما خالفوا فيه أهل الحق. ثم بعد ذلك (نتحدث عن) افتراق الاباضية (ومذاهبهم) واحداً بعد واحد، فنرد على كل فرقة منهم ما خالفت فيه أهل الحق، ونفرد كتاباً نجمع فيه مقالاتهم، إن شاء الله.

سبب افتراق الإباضية[1]

فأما سبب افتراق الاباضية، فقد أخبر به غير واحد من أصحابنا،

---

(1) تختلف رواية أبي زكرياء عن رواية ابن الصغير التي هي أقدم اختلافاً كبيراً بشأن الشقاق الأول في صفوف الاباضية. راجع تاريخ الأئمة (ص 17-20). والشقاق في صفوف الاباضية إنما هو تفتت جديد في مذهب الخوارج الذين ينقسمون إلى عدة طوائف ينضوي كل منها تحت لواء معين. ومع ذلك، فان الخوارج، بوجه عام، يتفقون في نظرية الخلافة التي يرون أن تكون باختيار حر من المسلمين، وفي نظرية اعتبار العمل (الصلاة والصوم الخ.) جزء من الإيمان. ويبلغ عدد طوائف الخوارج نحو عشر طوائف تختلف كل واحدة منها عن الأخرى في تعاليمها. ومن أهمها الاباضية والنجدات والأزارقة والصفرية (أتباع زيد بن الأصفر) التي لا يختلف أتباعها كثيراً عن الأزارقة في تعصبهم واستباحتهم لبعض المحرمات.

وذلك أن عبد الوهاب، رضي الله عنه، لما ولي أمور المسلمين وكانت رغبته في أهل الخير واستعمال أهل العلم والبصيرة من الدين في أمور المسلمين، فعمد إلى رجال ليست لهم رغبة في الولايات، فولاهم الأمور.

فلما نظر يزيد بن فندين وأصحابه إلى ما فعل، وقد خالفت فيه الرجعية، تغيرت قلوبهم وتنكرت صدورهم، وساءت ظنونهم وسقط في أيديهم ما آثروا من تولية عبد الوهاب، فأخذوا في العلل، وقالوا إنما كانت ولاية عبد الوهاب على الشرط ألا يقضي أمراً دون جماعة معلومة، فرجعوا إلى ما عيب عنهم أول مرة، فأفشوه عند الجهال ومن ليست له بصيرة بأمور الدين، فصاروا يستنزلونهم عن بصائرهم، فكثر القال والقيل في البلد. ويقولون انه حابا[2] بعض الناس علينا وولاهم الأمور دوننا، ونحن أولى بالأمور ممن ولاه على الناس، لأنه إنما كانت ولايته على أيدينا. وكان مما يقولونه للجهلة من الناس انه لا تجوز تولية رجل إذا كان في جماعة المسلمين من هو أعلم منه. فاختلط قولهم وتفاقم أمرهم، وكثر التنازع، تارة يقولون لا تصلح ولاية رجل، إذا كان في جماعة المسلمين[3] من هو أعلم منه، وتارة يقولون بل كانت ولايته على الشرط.

ثم ان جماعة المسلمين اصطلح أمرهم مع يزيد بن فندين وأصحابه أن يضعوا أوزار الحرب حتى يراسلوا إخوانهم بالمشرق، ويكف بعضهم عن بعض، فما أجابوهم به أخذوه.

وبعثوا رسولين، فتوجه الرسولان إلى المشرق. فلما وصلا إلى مصر،

---

(2) في الأصل: حاما.

(3) يجب أن نتذكر أن أبا زكرياء يستعمل دائمًا في كتاب السير كلمة «جماعة المسلمين» واعتبارها مرادفة لجماعة الاباضية.

وجدا بها شعيب بن المعروف وشيعته[4] فأخبراه بموت عبد الرحمن بن رستم، رضي الله عنه، واستخلاف الناس ابنه عبد الوهاب، وخروج ابن فندين عليه وادعائه الشرط في إمامة عبد الوهاب، وما زخرف (به) من الأباطيل.

قال، فلما سمع شعيب بن المعروف ذلك من الرسولين، خلا بطائفة من أصحابه، منهم أبو المتوكل، واتفقوا على المسير إلى تاهرت.

ثم ان الرسولين توجها إلى مكة فوجدا فيها أبا عمرو الربيع بن حبيب[5] رضي الله عنه، في جماعة من أصحابنا منهم أبو غسان مخلد بن العمود[6] الغساني، فأخبرهم الرسولان فيما قدما فيه من إرسال أصحابهم إليهم من أهل المغرب، وبموت عبد الرحمن وتولية عبد الوهاب وخروج ابن فندين عليه وادعائه العلل، ودفعا لهم كتب إخوانهم من أهل المغرب، فقرءوها وفهموا ما كتبوا فيها إليهم، فاجتمع من بها من المسلمين على أن يردوا الجواب، فلم يألوا جهداً، فكتبوا إليهم:

---

(4) قارن ما ذكره كل من الشماخي الذي أخذ كثيراً من عناصر روايته من أبي زكرياء بشأن هذه السفارة ورحلة شعيب إلى تيهرت طمعاً في الولاية (السير، ص 148 وما يليها)؛ وأزهار الرياض الذي يشتمل على تفاصيل أوفى (2-106 وما يليها).

(5) هو الربيع بن حبيب الأزدي الفراهيدي، ترجم له الشماخي ولكنه لم يذكر سنة ميلاده ولا تاريخ وفاته. وقد وصفه بأنه «طود المذهب الأشم، وبحر العلوم» (ص 102-103). له كتاب الجامع الصحيح (طبع بمطبعة الأزهار البارونية في سنة 1326 هـ. مع حاشية لعبد الله بن أحمد السالمي). وقد ذكر السالمي في حاشيته (1/3-5) أنه صحب أبا عبيدة ونزل البصرة ثم انتقل إلى عمان وسكن غضفان. وقد أدرك الربيع بن حبيب جابر بن زيد. وهو شاب، وكان يروي عن ضمام عن جابر ابن زيد عن ابن عباس.

راجع أيضاً: طبقات الدرجيني (2/213-242-243-271-278).

(6) كذا في الأصل.

«بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، يا اخواننا، قد بلغنا ما كان (من) قبلكم وفهمنا ما كتبتمونا من أمر الشرط في الإمامة ألا يقضى أمر دون جماعة معلومة. فالإمامة صحيحة، والشرط باطل. فلو صح في الإمامة شرط، لما قام لله حق ولا أقيم له حد، ولتعطلت الحدود وبطلت الأحكام ولضاع الحق. والجماعة يتعذر اتفاقها على أن الإمام إن قدم إليه سارق، لا يصيب أن يقيم عليه الحد، فيقطع يده، حتى تحضر الجماعة التي، ذكروا أو زنى أحد فلا يرجم ولا يجلد، حتى تحضر الجماعة، ولا يجاهد الإمام عدواً، ولا ينهى عن فساد إلاّ بحضرة الجماعة المعلومة. فالإمامة صحيحة والشرط باطل.

وأما ما ذكرتم من تولية رجل وفي جماعة المسلمين من هو أعلم منه فذلك جائز إذا كان في القناعة والفضل بمنزلة حسنة. وقد ولي أبوبكر الصديق، رضي الله عنه، وزيد بن ثابت[7] أفرض منه، وعلي بن أبي طالب (ض) أقضى منه، ومعاذ بن جبل[8] رضي الله عنه أعلم منه.

وهذا ليس فيه اختلاف لقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «أفرضكم زيد، وأقضاكم علي وأقراكم أبي[9] وأعلم أمتي بالحلال والحرام

---

(7) زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري الخزرجي: من أكابر الصحابة. كان كاتب الوحي، ولد بمكة وهاجر مع النبي (ص) وهو صبي. وقد كان إمام الفقه والقضاء والفتوى في المدينة بحيث أن ابن عباس كان يزوره في بيته. وهو الذي كتب المصحف لعثمان. توفي سنة 45 هـ.

راجع: غاية النهاية (296/1)؛ صفة الصفوة (294/1).

(8) معاذ بن جبل بن عمرو الأنصاري الخزرجي، أبو عبد الرحمن: صحابي جليل، كان أعلم الناس بالحلال والحرام. شهد عدداً من الوقائع، ومن بينها بدر وأحد والخندق كما شارك في غزو الشام. وقد كان واحداً من الستة الذين جمعوا القرآن كما رويت عنه أحاديث كثيرة.

راجع: سيرته في طبقات ابن سعد (ترجمة 8039)؛ أسد الغابة (376/4)؛ حلية الأولياء (228/1).

(9) كذا في الأصل.

معاذ بن جبل». وقوله، صلى الله عليه وسلم، «معاذ بن جبل سيد العلماء»، فردوا الجواب بإثبات ولاية عبد الوهاب، وإبطال الشرط وتخطئة من انتحل الشرط.

وذكروا أن الإمامة لا تبطل إلا بحدث في الإسلام، بعد الإعذار والإنذار منهم، والاصرار والاعتبار من إمامهم، فحينئذ، يزول من الإمامة.

ثم ان شعيباً، حين جاز عليه الرسولان بمصر، عزم على المسير إلى تاهرت، فخرج في نفر من أصحابه بغير مشورة مشائخ مصر، طمعاً في الإمارة. وقد كان بها لجماعة المسلمين مشائخ ذوو فضل وعلم وورع. وقد نهاه بعضهم عن الخروج إلى تاهرت، فقالوا له، كيف تقدم إلى بلد اختلف أهله؟ ولم يشتغل بهم، واستعجل، هو وأصحابه، طمعاً في الأمور، فمضوا مستعجلين حتى أضنوا رواحلهم فصاروا يسوقونها سوقاً.

وحكي عنهم أنهم وصلوا من مصر إلى تاهرت في عشرين يوماً.

فلما وصل شعيب وأصحابه إلى تاهرت، دخل على الإمام، ولم يكن له بد من الدخول عليه، فسأله الإمام، رضي الله عنه، عن إمام ولي بشرط ألا يقضي أمراً دون جماعة معلومة؟ فأجابه شعيب أن الإمامة صحيحة والشرط باطل.

وسأله أيضاً، هل يجوز تولية رجل وفي جماعة المسلمين من هو أعلم منه؟

فأجابه بجواز ذلك. ثم ان شعيباً خرج وتوجه نحو يزيد بن فندين وأصحابه، فأطمعوه في الأمور، فندم على فتواه للإمام عبد الوهاب، رضي الله عنه، فبدا له فوز[10] ابن فندين وأصحابه على الإمام، رضي الله عنه،

(10) في الأصل: فوازرا.

فخرج من كان ينظر إليه من النكار من المدينة إلى المنازل التي بجبال المدينة، فصاروا يجتمعون ويتناجون، فلذلك، سموا «النجوية»[11].

ثم بعد ذلك، اجتمعوا بكدية بجبال المدينة، فأظهروا إنكار إمامة عبد الوهاب، فسموا «النُكار». وسموا «الشغبية» لإدخالهم في الإسلام الشغب، وسموا «الملحدة» حين الحدوا في أسماء الله تعالى، و«الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون». وسموا «النكاث» لنكثهم بيعة الإمام بغير حدث.

وبلغنا أنهم كانوا يدخلون المدينة بالجماعات، فتكلم بعض المسلمين إلى الإمام أن ينهاهم عن ذلك، ولم يشتغلوا به. فكلمهم في خروجهم من المدينة إلى المنازل، فقالوا هذه مدينتنا، وتلك منازلنا، فإن عصينا في خروجنا من المدينة، فليخبرنا الإمام بذلك فنترك. قال فتركهم الإمام، ثم بعد ذلك صاروا يدخلون المدينة بالسلاح، فكلم بعض المسلمين أن ينهاهم عن ذلك، فنهاهم الإمام عن إمساكهم السلاح. و(ان) أثمنا من إمساكنا السلاح، فليخبرنا بذلك الإمام، فنترك.

قال فتركهم الإمام وأمر أهل المدينة بإمساك السلاح مخافة عليهم من الغدر بهم.

وبلغنا أن نفراً منهم، اجتمعوا على غدر الإمام، رضي الله عنه، فأداروا أمرهم بينهم، فقالوا كيف لنا بالوصول إلى قتله، فلم يتجه لهم ذلك. ثم ان رجلاً منهم قال لهم: هل لكم في رأيي؟ أن تأخذوا تابوتاً وتجعلوني فيه وتمضون بالتابوت إليه، كأنكم مختمون عليه وتمتنعون من الاتفاق عليه وأن يجعلْ في يد أحدكم دون غيره. فإذا صرتم إلى ذلك، فقولوا له لا نرضى أن نضعه عند أحد سواك، فاتفق رأيهم على ذلك.

---

(11) قارن سير الشماخي (ص150)؛ وطبقات الدرجيني (51/1 وما يليها).

وعمدوا إلى التابوت فأدخلوا (الرجل) فيه، ومعه سيفه، وكان التابوت مغلقاً من داخل، وأقبلوا بالتابوت إلى الإمام عبد الوهاب، رضي الله عنه. على اتفاقهم الأول، وهم يتنازعون عليه حتى أظهروا من أنفسهم (أنهم) يتجاسرون ويقع الشر بينهم.

فلما وصلوا إلى الإمام، تكلم متكلم، فقال يا أمير المؤمنين، افصل بين هؤلاء القوم، وانزع هذا التابوت من أيديهم جميعاً، حتى تصلح بينهم، ويزول الشر الذي بينهم، فقال القوم بأجمعهم، صدق لك، يا أمير المؤمنين ولسنا نثق بأحد أن نضعه عنده إلاّ أنت، فضعه لنا عندك، حتى نتفق.

فلما رأى الإمام منهم ذلك، وخاف أن يقع الشر بينهم، قال لهم: احملوا تابوتكم إلى الموضع الذي آمركم أن تضعوه فيه.

قال، فلما حملوه، ونظر إليهم الإمام مثقلين بحمل التابوت، استرابهم. ثم ان الإمام عبد الوهاب، تأمل التابوت فوجده مقفلاً من داخله، فكان ذلك مما زاده ريبة فيهم، وظن أنهم أرادوا به المكر والغدر. وقد كانوا اشترطوا عليه ألا يضعه إلاّ في بيت ينام فيه، فلما وضعوه، خرجوا من عنده مستبشرين فرحين، وظنوا أنهم يظفرون بحاجتهم. فخيبهم الله، وكانوا أهل مكر وخداع وخبث النفوس.

وبلغنا أنهم اتفقوا مع صاحبهم أنه إذا قتل الإمام، أن يؤذن لصلاة الصبح، عند طلوع الفجر، فإذا سمعوا آذانه، وهم يعرفون صوته، يبادرون إلى دار الإمام عبد الوهاب، رضي الله عنه، وإن لم يؤذن، عرفوا أن صاحبهم لم يظفر بحاجتهم.

فلما جاء الليل، اشتغل الإمام، رضي الله عنه في صلاته، فلما فرغ منها وفرغ من حوائج أهل بيته، وكانت عادته، إذ فرغ منها أن يأخذ كتاباً فيقرأ فيه.

فلما كانت تلك الليلة، عمد الإمام، رضي الله عنه، إلى زق منفوخ، فوضعه على فراشه، فوضع عليه ملحفة بيضاء، فلما قضى حاجته

من قراءة كتابه وجاء الوقت الذي يرقد فيه، أخذ المصباح فأوقده، وألحف عليه غطاء بسترة، وتنحى إلى جانب البيت، وأقبل على الصلاة حيث لا يسمع به ولا يراه من كان في التابوت.

فلما هدأ صوت الإمام عن صاحب التابوت، وظن أن الإمام قد رقد، فتح التابوت وخرج منه، فنظر في البيت يميناً وشمالاً، فلم ير شيئاً، إلّا بياضاً من ناحية البيت، فظن أنه الإمام، فقصده وبيده السيف مستلاً، والإمام، رضي الله عنه يبصره، فلما وصل إلى فراش الإمام، ضرب بالسيف على الزق، فظن أنه قتل الإمام، وإنما أصاب الزق منفوخاً.

فلما سمع الإمام ضربه بالسيف، نزع الغطاء عن المصباح واستضاء البيت، فقصده وضربه الإمام بالسيف، فقده نصفين، فأخذه ولفه في ثيابه ورده في تابوته، فبات القوم متململين ينتظرون متى تكون الصيحة على الإمام عبد الوهاب، رضي الله عنه أو يؤذن صاحبهم، فلما كان بالغد، اجتمعوا فتساءلوا فيما بينهم، فقال بعضهم لبعض: هل سمعتم عن الإمام أو عن صاحبكم شيئاً؟ فقالوا: لا!

فقال بعضهم لبعض: امضوا بنا لنأخذ تابوتنا، ونقول له قد اتفقنا عليه واصطلحنا.

قال: فأقبلوا إلى الإمام، رضي الله عنه، وقالوا له: أعطنا تابوتنا، فقد اتفقنا عليه.

قال، فقال لهم الإمام، امضوا إلى الموضع الذي وضعتم فيه تابوتكم. فخذوه، فمضوا معه، حتى دخلوا البيت، فوجدوا تابوتهم في الموضع الذي وضعوه فيه، فحملوه، فلما وصلوا إلى مأمنهم، فتحوا تابوتهم، فوجدوا صاحبهم قتيلاً مقدوداً نصفين، فخيب الله سعيهم، وأظهر بغيهم وأخلف ظنهم، فخرجوا من المدينة خوفاً من صنيعهم من المسلمين.

* * *

ثورة ابن فندين[12]

ثم إن شعيب بن المعروف[13] تكلم إلى يزيد ابن فندين وأصحابه، فقال لهم: ماذا تنتظرون بهم؟ فبادروا القوم واستغفلوهم ولا تتربصوا بهم، يريد الإمام ورعيته. وإنما قال ذلك مخافة أن يأتي الجواب من المشرق، فتكون عليهم الحجة، ولأنه علم أن الصواب (هو) ما أفتى به أولاً، ثم رجع عنه حين أطمعوه في الأمور.

وكان ابن فندين وأصحابه ينتظرون متى تكون لهم الفرصة أو يجدون من أهل المدينة غرة. وقد أمر الإمام عبد الوهاب ــ رضي الله عنه ــ جماعة المسلمين أن يمسكوا السلاح، فكانوا كذلك إلى أن خرج الإمام عبد الوهاب ــ رضي الله عنه ــ ذات يوم إلى بعض حاجته، فبادر يزيد بن فندين وأصحابه، أهل المدينة واستغفلوهم حين سمعوا بخروج الإمام من المدينة ليدخلوها عليهم، على غفلة من أهلها، فقامت الصيحة في المدينة، فابتدرهم أهل المدينة من كل مكان، فصادف ذلك أفلح وأخته تضفر رأسه، وقد ضفرت له شق رأسه وبقي الشق الآخر لم يضفر، فأخذ سلاحه، فابتدرهم فوجدهم على باب المدينة، وقد كادوا يدخلون، فوقف لهم أفلح على بابها، فنشب إحدى رجليه في الصفا فسلخ رجله إلى العرقوب، وصار يتقي بدرقته ويضربونه حتى لم يجد في درقته ما يتقي به، فرمى بها، فعمد إلى باب المدينة، فاقتلعه، فصار يتقي به، فتمالك أهل المدينة. ويزيد بن فندين، مقابل أفلح بن عبد الوهاب على باب المدينة، وعلى رأسه بيضتان

---

(12) قارن رواية أبي زكرياء عن ثورة ابن فندين بما ذكره الدرجيني (الذي اقتبس كثيراً من أبي زكرياء). في الطبقات (48/1 وما يليها)؛ والشماخي في السير (ص 146 وما يليها)؛ والباروني في أزهار الرياض (102/2 وما يليها).

(13) ورد هذا الاسم بالرسمين: ابن المعروف، وابن المعرف. ولم استطع التحقق من الرسم الصحيح.

يضرب الناس يميناً وشمالاً، فقصده أفلح، فضربه على أم رأسه بالسيف فقده والبيضتين والرأس، ونشب السيف في عمود الباب، باب المدينة، فخرّ ابن فندين صريعاً، فأحس أفلح بن عبدالوهاب رضي الله عنه ــ في يده بعض الشدة حين ضربه، فظن أن ذلك كله (من صلابة) رأسه، فقال له: ما أقوى رأسك يا بربر(ي)، يا مشؤوم.

فلما نظر إليه أصحابه قتيلاً صريعاً، ولوا منهزمين، فقتل منهم جماعة المسلمين مقتلة عظيمة، فيها اثنا عشر ألف قتيل.

وبلغنا أن دم القتلى جرى على باب المدينة كالسيل من كثرة القتلى.

ثم ان أهل المدينة اجتمعوا بعدد كثير على أن يردّوا الباب كما كان أولاً، فلم يقدروا عليه، فقالوا لأفلح: أردد ما نزعت! فقال: ردوا غيظي آنفاً أرده لكم!

ثم ان الإمام عبد الوهاب ــ رضي الله عنه ــ رجع من بعض حوائجه، فوجد على باب المدينة مقتلة عظيمة، فأخبره أهل المدينة خبر ابن فندين وأصحابه، فأمرهم بالقتلى فجمعوا ما أمكنهم، فصلى عليهم رجاء في الصلح، وطمعاً في العافية لعامة المسلمين من بقية أصحاب ابن فندين.

ثم إن شعيب بن المعروف، هرب، حين انهزم القوم، إلى مدينة طرابلس، فأظهر فيها الخلاف للإمام والبراءة منه، واستقبل الحجاج بذلك، واتصل ذلك إلى الربيع بن حبيب ــ رضي الله عنه ــ وجماعة المسلمين بأرض المشرق فتبرءوا من شعيب و(من) يزيد بن فندين وأصحابهما الذين قتلوا معه ومن كان على سبيلهم، إلا من تاب.

وكان الربيع بن حبيب ــ رضي الله عنه ــ يقول في مجلسه: عبد الوهاب إمامنا وتقينا وإمام المسلمين أجمعين. ويظهر البراءة من شعيب ويزيد بن فندين، فقيل له: كيف تبرأ من شعيب بغير حدث؟ فقال: وأي

حدث أعظم من براءته من عبد الوهاب، أمير المؤمنين. فعند ذلك يقول، عبد الوهاب إمامنا وتقينا وإمام المسلمين أجمعين.

ثم إن بقية أصحاب ابن فندين الذين لم يصابوا يوم قتل، بقيت في أنفسهم حزازات وضغائن، فتنحوا ناحية من المدينة واجتمعوا بربوة، أو كدية، فسميت كدية النكار، ثم ان الرسولين اللذين توجها نحو المشرق قدما إلى تاهرت وقد تقدمت من يزيد بن فندين وأصحابه الواقعة، فاجتمع أهل المدينة على جواب إخوانهم من أهل المشرق، فأخذوا الكتب فقرءوها، فوجدوا فيها تخطئة ابن فندين وأصحابه، وإثبات ولاية عبد الوهاب ـ رضي الله عنه ـ فمكثوا في ذلك حيناً.

وبلغنا أن ميمون بن عبد الوهاب قتل بليل ومزّق لحمه وقطّعه إرباً إرباً. فلما أصبح، وجده أهل المدينة على تلك الحالة قتيلاً، فأتاه الإمام عبد الوهاب ـ رضي الله عنه ـ فلما نظر إليه، قال: أي بني، اجتمعت فيك ثلاث، قول قائل، ويل لمن مرّت الخيل بكسائه، وويح لمن أصيب بليل، وقول القائل، إذا أمسست ابن السلطان بسوء، فامسسه مساً عنيفاً[14]. فأخذ عبد الوهاب ابنه فجهّزه وكفّنه ودفنه، ولم يدر من قتله.

---

(14) وقع أبو عبيدة البكري في اضطراب كبير حين تعرض لذكر الأئمة الرستميين بعد عبد الرحمن، فزعم أن ميمون «ابن عبد الرحمن (كذا) بن عبد الوهاب، كان صاحب تاهرت... ومضى فقال ان ميمون كان «رأس الاباضية وإمامهم، وإمام الصفر... والواصلية، وكان يسلم عليه بالخلافة».

راجع: كتاب المغرب (ص 67)، ونحن لا نعرف شيئاً عن ميمون قبل هذه المعركة التي قتل فيها، ولكنه لا يوجد من بين المؤرخين الاباضيين من يذكر أنه تولى الإمامة. وهو، بالتأكيد، لم يتولها قبل ابيه، حيث أن الإجماع تام بأن عبد الوهاب هو الذي خلف والده عبد الرحمن في الإمامة. هذا من جهة، ومن جهة اخرى، فإن الأئمة الاباضيين لا يحملون لقب الخليفة. ثم ان الاباضية والصفرية فرقتان متميزتان قد انفصلتا منذ بداية تاريخ الخوارج، وذلك من الناحية السياسية والعقيدية معاً. =

ثم انه خرج ابن لميمون بن عبد الوهاب ساعياً، فلما وصل إلى النكار، نادوه: بابن المهدور دمه، فرجع إلى جده عبد الوهاب، فأخبره، فاستقصا عبد الوهاب ــ رضي الله عنه ــ في قتل ابنه. فلما صحّ عنده أن النكار، هم الذين قتلوا ابنه، أنفذ إليهم جيشاً، فجعل عليه ابنا لميمون فخرج إليهم على مسيرة أيام في المدينة، فصادفهم مجتمعين على عدتهم، منتظرين له، فصادفوه، فقاتلهم فهزمهم الله له، فقتل منهم عدداً كبيراً وقصر الناس عن تعدادهم، وقالوا في أي اسم أقل عدداً من هؤلاء المقتولين، فوجدوه (اسم) هارون، فحسبوا كم اسم هارون أصيب فوجدوا ثلاثمائة هارون قتيلاً، فأوهن الله شوكتهم وأضعف قوتهم.

وكان بيت الرستميين بيت العلم في فنونه من الأصول، والفقه، والتفسير، وعلم اختلاف الناس، وعلم النحو والإعراب والفصاحة وعلم النجوم.

وبلغنا أن بعضهم قال: معاذ الله أن تكون عندنا أمة لا تعلم منزلة يبيت فيها القمر.

وبلغنا أن عبد الوهاب ــ رضي الله عنه ــ سمر ذات ليلة، هو وأخوه، يتعلمان مسائل الفرائض، فلم يصبح عليهما إلا وهما يورثان أهل المشرق وأهل المغرب. وكانا في سمرهما يقدان مصباحاً يجعل له عبد الوهاب الفتائل من عمامته حتى أتى عليها.

وذكر بعض أصحابنا أن عبد الوهاب بعث ألف دينار إلى إخوانه من أهل المشرق بالبصرة أن يشتروا له بها الكتب. فلما وصلهم الألف،

= ولم يكن من الممكن أن يكون إمام الاباضية إماماً للصفرية. وهذا يقال أيضاً على وجه التقريب عن علاقات الواصلية والاباضية وقد دلت الأحداث التي ذهب ميمون نفسه ضحيتها على بعد الهوة التي تفصل بين الفرقتين.

اجتمعوا واتفقوا أن يشتروا بها رقاً ويجعلوا من أنفسهم الحبر والأقلام وعولة الكتاب، وأخذوا في النسخ، فنسخوا له أربعين حملاً من كتب، فبعثوا بها إليه. فلما جاءته نشرها وقرأها حتى أتى على آخرها بأجمعها فقال: الحمد لله، ليست منها مسألة ليست عندي إلا مسألتين، لو سئلت عنهما قسمتهما إلى نظائرهما من المسائل لصادفت ما ذكره في الكتاب.

محاربة الواصلية[1] للإمام رضي الله عنه

وحدّث غير واحد من أصحابنا أن الإمام عبد الوهاب ـــ رضي الله

---

(1) الواصلية هي مذهب واصل بن عطاء الغزال (80-171 هـ.) من أئمة البلاغة وعلم الكلام، وطائفته من المعتزلة. ولقد نشرت الواصلية المناضلة مذهب الاعتزال في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، حيث بعث واصل بعدد من رجاله إلى اليمن والجزيرة وأرمينية والمغرب الخ. لإذاعة المذهب، فأجابه خلق كثير. ولد واصل بن عطاء بالمدينة ونشأ بالبصرة، وقد كان ممن بايع لمحمد بن عبد الله بن الحسن.

وفيما يتعلق بانتشار الواصلية في منطقة تيهرت، فقد ذكر أبو عبيد البكري أن مجمع الواصلية قرب المدينة يبلغ نحو ثلاثين ألفاً يسكنون «في بيوت كبيوت الأعراب يحملونها». ولواصل بن عطاء عدد من المؤلفات منها: «المنزلة بين المنزلتين» و«أصناف المرجئة» (طبقات أهل العلم والجهل). وفي واصل واتباعه يقول صفوان الأنصاري شاعر المعتزلة:

له خلف شعب الصين في كل ثغرة	إلى سوسها الأقصى وخلف البرابر
رجال دعاة لا يفل عزيمهم	تهكم جبار ولا كيد ماكر
يصيبون فصل القول في كل منطق	كما طبقت في العظم مدية جازر
تراهم كأن الطير فوق رؤوسهم	على عمة معروفة في العشائر
وسيماهم معروفة في وجوههم	وفي المشي حجاجاً وفوق الأباعر
وفي ركعة تأتي على الليل كله	وظاهر قول في مثال الضمائر

راجع: عن واصل ومذهبه؛ وفيات الأعيان (11-7/6)؛ معجم البلدان (9-7/2)؛ أمالي المرتضي (113/1)؛ وفيات الوفيات (317/2)؛ تاريخ الإسلام للذهبي (113/5)؛ مرآة الجنان (274/1)؛ لسان الميزان (214/6)؛ مروج الذهب (298/2)؛ ضحى الإسلام (93-92/3).

عنه ـ لما أوهن الله على يده كلمة النكار، وأورثهم الخزي والعار، تحرّكت الواصلية بعض الحركة، وهم قوم من البربر أكثرهم (من) قبائل زناتة، وذلك، حين أحسوا ببعض الفرقة في الاباضية وأرادوا أن ينتهزوا بعض الفرصة، فبلغ الإمام ذلك، فاعتذر إليهم مرة، بعد مرّة، وقد نشأ إذ ذاك من الواصلية شاب حدث السن، شجاع عظيم، بطل لا يقاوم له شيء، وهو ابن سيدهم وعمدتهم. وفيهم رجل منتحل للمناظرة يذب من مذهبه، وقد جرت بينه وبين الإمام مناظرات كثيرة، وكان شديد المعارضة، حديد العارضة، فتكاثفت كلمة الواصلية واجتمعوا من كل نقب وجازوا من كل أوب، فانحازوا عن تاهرت، وأخذوا عن جبالها، وهم أصحاب العمود، وأظهروا مخالفة الإمام ـ رضي الله عنه ـ فاعتذر إليهم، وخرج إليهم بعساكر كثيرة، فقاتلهم مرة بعد مرة، وكان الفتى المعروف بالنجدة والشجاعة، لا يدرك أحداً إلا قتله، ولا يبارزه أحد إلا قتله. و(كان) لذلك الفتى أب يحرّضه عند القتال، ويقول له: «اقدم، أي بني»!

فلما رأى الإمام ـ رضي الله عنه ـ ذلك، وأن حربهم جد[2] أرسل إلى جبل نفوسة يستمدهم أن يبعثوا إليه جيشاً نجيباً، يكون فيه رجل ذو علم بفنون الرد على المخالفين ورجل عالم بفنون التفسير، ورجل شجاع بطل نجد يبارز الفتى المعتزلي الموصوف بالشجاعة. فلما وصلت رسل الإمام ـ رضي الله عنه ـ إلى جبل نفوسة، ائتمروا على من يرسلونه للإمام ـ رضي الله عنه ـ واتفق رأيهم جميعاً على أن يبعثوا له بأربعة نفر: أحدهم مهدي، والآخر أيوب بن العباس، والثالث محمد بن يانس، والرابع لم يبلغنا اسمه، وقد قيل ان اسمه أبو محمد، فارس، فأرسل إليهم عامل عبد الوهاب على نفوسة، فلما أتاهم رسول العامل، توجهوا نحوه،

(2) في الأصل: وإن جربهم مجداً.

وقال لهم: ان أمير المؤمنين احتاج إليكم في أمور وأنا منفذكم إليه، فكونوا على هيئة السفر.

وبلغنا أن النفر تساءلوا فيما بينهم، فقال لهم المهدي: أما أنا، فلا يغلبني مخالف في مناظرة إلا إن ركنت في دين الله. فقال لهم محمد بن يانس: أما أنا، فقد أخذت تفسير القرآن كله من الثقات، وعلمته عنهم، إلا حرفاً واحداً، أو حرفين، فإن اضطررت أجد مخرجاً.

قال: وأخذ النفر الأربعة في هيئة السفر، فخرجوا من جبل نفوسة، متوجهين إلى تاهرت، فلما انفصلوا من الجبل، طلبهم محمد بن يانس[3] أن يدعوه أن يكون خادمهم فأبوا عليه، وألح عليهم في الطلب، فأجابوه إلى ذلك، فإذا ارتحلوا نهارهم ونزلوا عند الليل، عمد محمد بن يانس إلى خيلهم، فيعلفها، فيأخذ في صنع طعامهم، فإذا طعموا وناموا، أقبل على الصلاة راكعاً وساجداً، حتى يطلع عليه الفجر. وكان صائمًا نهاره، قائمًا ليله فكان ذلك دأبه ودأبهم. فلما رأوه متمادياً على ذلك، أشفقوا عليه، وشقّ عليهم ذلك، فطلبوا إليه أن يرفق بنفسه ولا يحمّلها فوق طاقتها، وأن يترك بعض ما يعمل في السفر ويأخذ غفوة بالليل. فأبى لهم، فعزموا عليه أن يترك وإلا طلبوا من يخدمهم غيره.

فلما رأى جدهم وعزمهم، وخاف أن يمنعوه خدمتهم، ويخدمهم غيره، قال لهم: أنا أفعل ما أردتم، ولكن على شرط أن تدعوني أركع ركعتين لا أزيد عليهما بعد، إن شاء الله.

---

(3) أبو المنيب محمد بن يانس. وصفه الشماخي في السير بأنه «المجاهد لنفسه المطيع لربه، ذو المناقب الشهيرة، والمآثر الكريمة» (ص 165-166). وكذلك ترجم له الدرجيني في الطبقات، وهو يصنفه ضمن علماء الطبقة الخامسة (200-250هـ). وقال عنه انه ممن «سمع العلم وسمع عنه». الطبقات (2/296-299).
راجع أيضاً: الاباضية في موكب التاريخ (3/17-25).

فلما سمعوا منه ذلك، طابت نفوسهم بذلك، وسرهم، وظنوا أنهم أصابوا حاجتهم.

فلما كانت الليلة المقبلة، وقد فرغ من خدمتهم، قام إلى الركعتين (اللتين) ووعدهم[4]، ألاّ يزيد عليهما شيئاً، فقرأ في الركعة الأولى نصف القرآن، وفي الركعة الثانية النصف الآخر، وطلع عليه الصبح.

فلما كان الغد، شقّ على أصحابه ما فعل أكثر من أول مرة وبلغ فيهم ذلك، وطلبوا إليه أن يرجع كما كان أول مرة، لأن ذلك أرفق به وأروح مما التجأ إليه.

وبلغنا أنهم رقدوا ذات ليلة، إذ انتبه أحدهم من منامه، فنظر إلى ابن يانس قائمًا يصلي، وكانت ليلة ممطرة ذات ريح وقر[5] فسمع طرف كسوة ابن يانس يضرب بها الريح، فتصوت، فقال: إن كان لا يدخل الجنة إلا من كان مثلك يا ابن يانس، فستصيبك بها الوحشة.

وبلغنا أن الإمام لما سمع بخروجهم من جبل نفوسة وإقبالهم إليه وقربهم منه، كلّم عبيده، وقال: من بشرني منكم بقدوم (أهل) نفوسة، فهو حر. وكانت العبيد، إذا طلعت الشمس خرجوا من المدينة، ينظرون يميناً وشمالاً، وكان للإمام ــ رضي الله عنه ــ عبد أعرج، لا يستطيع النهوض مع جملة العبيد، فعمد إلى سور المدينة فرقى عليه، فلزمه، وقعد عليه، فكانت حال العبيد، كما ذكرنا، يخرجون كل يوم ينتظرون قدوم (أهل) نفوسة.

فلما كان ذات يوم، رأت عبيد الإمام ــ رضي الله عنه ــ (أهل)

---

(4) في الأصل: وعدلهم.

(5) في الأصل كلمة غير مقروءة بالشكل التالي: وصر.

نفوسة وقد أقبلوا، فتبادروا إلى الإمام وتسابقوا إليه ليخبروه بقدومهم (ف) نظر إليه الأعرج بعيداً، فقام وصاح إلى الإمام وأخبره بقدومهم وبشّره بهم، فخرج حراً، فجاء أصحابه بعد ذلك فوجدوه قد سبقهم بالبشارة إلى الإمام ــ رضي الله عنه ــ فقالوا: قد فاز بها الأعرج.

فلما وصل النفر النفوسيون إلى مدينة تاهرت وأخبر الإمام بقدومهم، وأنهم كانوا أربعة نفر، ساءه ذلك، وكان ينتظر قدوم العسكر، فأدخلوا على الإمام ــ رضي الله عنه ــ فاستخبرهم عن أحوالهم، وسأل كل واحد منهم لما يصلح له، فأمر الإمام ــ رضي الله عنه ــ بإدخالهم في دار الضيافة وإجراء الضيافة عليهم وعلف دوابهم.

وبلغنا أن الإمام ــ رضي الله عنه ــ أجّل قبل ذلك للمعتزلة في اللقاء، أجلاً قبل قدومهم. فلما قدموا، قال لهم عبد الوهاب: الخروج. قال النفر النفوسيون: «دعنا يا أمير المؤمنين حتى تستريح دوابنا، فإنها قد أخذ منها السير وأتعبها السفر».

وبلغنا أن الإمام ــ رضي الله عنه ــ أدخلهم ذات مرة فسألهم. فقال له مهدي[6]: «أما أنا يا أمير المؤمنين، فقد كفيتك أمر المبارزة، إن شاء الله».

وقال محمد بن يانس: «أما أنا، يا أمير المؤمنين، فقد كفيتك فنون التفاسير، إن شاء الله».

---

(6) مهدي النفوسي الويغوي. ترجم له الشماخي في السير وقال عنه انه «المقدم في علم الجدال الذي له اليد العليا في البرهان والاستدلال» (ص 170-172). ووصفه الدرجيني بأنه «المقدم في علم البيان والاستدلال». الطبقات (2/313-314). راجع أيضاً الاباضية في موكب التاريخ (3/26-31).

فقال الإمام لمهدي: «إنه جرى بيني وبين هذا المعتزلي المتجل للمناظرة وجوه منها أريد أن أعرضها عليك».

فقال مهدي: «افعل، يا أمير المؤمنين».

قال: فساق الحديث مما جرى بينه وبين المعتزلي من الكلام حتى أتمه فإذا (به) زاغ المعتزلي، وحاد عن الجواب، قال مهدي للإمام ـ رضي الله عنه ـ يا أمير المؤمنين: «ها هنا ذهب لك بالحجة وحاد عن المحجة» حتى اطلع الإمام ـ رضي الله عنه ـ على جميع ما ليس فيه المعتزلة عليه ومواضع يسرق له فيها السؤال ويحيد فيها عن الجواب.

وبلغنا أن مهدي حين كان بتاهرت، خرج ذات مرة عن أصحابه فتغيب عنهم ولم يدروا أين توجه. فلما جنهم الليل، وقرب عشاؤهم، انتظروا حتى أيسوا منه وأكلوا حاجاتهم وأفضلوا له عشاءه، فكانوا كذلك إذا أقبل إليهم مهدي، فقالوا له: أين تغيبت؟ ومن أين جئت وقد برد عشاؤك، فقال لهم: إني رددت إلى دين الله سبعين[7] عالماً من أهل الخلاف في غيبوبتي عنكم.

قال: فتقدم إلى عشائه، فصادف عجيناً عجنوه لغذائهم فكشف عنه فصار يأكل، فلما كاد يشبع، قال لأصحابه: كأنَّ عشاءكم الليلة لم يطبخ ولم يطب، وقد وجدت فيه طعم العجين.

قال بعضهم: لعلك إنما صادفت عجين غذائنا. قال، ففتشوا فوجدوا العجين هو الذي صادف.

وقال لهم مهدي: حمدت الله على ثلاث، واحدة أنني إذا قُدِّم إلى

(7) في الترجمة: تسعون. ولربما كان سبب التحريف ومرجعه إلى النقاط حيث أن تسعين وسبعين كلمتان متشابهتان في الشكل.

الطعام ما أبالي أي طعام كان، فإني أقضي منه حاجتي. والثانية، إذا أخذت غفوة من النوم، اجتزيت بها. والثالثة، لست اتخوف مخالفاً على نفسي أن يغلبني في حجة إلا أن ركنت في دين الله.

ثم إن الإمام ــ رضي الله عنه ــ بعث إلى رئيس المعتزلة وسيدهم بأنه سيخرج إليهم في اليوم الفلاني، وضرب لهم أجلاً. فلما كان ذلك اليوم، وقد ساءت ظنون المعتزلة وانتفخت أسحارهم عماذا ينجلي لهم من نفوسة وكانوا في غمة مطلخمة.

قال أيوب بن العباس[8]: يا أمير المؤمنين، إن فرسي أتعبه السفر، فلو أمر لنا أمير المؤمنين بخيل نركبها، فأمر الإمام ــ رضي الله عنه ــ أيوب أن يدخل في دار الدواب، فيأخذ منه فرساً يعجبه فدخل، فإذا نظر إلى فرس أعجبته هيئته، أخذ بناصيتها فجذبه جذبة فاقتلعت رجلاه وكاد أن يسقط على رأسه بين يديه، فكان كذلك حتى أتى على آخرها ولم يعجبه شيء منها. فقال أيوب بن العباس للإمام: اجمع علي فرسي يا أمير المؤمنين، فإن عهدي به أحسن إلي من غيره.

فأمر الإمام ــ رضي الله عنه ــ أن يؤتى بفرسه جذبه أيوب جذبة بقدر ما يقوم عليه فيقلع للفرس رأسه وينقلع من الهواء ولم يقدر له على شيء، فتأمل أيوب فرسه فوجده وبه الحفا، فأمر بإحراق الرمل وتسخينه فائتمر به، فجعله في بيت، فوضعه فيه، فأدخل فرسه في البيت، فجعل له ذلك ثلاثة أيام. فلما كان بعد ثلاثة أيام، أمر الإمام الناس بالخروج فخرجوا.

والتقى العسكران والناس ينظرون إلى أيوب ويتعجبون به لما سمعوا من شجاعته ونجدته، وأنه لا يلقى شجاعاً إلا قتله.

---

(8) قارن عن أيوب بن العباس سير الشماخي (ص 165)؛ وطبقات الدرجيني (63/1).

فاعتذر الإمام إلى المعتزلة ودعاهم إلى ترك ما به ضلوا، فأعذر إليهم في الحجة، فأبوا إلا مناصبته، فسألوا المناظرة.

ثم إن الإمام ــ رضي الله عنه ــ أمر بالصفوف فصفت، والواصلية قد صفّت صفوفها، فخرج مهدي للمناظرة بين الصفين ومن معه من أصحابه وجماعة المسلمين فخرج معهم الإمام بوجوه أصحابه، فخرج الفتى المناظر من المعتزلة ووجوه المعتزلة معه، فقال مهدي لمحمد بن يانس: اخرج إليه فناظره. فقال له ابن يانس: بل اخرج إليه أنت، ولست بأعلم مني ولكني تخوفت إذا خرجت إليه العرق الذي (يتصبب)[9] من قبل يانس.

قال: فخرج مهدي وتقدم إلى الفتى المعتزلي، وقد كان قبل ذلك أسلمته نفسه وظنت به الظنون، فأرسل إلى مهدي في سر من أصحابه يقول له: إني إذا ناظرتك وغلبتني أريد أن تستر علي، وإن غلبتك سترت عليك، وليس فينا أحد يدري لمن الدائرة على صاحبه.

فاتفق مهدي مع أصحابه أنه إذ غلبت المعتزلي، أن علامة غلبته له أن ينزع شاشيته عن رأسه ويضعها تحت ركبته.

ثم إنهما جرت بينهما وجوه من المناظرة والناس يعلمون ما يقولان، فلم يفلح أحدهما على صاحبه. ثم إنهما دخلا في فنون العلم، فخفي ذلك عمن حضرهما، غير أن الإمام يعلم ما يقولان، حتى صار كلامهما عند جماعة من حضرهما كالصفق بين الحجرين عند الإمام وعند غيره، فما كان بأوشك أن غلبه مهدي.

---

(9) في الأصل: الذي في.

فلما غلبه، أخذ الشاشية فنزعها عن رأسه وجعلها تحت ركبته، وكان ذلك أمارة بينه وبين أصحابه، إذا غلب المعتزلي، فكبّر أصحاب مهدي لغلبة مهدي عليه.

فلما نظر إليه المعتزلي ومافعل، قال: غدرتني يامهدي. فلما افترقا من المناظرة، وقد أفلح عليهم مهدي، خرج الفتى المعروف بالشجاعة من المعتزلة، فطلب المبارزة.

فأخذ أيوب بن العباس في هيئة الخروج إليه فجذب فرسه حتى استوى بين الصفين، فأراد ركوبه حيث يراه الفريقان، فتجاهل في ركوبه، فضحك منه عامة الفريقين وازدرته أعينهم، فقال لهم أبو الفتى الشجاع من المعتزلة: هيهات! الآن جاء من يقتل ابني. أو لا ترى فرسه حين ركبه كيف أدلى، ولا يفعل الفرس ذلك إلا تحت الفارس الحاذق.

فخرج (أيوب) إلى الفتى، فاقتتلا ملياً وتضاربا قليلاً، فحمل عليه أيوب بن العباس، فضربه فقتله.

وذكر بعض أصحابنا أنه طعنه فشقّه برمحه[10] فلما رأت (الواصلية) ابن رئيسها وعميدها وفارسها الذي يحمي عنها صريعاً، ولوا منهزمين، بعدما حمي الوطيس واشتدت الحرب واستمر القتل في المعتزلة.

وكان أفلح بن الإمام يضرب على ناحية وأيوب بن العباس، يضرب على ناحية أخرى. وكان سيف أيوب ابن العباس ليس له إلا حد واحد.

---

(10) في الأصل: في رمحه.

وقيل شبران مما يلي المقبض، وليس له حد من ناحية واحدة، ولعله إذا عيي جعله على عاتقه[11].

فلما أمعن أهل العسكر في قتل الواصلية وأثخن، وضعت الحرب أوزارها ولم يكد يفلت من المعتزلة إلا اليسير، صار المسلمون يعدون من أصابه أفلح بن الإمام ــ رضي الله عنه ــ ومن أصابه أيوب بن العباس، فوجدوا أحدهم أكثر قتلاً بقتيل واحد، وقد ذكر أنه أفلح، وذكر بعض أصحابنا أن قتلى أفلح عدتها أربعمائة قتيل[12].

وذكر بعض أصحابنا أن أحدهما (كان) يضرب على ناحية واحدة والآخر يضرب على الناحيتين، والله أعلم أي منهما.

وبلغنا أن المعتزلة حين انهزموا كان المسلمون في ساقتهم وأن أيوب بن العباس، نظر إلى شيء واقف كهيئة رجل في حومة العسكر، في نقيع الحجاج، فخاله رجلاً، فضربه بسيفه فيمن ضربه وأحسّ في يده حين ضربه شدة. فلما رجع قال لأصحابه: إني ضربت شيئاً قوياً، ولست أدري

---

(11) تدل الأوصاف التي وصلت إلينا للسيف الذي كان البربر يستعملونه في العصور الوسطى أنه كان طويلاً ومستقيماً وذا حدين وهو يشبه إلى حد بعيد (وربما كان من بقايا نمطه) السيف الطوارقي المشهور. والذين يعرفون هذا السيف يلاحظون بصفة خاصة صغر مقبضه وطول الحد الذي يفصل بين السيف والمقبض، مما يذكر من بعيد بالصليب، الأمر الذي استدل به بعض الباحثين بتسرع على... توغل المسيحية في بلاد البربر في العصور القديمة حتى وصلت إلى قلب الصحراء. وهو، كما لا نحتاج إلى تبيينه، استنتاج واه. وذلك لأنه كانت بعض هذه السيوف تستورد من البلدان المسيحية ومنها اسبانيا والمانيا. هذا من جهة. ومن جهة أخرى، فإن بلاد البربر التي كانت تصنع السيف ذا الحدين، قد اعتمدت أيضاً السيف ذا الحد الواحد الذي تسمح متانة ظهره بتسديد ضربة قوية إلى العدو، ومقبض هذا السيف لا أثر فيه للصليب المزعوم. وسيف أيوب بن العباس من النوع الأخير، كما نرى.

(12) تقدير عدد قتلى أفلح غير وارد في الترجمة.

ماهو، فتصفحوا من القتلى، فوجدوه عموداً واقفاً. فلما مسوه بأيديهم، وقع من ضرب أيوب له بالسيف، فصار نصفين.

ثم بعد ذلك بزمان، أرسلت المعتزلة إلى أيوب بن العباس أن يأتيها، بعد ما فعل فيها الأفاعيل، فأراد المسير إليهم، فمنعه عامة المسلمين من ذلك، وأبى عليهم إلا المسير، وخوفوه من الغدر، فلم يشتغل بهم.

قال: فسار أيوب بن العباس حتى وصل إلى بعض أحيائهم، تيممه، فابتدره أهل الحي وأنزلوه في خص ورحبوا به.

فلما جنهم الليل، قربوا له عشاءه، وهي قَصْعة كبيرة عليها شاة لحم ووطب من لبن، فأكل من القصعة كلها وانتقى عظام الشاة، عظمًا عظمًا حتى أتى على آخرها، وشرب الوطب كله من اللبن، ولم يفضل شيئاً.

ثم انه عمد إلى الركاز الأوسط من الخص، فاتكأ عليه، فأخذ في قراءة القرآن، حتى أصبح. فلما أصبح عليه الصباح، صلى صلاة الصبح بوضوء العشاء الأخيرة، ولم ينتقض عليه الوضوء.

فلما طلعت الشمس، أمرهم أيوب أن يقربوا له فرسه، وقد اتفقوا أن يغدروا به. فلما ركب فرسه، تكلم متكلمهم، فقال: يا أيوب، إن فتيان الحي أرادوا أن تلاعبهم على فرسك.

فقال له أيوب: أجل!

ثم ان فتيان الحي ركبوا خيولهم، وأخذوا قضباناً يترامون بها، وكان فيهم رجل ذو نجدة وشجاعة فتكفّل لهم بغدر أيوب.

فلاعبهم أيوب قليلاً، فلم يشعر إلا والرجل خلفه، فشدّ عليه بالرمح، فتغافل عنه أيوب حين علم به.

فلما أراد أن يضربه، اتقى أيوب ضربته، فشدّ عليهم أيوب، فقتل منهم ثمانية وحمل عليهم مرة أخرى، فقتل منهم ثمانية أخرى، فصاح إلى نساء الحي: هل يكفيكن أم أزيدكن؟ فقلن له: يكفينا!

قال: فتوجه أيوب ابن العباس. وبلغنا أنه جاز بواد فوجد فيه سبعاً ولبوة وأشبالها، فشدّ عليهم بالسيف، وقطع حين ضرب رجلي الأسد ورجلي اللبوءة، فتركهما يزحفان ويحبوان فجاز بحي من أحياء البربر، فنادى: يا أهل الحي؟ من أراد منكم اللحم فليمض إلى الوادي عند السدرة، فابتدر أهل الحي فوجدوا بها سبعاً ولبؤة يحبوان ومعهما أشبالهما. فمن يأكل المكروه، طفق يأكل.

وذكر بعض أصحابنا أن مهدي كان مشتغلاً بأمر الآخرة كثيراً تاركاً للدنيا، وكان ابن خالته مشتغلاً بالدنيا ولم يعرض لعلم الآخرة.

وبلغنا أن الإمام ــ رضي الله عنه ــ اختصم إليه مهدي وابن خالته بتاهرت، فقال ابن خالته: يا أمير المؤمنين إن هذا، يريد مهدي، قد ضيّع دنياه حتى كاد ذلك يضر بآخرته.

فقال مهدي: يا أمير المؤمنين، إن ابن خالتي هذا اشتغل بأمر دنياه حتى كاد يضر ذلك بآخرته، فلم يرد لهم الإمام جواباً.

فلما توجه الإمام ــ رضي الله عنه ــ إلى جبل نفوسة، قصد إلى دار مهدي، فوجدها دار عابد زاهد، ليست له في الدنيا رغبة ولا همة، وقد أضرّ بالإمام ــ رضي الله عنه المطر، فلم يصب عند مهدي ما يقي عنه المطر.

ثم ان ابن خالة مهدي، قال لمهدي: دعه يسكن عندي، فهو أنفع للأمير وأحسن.

قال: فخرج الإمام متوجهاً إلى داره، ومعه مهدي، فلما وصل إلى الدار، وجدها دار مترف من نعمة قد انبسطت عليه الدنيا، فدخل صاحب الدار إلى المخزن، فاستخرج لهم ثياباً جديدة لم ينلها المطر ولم يبتلها، فكساهم إياها، وفرش لهم فراشاً ووطاء حسناً وأمر بالأطعمة فقربت ووسع عليهم الخير وأوقد لهم النيران، فرفع الإمام رأسه إلى مهدي، فقال: عليك الحجة يا مهدي، ورد لهما جواب مخاصمتهما بتاهرت.

وبلغنا أن مهدي خطب امرأة بجبل نفوسة، فمضت المرأة إلى شيخ من شيوخ نفوسة، تستشيره في أمرها. فقال لها الشيخ: أما مهدي، فرجل عبادة ورغبة في الآخرة، وهو من أهل الصلاح، ولها تلمة مثنا جلواخ، بعيني واسعة، لها سد فوق سد قد انهدمت وانهدمت جسورها لا يقدر على سدها وإصلاحها إلا قبيلة من الناس. فإذا تزوجته، فاظنن الأشد إلا بتراب تنقلينه على رأسك. فرجعت المرأة فتزوجها مهدي. ومكث الشيخ زماناً ثم أراد زيارتها في منزلها، فأتاها، فوجدها ليست به، فسأل عنها، فأخبر بموضعها فتوجّه نحوها، فوجدها تنقل التراب على رأسها للتلعة، فتذكر قوله لها.

محاصرة الإمام، رضي الله عنه لمدينة طرابلس[1]

وحدّث غير واحد من أصحابنا أن الإمام عبد الوهاب ـ رضي الله عنه ـ أراد المسير إلى الحج، فأخذ في هيئة السفر، فمضى متوجهاً[2] إلى جبل[3] دمر[4] فجاز بها، فاستعمل عليهم رجلاً يقال له فقداراب. وللإمام بها مصلى في موضع يقال له تلاليت، وفي محراب المصلى بلاط يتكيء عليها الإمام ـ رضي الله عنه ـ كقعدته، فيستوي رأسه ورأس البلاطة، فهي اليوم، تبلغ الواقف منا إلى الصدر.

ثم توجّه إلى جبل نفوسة وقد عزم على المسير إلى الحج فاجتمعت

---

(1) قارن عن محاصرة الإمام عبد الوهاب لطرابلس، طبقات الدرجيني (65/1-66)؛ وسير الشماخي (ص 196)؛ وأزهار الرياض (144/2-146).

(2) ورد في الترجمة: مع زوجته.

(3) جبل ولاية طرابلس. وهو يشكل الطرف الغربي للسلسة التي تمتد من جنوب هذه المدينة حتى قابس.

ذكر الادريسي أن المسافة التي تفصل بين جبل نفوسة وجبل دمر تبلغ «ثلاثة مراحل في رمال متصلة». وقال انه تسكن في أطراف هذه الجبال قبائل من البربر يسمون رهانة، «ينتجون الإبل ويركبون أمضاها وأسرعها». وهذه المناطق تتصل من الجنوب بودان.

راجع: المغرب وأرض السودان (ص 133).

(4) في الترجمة مدرار.

عليه جموع نفوسة، فأخبرهم بمراده للمسير إلى الحج، فقالوا له: يا أمير المؤمنين، لسنا ندعك أن تمضي مخافة عليك من المسودة أن يأخذوك ويحبسوك، فتتعطل أمور المسلمين وحدود الله. ولو أصبنا أن يقتلوك، فنولي بعدك رجلاً من المسلمين، ما بالينا، ولهان ذلك علينا من أن تعطل حدود الله وأحكامه.

قال: فأرسل الإمام ــ رضي الله عنه ــ إلى إخوانه من أهل المشرق، وكان المقدّم في ذلك العصر، في الفضل والورع والعلم، أبو عمرو الربيع بن حبيب ــ رضي الله عنه ــ وابن عباد. فلما وصلت الرسل إلى المشرق وإلى الربيع وابن عباد، أجابه الربيع، بأن من كان مثلك في العناء لأمور المسلمين وتحمّل أماناتهم وخاف على نفسه من المسودة أن يبعث لحجه وهو حي.

فقال ابن عباد: من كان مثلك على الصفة المذكورة من العناء لأمور المسلمين، فليس عليه حج، لأن أمان الطريق من الشروط التي يجب بها الحج على من استطاعه.

فمكث الإمام ــ رضي الله عنه ــ منتظراً لرسوله أن يقدم عليه من أرض المشرق. فلما قدمت الرسل بجواب (عن) مسألته، أخذوا، بقول الربيع بن حبيب، فأرسل بمال ليحج به عليه، فمكث في جبل نفوسة[5]

---

(5) اشتهر جبل نفوسة الذي يمتد من الشمال إلى الجنوب على نحو ثلاثة أيام، بأنه معقل الإباضية منذ عهد علي بن أبي طالب (ض) وقت انصراف الخوارج عنه بمن سلم معهم من أهل نهروان. وكذلك اشتهر الجبل بمياهه الجارية وغياضه الوارفة الظلال وبأشجار الفاكهة، من الكروم والتين وغير ذلك، وبمزارعه التي تصلح فيها زراعة الشعير بصفة خاصة، بحيث يقول ابن حوقل ومن بعده ياقوت، انه «إذا أخبز كان أطيب طعماً من خبز الحنطة». وقد تركزت روح المقاومة للسلطان في هذه المناطق البعيدة عن الطرق المطروقة في عدد من القرى التي كان أشهرها قريتان: شروس (أو سروس) وجادوا، وذلك بالإضافة إلى نفزاوة وقسطيلية المدينتين اللتين تعتبر كل منها مركز إشعاع خاص =

في تلك المرة، فيما بلغنا سبع سنين، يتعلمون عنده مسائل الصلاة، وبقي منها أبواب لم يذكروها.

ثم إن الإمام، حين أرسل إلى المشرق، توجه بمن أطاعه من الناس إلى أهل حيز طرابلس وجبل نفوسة، وعامة من بجبالهم من البربر وغيرهم، يريد حصار مدينة طرابلس، ومكث عليها زمناً محاصراً لها، وكان بينه وبين أهل المدينة قتال شديد، وفيه استشهد مهدي.

وبلغنا أنه لما قتلوه قطعوا رأسه، فإذا قالوا له انهزم المسلمون، انقبض وجهه وتعبّس، وإذا قالوا له انهزم المسودة انشرح وجهه وتبسّم.

ثم ان الإمام ــ رضي الله عنه ــ، إذا أرادوا أن يتناجوا على كيد العدو، خرج سرهم، وكان ينتقص ممن يتناجون معه، ثم خرج سرهم أيضاً، وكان ذلك دأبه حتى لا يبقى إلا هو ووزيره، مزور بن عمران، فقال لهم ارفعوا [الحصار، فأنا] لا أحاصر المدينة برجل واحد، ثم توجّه راجعاً إلى جبل نفوسة، وقد أيس من فتح المدينة، فمكث بالجبل حيناً. وكان الإمام أعطي من العلم والحلم والاحتمال والصبر والعناية بأمور المسلمين كثيراً.

= لعلوم الدين على المذهب الاباضي. والجدير بالإشارة ان فتح جبل نفوسة الذي كانت تسكنه نصارى قد تم في عهد عمرو بن العاص الذي اضطر إلى وقف فتوحه عند هذا الحد بناء على أوامر من أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب (ض).

راجع: عن جبل نفوسة، ابن حوقل (ص 92-93)؛ الادريسي (ص 105-106)؛ البكري (الفهرست)؛ معجم البلدان (5/296-297)؛ ورحلة التجاني (الفهرست).

وكذلك: — Basset (R), Les sanctuaires du Djebel Nafousa; Xavier de Planhol, Les fondements geographiques de l'histoire de l'Islam, p. 143 et 154;

Lewicki (T.): تسمية شيوخ جبل نفوسة وقراهم، تحقيق وترجمة

وبلغنا أنه اختصم إليه رجلان بجبل نفوسة، فاسترد المدعي عليه، فامتنع وأبى من رد الجواب، فقال النفوسي، ماذا يقول هذا الحضري، يريد الإمام ــ رضي الله عنه ــ. فقال الإمام لجلسائه، هل هاهنا ابن مغطير؟ فقالوا لا .

فقال الإمام للخصمين الأجل غداً. فلما كان بالغد، استمسك المدعي بالمدَّعَى عليه، فامتنع أيضاً من رد الجواب، كما فعل أول مرة.

فقال الإمام لجلسائه، هل هاهنا ابن مغطير؟ قالوا لا . فقال، الأجل غداً. فلما كان اليوم الثالث، كذلك، قال لهم الأجل غداً.

فلما كان اليوم الرابع حضر الخصمان، واستمسك المدّعي بالمدّعَى عليه، فاسترده الإمام الجواب، فامتنع، وقال، ماذا يقول هذا الحضري، فقال الإمام لجلسائه، هل هاهنا ابن مغطير؟ وكان ابن مغطير قاعداً في طرف الناس[6] مستغشياً بثيابه، فلم يتم الإمام قوله إلا وثب ابن مغطير على الرجل، فوطئه بركبته، والرجل يصيح ويقول: أدركني يا أمير المؤمنين! فأمر الإمام ــ رضي الله عنه ــ بتركه، فاستردّ الجواب، فردّه وحكم بينهم، ولم يضجر بطول سخافة الرجل.

---

(6) ترجم له الشماخي وقال عنه انه كان «شيخاً فاضلاً فقيهاً مفتياً وكان ممن أخذ عن أبي عبيدة مسلم، ثم قدم بعده الخمسة المذكورون. فانتقل عن الفتيا وقال إني أخذت عن أبي عبيدة ولم يجرر لي المأخوذ به عنده من الأقوال».

راجع: كتاب السير (ص 143)، وكذلك: Etudes Ibadites (I/92-93)، المصدر المذكور.

الافتراق الثاني
بين الإباضية [1]

حدّث أكثر أصحابنا أن الإمام ـ رضي الله عنه ـ، لما أراد التوجه إلى تاهرت، اجتمع إليه جوامع أهل طرابلس وطالبوه أن يوليّ عليهم رجلاً، فأراد الإمام ـ رضي الله عنه ـ تولية بعض وزرائه عليهم، ولم يحبّوا ذلك، وأراد الإمام ـ رضي الله عنه ـ أن يوليّ عليهم وزيره، السمح بن عبد الأعلى ـ رضي الله عنهما ـ وطلبوه إليه، لما رأوا من محبة الإمام له وإيثاره له وحسن شأنه عليه، وهو ابن إمامهم، أبي الخطاب[2] ـ رضي الله عنه ـ، قبل ذلك.

فلما علم الإمام ـ رضي الله عنه ـ مرادهم في السمح، كره مفارقته وأراد مؤازرته [له]، وقال، يا معشر المسلمين، إنكم قد علمتم أن السمح وزيري، وأحب الناس إلي، وأنصحهم، ولن أريد مفارقته. فإذا أردتم أن

---

(1) تختلف رواية ابن الصغير اختلافاً كبيراً عن رواية أبي زكرياء بشأن الشقاق الثاني الذي وقع في صفوف الاباضية. راجع تاريخ الأئمة (ص 20-23).

(2) من علماء النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة، صنفه سليمان الباروني ضمن علماء الطبقة الرابعة، كان وزيراً للإمام عبد الوهاب وكان يقوم بالتدريس ويعقد الحلقات.

راجع عنه طبقات الدرجيني (ص 67/1 وما يليها)؛ سير الشماخي (ص 163)؛ الأزهار الرياضية 147/2))؛ الاباضية في موكب التاريخ (77/1).

استعمله عليكم، فإني قد آثرتكم على نفسي واستعملته عليكم، ووادعهم الإمام ـ رضي الله عنه ـ، وتوجّه يريد تاهرت، والسمح على حيّز طرابلس، فأحسن فيهم السيرة وأعدل في حكمه، فذلّل أهله وأصلحهم، مُقرّاً بإمامة عبد الوهاب ـ رضي الله عنه ـ.

فلما حضرت الوفاة السمح، اجتمع إليه وجوه أصحابه وقد استعمل في طرابلس وحيّزها عمّالاً كثيرة تحته، فقالوا له، وصّنا، وأمرنا بأمرك، رحمك الله، فإنّا مطيعوك في حياتك وبعد مماتك، وإنك لن تألونا رشداً، جزاك الله عنا وعن الإسلام خيراً.

فقال لهم السمح، أوصيكم ونفسي بتقوى الله والاتّباع لما أمركم به، والانتهاء عما زجركم عنه، وطاعة إمامكم عبد الوهاب ـ رضي الله عنه ـ وتأييده، ما دام مستقيمًا عن الحق الذي عليه سلفكم، وجاهدوا من خالفه. وتوفي ـ رحمه الله ـ وغُفر له.

فلما توفي السمح ـ رحمة الله عليه ـ بلغ الأمر في الناس بموته مبلغاً عظيمًا وترك ولداً يقال له خلف، وقد بلغ حب الناس لسمح غاية عظيمة بحسن سيرته وعظم درجته، فائتمرت العامة من الناس، ممن ليس له علم في الدين ولا تمييز في أمور المسلمين، أن يولّوا على أنفسهم خلف ابن السمح، وظنّوا أن ذلك أوفق لأمير المؤمنين ـ رضي الله عنه ـ من فعلهم، فردّ ذلك عليهم مَن له علم في الدين وبصيرة، وقال: ليس ينبغي أن تسبقوا إمامكم إلى شيء من أموركم.

وقال بعضهم، نولّيه على أنفسنا، فإن رضي بذلك أمير المؤمنين، وإلا عزلناه عن أنفسنا، فأبى عليهم ذلك أهل الصلاح منهم:

أبو المنيب اسماعيل بن درار الغدامسي[3] ،رضي الله عنه ، وأبو الحسن، أيوب، عامل الإمام ــ رضي الله عنه ــ على جبل نفوسة، ووجوه من ينظر إليهم من أهل دعوة المسلمين: فأبت العامة إلا أن يولّوه (خلف) على أنفسهم، فولّوه، وبعثوا كتاباً إلى الإمام ــ رضي الله عنه ــ بتاهرت، بنعي عامله، السمح، واستخلافهم ابنه خلفاً، فقالوا، إن رضي أمير المؤمنين بفعلنا، وإلا تركناه وعزلناه عن أمورنا.

فلما وصلت الإمام كتب أهل طرابلس، بوفاة عامله السمح، وتولية بعض الناس ابنه خلفاً، وردّ أهل الخير ذلك عليهم، كتب الإمام ــ رضي الله عنه ــ جواب مكاتبتهم: «بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فإني آمركم بتقوى الله العظيم والاتّباع لما أمركم به، والانتهاء كما نهاكم عنه، فقد بلغني ما كاتبتموني به من وفاة السمح واستخلاف البعض خلفاً، ورد [أهل] الخير ذلك. فإن من وليّ خلفاً بغير رضا إمامه، فقد أخطأ سيرة المسلمين، ومن أبى من توليته، فقد أصاب. فإذا أتاكم كتابي هذا، فليرجع كل عامل استعمله السمح إلى عمله الذي وليّ عليه الأخلف بن السمح، فحتى يأتيه أمري، وتوبوا إلى ربكم وراجعوا التوبة لعلكم تفلحون».

فلما وصل كتاب الإمام إلى طرابلس، اجتمع أهلها عليه، فقرأوه، وأصابوا به تخطئة من وليّ خلفاً وتصويب من توقّف عن توليته، وأمر الإمام بكل عامل أن يرجع إلى عمله، إلا خلف بن السمح، فكتبوا إليه ــ رضي الله عنه ــ مرة ثانية، يطلبون أن يجيز لهم ما فعلوا من توليتهم خلفاً. وكتب الإمام إليهم كتاباً أن ما سألوه من تجويز فعلهم، لا يسعه ذلك فيما بينه

---

(3) أحد العلماء الخمسة المعروفين بحملة العلم. قارن ماذكره الدرجيني في الطبقات (21/1)؛ والشماخي في السير (ص124 و142).
انظر كذلك: الاباضية في موكب التاريخ (17/3-25).

وبين الله. «ولو وسعني ذلك، لفعلته لكم». وأن يتوبوا من فعلهم ذلك، فأرسل الإمام إلى خلف كتاباً أفرده فيه، يأمره بتقوى الله والاعتزال لأمور المسلمين والكف عنها، وحرّم على من يدفع له صدقات من ماله، فحرّم عليه أخذها حتى يعتزل أمور المسلمين.

ثم إن الإمام ـ رضي الله عنه ـ اجتهد في النظر لأمور المسلمين بغاية الاجتهاد، فأرسل كتاباً إلى الخاصة من جماعة المسلمين الذين كانوا في طرابلس، وكتاباً آخر فيه استعمال خلف، وأمرهم أن يدفعوا له الكتاب الأول الذي فيه عزل خلف. فإن قرأه واعتزل عن أمور المسلمين وكفّ عنها وأطاع إمامه، ولم تكن له رغبة في الأمور، أن يدفعوا له الكتاب الثاني الذي فيه توليته، وإن أبى الاعتزال أن يتركوه في غيّه وزيغه، حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين.

فلما وصلت كتب الإمام ـ رضي الله عنه ـ إلى طرابلس، دفعوا لخلف بن السمح الكتاب الذي فيه عزله، فلما قرأه وفهمه، اعتزّ واستكبر، وأبى من الاعتزال، وتمادى على تولية الجهّال [له]، فتركه المسلمون في غيّه وزيغه[4].

وأما الذين ولّوه، فلما وصلهم كتاب الإمام ـ رضي الله عنه ـ وحرّم عليهم فعلهم والإقامة عليه، وأنه لا يسعه أن يجيز لهم ما فعلوه، وينهاهم أن يدفعوا صدقات [من] أموالهم، فلم يقنعهم ذلك، ولم يرضوا به، اجتمعوا وأرسلوا كتاباً إلى المشرق، إلى أبي سفيان محبوب بن الرحيل، وهو إذ ذاك، رأس الدعوة والمقدم في المشرق، بعد انقراض طبقة

---

(4) قارن بشأن الشقاق الذي ظهر بين الإمام عبد الوهاب وأنصار خلف بن السمح، سير السماخي (ص 88 وما يليها)؛ أزهار الرياض (148/2 وما يليها). وأما رواية الدرجيني (68/1-69)، فهي لا تعدو كونها اقتباساً لما ذكره أبو زكرياء.

الربيع بن حبيب، وابن غسان[5] مخلد بن العمر، وأبي المهاجر، وأبي أيوب بن وائل.

فلما وصلت الكتب إلى أبي سفيان محبوب بن الرحيل[6] ــ رضي الله عنه ــ، كتب إليهم بجواب كتبهم، بتخطئة من ولىّ خلفاً، وإصابة من لم يولّه، وأمرهم باتّباع إمامهم، عبد الوهاب ــ رضي الله عنه ــ.

فلما وصل جواب محبوب إليهم، تركوه ولم يشتغلوا به، حين لم يوافقهم ما أجاب [به و] أخذوا في العلل. وزعموا أن عبد الوهاب ــ رضي الله عنه ــ ليس بإمامهم، بغير حدث ولا بدعة، وزعموا أن إمامهم، خلف، بعد سؤالهم الإمام أن يجوز لهم ما فعلوا من توليته، وزعموا أن الحوزات منقطعة عن عبد الوهاب، وأنه في حوزة، وهم في حوزة أخرى، فلم يكن بيننا وبينهم مسائل، إلا الإقرار بإمامة عبد الوهاب ــ رضي الله عنه ــ. وسنذكر قولهم والرد عليهم في كتاب «افتراق الإباضية» إن شاء الله.

---

(5) في الأصل: أبو حسان.

(6) قارن عن أبي سفيان محبوب بن الرحيل؛ طبقات الدرجيني (70/1)؛ وسير الشماخي (ص 495).

استعمال أبي عبيدة عبد الحميد[1] (ض) ومحاربة خلف الحبيب بن الطيب

ذكر غير واحد من أصحابنا، أن عامل عبد الوهاب ــ رضي الله عنه ــ أبو الحسن بن أيوب، أدركته منيته، وهو أحد العمال الذين أنكروا على خلف ما صنع، فأرسلت نفوسة إلى الإمام ــ رضي الله عنه ــ يخبرونه بوفاة عامله وأن يستعمل عليهم عاملاً، فأرسل الإمام إليهم أن يختاروا أفضلهم وأولاهم بأمور المسلمين، يسمّونه له، [فـ] يستعمله عليهم.

فراجعوا الإمام ثانية ألا يصلح لهذا الأمر أحد إلا أبو عبيدة عبد الحميد، رجل من أهل أجناون. فأرسل إليهم الإمام ــ رضي الله عنه ــ أن يولّوه على أنفسهم، برأيه وأمره، فاجتمعت جموع نفوسة حين بلغتها وصية الإمام وأمره لهم، فأرسلوا إلى أبي عبيدة، فقالوا له: إن أمير المؤمنين أمرنا بتوليتك على أنفسنا واستعمالك علينا لتقضي بيننا بكتاب الله وسنة نبيه ــ عليه السلام ــ وآثار الصالحين.

فلما سمع أبو عبيدة منهم ذلك قال: «أنا ضعيف، أنا ضعيف، فلست أقدر على القيام بأمور المسلمين». فراسلت نفوسة الإمام مرة أخرى

---

(1) قارن عن أبي عبيدة الجناوني طبقات الدرجيني (70/1 وما يليها)؛ وسير الشماخي (ص 79 وما يليها)؛ أزهار الرياض (152-155)؛ وانظر كذلك الاباضية في موكب التاريخ (89/1-103).

في شأنه وأخبروه، بقوله، «أنا ضعيف»، فأرسل إليهم الإمام ــ رضي الله عنه ــ كتاباً يأمرهم باستعماله، وحلف لهم بالله، بالعربية، و«برديو» بالحضرية وأبيكيش بالبربرية[2] لا أقلد أمور المسلمين إلا رجلاً يقول، «أنا ضعيف، أنا ضعيف».

وكتب الإمام إلى أبي عبيدة يأمره بالدخول في أمور المسلمين، ويقول له: «إن كنت ضعيفاً في المال، فبيت مال المسلمين تغنيك، وإن كنت ضعيفاً في البدن، فادخل في أمور المسلمين، يقوّي الله بدنك، وإن كنت ضعيفاً في العلم، فعليك بأبي زكرياء يصلتين التوكيتي[3]».

فلما ورد على نفوسة كتاب الإمام ــ رضي الله عنه ــ اجتمعوا، فأرسلوا إلى أبي عبيدة، فقالوا له: «لا يسعك إلا الدخول في أمور المسلمين وطاعة إمامك». فقال لهم: «امهلوني حتى استشير عجوزاً».

فمضى أبو عبيدة، متوجّهاً إلى عجوز معروفة بالعلم والأدب والورع، فأتاها، فقال، إن أمير المؤمنين بعث إلي يريد استعمالي على الجبل، فماذا ترين لي وتشيرين به علي؟

---

(2) راجع عن أسماء الإلّه باللغة البربرية:

— De Motylinski (A), le nom Berbere de Dieu, Revue Africaine, 1905 (p. 141-8).

— Marçais (G), Les Dieux des abadites et des Barghwata, Hesp. XXII, (1936).

وكلمة «بريديو» قد تكون الكلمة اللاتينية «Par Dieu». ونحن نتذكر أن اللغة اللاتينية كانت لا تزال مستعملة في بعض الأوساط بشيوع في المدن في هذا العهد.

(3) ترجم له الشماخي، فقال، نقلاً عن أبي العباس، «إنه كان علمًا لكل الفضائل، ومعلمًا لكل ناهل».

راجع: السير (ص 178). وقد ذكره الدرجيني الذي ينقل رواية أبي زكرياء بحذافيرها باسم أبي زكرياء اللالوتي. قارن أزهار الرياض (153/2). وقد صنفه الباروني ضمن علماء الطبقة الخامسة. وأما صاحب الاباضية في موكب التاريخ، فيتحدث عنه باسم أبي زكرياء التكوتي (46-45/3).

فقالت: هل كان في جماعة نفوسة من هو أفضل منك وأحزم؟ فقال لها: أما في أمور الرجال فلا .

قالت: ادخل إذاً في أمور المسلمين لئلا يفسخ الله عظامك في نار جهنم!

قال، فأتى أبو عبيدة إلى جماعة المسلمين من نفوسة، فأنعم لهم في الدخول في أمورهم، فولّوه على أنفسهم.

فقال بعضهم لبعض امضوا بنا لنزور وقاية أحسن من عمائمنا!

فلما ولي أبو عبيدة عبد الحميد، أحسن السيرة في جميع أموره.

أما أبو زكرياء الذي ذكرناه، فقد بلغنا عنه [كثير] من الفضل والورع.

وبلغنا أن رجلاً من أصحابنا من أهل المشرق، أقبل من المشرق يريد زيارة أهل الدعوة، فجاز بالجبل وتفحّص أهله وتأمّلهم وتوجّه إلى الإمام بتاهرت. فلما وصلها تصفّح أهلها وتفرّسهم. وسأله أهل تاهرت عن الجبل ونفوسة، فقال: «الجبل، هو أبو زكرياء، وأبو زكرياء هو الجبل، وأما أبو مرداس [فـ] مثل الغزال، نفسي، نفسي، وأما أبو العباس ففتى مقر عيني».

فلما رجع من تاهرت إلى الجبل، سأله نفوسة عن أهل تاهرت، فقال: «ليس بها إلا الإمام، ووزيره، يعني الإمام عبد الوهاب ووزيره، مزور بن عمران».

وبلغنا أن أبا مرداس[4] اشتغل في أمر آخرته، فضاع [عليه] أمر دنياه. و[قد] كان فقيراً، فأرسل ذات مرة رجلاً يخطب عليه امرأة، فطاف الرجل بالجبل يطلب ويخطب له، ولم يجد امرأة، إلا واحدة مجنونة، فأخبرها أن أبا مرداس أرسله يخطب عليه، فأجابته إلى نفسها، فأتاه، فأخبره خبرها، فقال له أبو مرداس تزوجها عليّ حين اختارتني.

قال فتزوجها عليه الرجل، فمكث معها أبو مرداس دهراً، فكانت بعد ذلك من أفضل نساء نفوسة وأحسنهن وأرفعهن ذكراً.

فلما سمع خلف بن السمح بتولية الإمام ــ رضي الله عنه ــ أبا عبيدة، اشمخرّ واستكبر، وهيّجه ذلك، ودسّ اللصوص والغارات على أهل الدعوة، دعوة المسلمين من رعية أبي عبيدة.

ثم إن أبا عبيدة بعث إليه يأمره أن يكفّ عن رعيته أمر الغارات، فإذا انتحل ما انتحل من أمر الخلافة لإمامه، فليكفّ عن جماعة المسلمين الغارات.

وأبى خلف ذلك ولم يشتغل به، وأرسل أبو عبيدة إلى الإمام ــ رضي الله عنه ــ يخبره ويقول له: «ان خلف بن السمح اشتدّ علينا بالغارات والعساكر، فأْذن لي يا أمير المؤمنين في دفاعه».

قال، فرد عليه الإمام ــ رضي الله عنه ــ الجواب بالملاطفة والملاينة ما قدروا عليها. فإن فاجأهم فليدفعوا عن أنفسهم.

ثم انهم مكثوا كذلك برهة من الدهر، فأدركت الإمام ــ رضي الله عنه ــ منيته، فتوفي، رحمه الله وقدّس روحه وبرّد ضريحه.

---

(4) أبو مرداس معاصر لعاصم السدراتي: من علماء الصف الثاني من القرن الثاني للهجرة. لزم الإمام عبد الوهاب طيلة بقائه في جبل نفوسة. وقد اشتهر بنقده الشديد ومحاسبة نفسه قبل محاسبة الناس.

راجع: أخباره في سير الشماخي (ص 174-175). وانظر أيضاً الاباضية في موكب التاريخ (3/37-44). وكذلك المصدر المذكور Etudes Ibadites (1/66).

ولايـــة
أفلح بن عبد الوهاب[1]

ثم إن جماعة المسلمين بتاهرت، لما توفي عبد الوهاب بتاهرت، وقد

---

(1) بويع الإمام أفلح بن عبد الوهاب في اليوم الذي توفي فيه والده. وقد اشتهر الإمام الثالث بالعدل والشجاعة وقوة الساعد، كما عرف بشغفه بالعلم والمداولة فيه ومساجلة العلماء. وقد وصفه الشماخي بقوله: «الإمام التقي، العدل العالم الأنجح، أمير المؤمنين، أفلح بن عبد الوهاب الذي تمسك بالحجة البيضاء والصراط الأفيح». وذكر سليمان الباروني «أن الإمام أفلح قد خلف عدة مؤلفات ورسائل وأجوبة ونصائح ومواعظ وحكمًا كما كان أديباً ذا اقتدار على النظم». «وقد امتاز عهد الإمام أفلح، خصوصاً، بتوثيق علاقات تيهرت بعدد من ممالك أفريقية السوداء، وفي مقدمتها، مملكة «كوكو» التي تبعد عن تيهرت بمسافة ثلاثة أشهر، وكانت القوافل التجارية تغدو وتروح إليها، خصوصاً، من وارجلان. وكذلك قامت علاقات بين هذا الإمام وبين خلفاء الأندلس الأمويين. وتعرض ابن الصغير المالكي الذي كان معاصراً للدولة الرستمية ويكتب في تيهرت، لوصف عهد الإمام أفلح، فقال إنه كان عهد ازدهار اقتصادي لم تعرف له البلاد من قبل مثيلاً. فقد عمر المدينة (تيهرت) وبنى فيها القصور واتخذ لها باباً من حديد «وعمرت معه الدنيا وكثرت الأموال والمستقلات، وآتته الرفاق والوفود من كل الأمصار والآفاق بأنواع التجارة، وتنافس الناس في البنيان حتى ابتنى الناس القصور والضياع خارج المدينة، وأجروا الأنهار... وانتشرت القبائل وعمرت العمائر وكثرت الأموال بأيديهم».

وقد توفي الإمام أفلح لتأثره من سجن ابنه، أبي اليقظان في بغداد، وذلك في سنة 240 هـ. فكانت مدة خلافته ستين سنة، على حد قول أبي زكرياء والدرجيني الذي ينقل عنه، أو خمسين سنة، في رواية ابن الصغير. وهذا الخلاف يتصل بقضية تاريخ وفاة الإمام عبد الوهاب التي استعرضنا مختلف الأقوال بشأنها في هامش سابق. =

أَلـمَّ بهم بجبال تاهرت من العدو كثير، ابتدروا ابنه أفلح ــ رضي الله عنه ــ فولّوه على أنفسهم من يومهم ذلك، وكان ميمون النقية، فسكن الله به البلاد ووقى به العباد.

فلما اتصلت الأخبار إلى أبي عبيدة بموت الإمام ــ رضي الله عنه ــ كتب إلى الإمام أفلح ــ رضي الله عنه ــ، يستشيره في أمر خلف ويستأذنه في الدفاع، فأمره أفلح بما أمره به أبوه عبد الوهاب ــ رضي الله عنه ــ من الرفق واللطف واللين، ما لم يفاجئوه.

فلما بلغت خلف وفاة الإمام وولاية ابنه، احتمى لذلك وأنف منه وانحاز بمن معه إلى موضع يقال له تيمتى[2]، فسلّط الغارات على من كان على طاعة الإمام ــ رضي الله عنه ــ فصاروا يأخذون الأموال وينهبون الديار ويقتلون الرجال، وقد قُتل عدة من أصحابه غلطاً في حريم أبي عبيدة وحيزه، وحسبوهم من عسكر أبي عبيدة.

ثم انه استمال كثيراً من الناس من أجل أن ما قبله من الأرض خصبت وتربّعت وجدب ما قبل أبي عبيدة، ــ رحمه الله ــ فكانوا معه، طلباً لمعاشهم ورغبة في الدنيا، وكانوا معه على رأيه وبدعته، ثم انه خرج بعسكره يريد أبا عبيدة ومن معه من المسلمين، حين أبصرهم في قلة. وكان هو في كثرة، ليستأصل شأفتهم.

= (راجع ص 87، هامش 1). والى جانب المصادر التي سبقت الإحالة إليها في ذلك الهامش، يمكن الاستفادة بصفة خاصة من المراجع التالية عن الإمام أفلح: سير الشماخي (ص 192 وما يليها)؛ طبقات الدرجيني (1/54-55) و(2/72-83)؛ تاريخ ابن الصغير (ص 23-31)؛ الأزهار الرياضية (2/166-222)؛ تاريخ الجزائر العام (2/23)؛ الكامل (6/519)؛ معجم أعلام الجزائر (ص 52).

(2) لم يتمكن أحد من الباحثين الذين تعرضوا لهذا الموضوع من التعرف على قرية «تيمتى».

فسمع بأخباره عبد الحميد، فأمر أصحابه بالخروج، فخرجوا، فعسكروا بعيداً من الجبل.

فلما قرب عسكر خلف من عسكر أبي عبيدة، أرسل خلف رعيلاً من خيل نحو أربعمائة، فأرسل فيهم إخوته ومواليه وعبيده، فلم يشعر بهم عبد الحميد حتى غشيه ومن معه نهاراً، هو وأصحابه، معسكرين في حيّزهم وحريمهم.

فلما رأى أبو عبيدة ذلك، قدّم إلى أصحابه ألاّ ينالوهم بمكروه وأن يكفّوا عنهم حتى يعلموا ما يريدون. فكفّ عنهم عبد الحميد وأصحابه حتى هجمت تلك الخيل على قرية كانت بحيال عسكر أبي عبيدة تسمّى أيدرف في حيّز عبد الحميد وحريمه وطاعته، فوضعوا أيديهم في النهب وأكل الأموال، وقتلوا من قدروا عليه، فيما بين العسكر والمنزل.

وبلغنا أن تلك الخيل أصابت نحواً من عشرة أنفس من أصحاب أبي عبيدة، فلما استبان لعبد الحميد ظلمهم وبغيهم، أمر أصحابه بمنابذة تلك الخيل ومناصبتها. وناصبهم عبد الحميد وأصحابه، فانهزموا وقُتل منهم كثيراً، فأراد أصحاب عبد الحميد متابعتهم، فأبى لهم ذلك، فأحسن فيهم السيرة.

فلما رأى خلف هزيمتهم، رجع بعسكره إلى الموضع الذي خرج منه، وهو تيمتي، وانحجز فيه. ورجع عبد الحميد إلى منزله ووطنه، وأمر أصابه بالرجوع إلى منازلهم، وظنّ أن القوم لا يريدون بعد ذلك بأساً.

ثم انه أرسل إلى خلف، فقال له: «فإذ فعلت ما فعلت فلماذا الحرب[3] كن في حيّزك، وأكون في حيّزي». فأبى ذلك خلف، وأمر خلف

---

(3) في الأصل: فما يال الحرب.

أصحابه ألّا يفتروا عن الغارات على أهل طاعة أبي عبيدة ورعيته، وأمرهم بنهب الأموال وقتل الأنفس و[القيام بـ] ما قدروا عليه من الفساد.

ثم ان خلفاً مكث بعد ذلك حوالي سنة، وقد اجتمع له عدد كثير، [و] خرج معسكراً، يريد أبا عبيدة ومن معه من المسلمين.

وأمر أبو عبيدة بالخروج فخرجوا، فعسكروا بعيداً عن الجبل، وليس معه من الناس إلا القلة، ولكنهم أهل بصائر، يموتون على ما أبصروا، ولم يبالوا في قلة كانوا أو في كثرة، مرادهم بين أيديهم.

وذكر بعض أصحابنا أن عدّتهم سبعمائة، وذكر آخرون أن عددهم عدد أصحاب بدر من المسلمين، ثلاثمائة وثلاثة عشر. فأقبل خلف بمن معه من العساكر، وقد أعجبته نفسه، وكثرة من معه، ولم يعلم أن الله مع الذين اتّقوا والذين هم محسنون، وعدد عسكر خلف أربعون ألفاً.

ثم إن خلفاً أرسل إلى أبي عبيدة رسولين بخلع ولاية أفلح وإثبات ولايته هو .

فلما قدم الرسولان على أبي عبيدة يدعوانه إلى طاعة خلف، وخلع طاعة أفلح ــ رضي الله عنه ــ حاججهما أبو عبيدة في أمر الأئمة وقال لهما: «فهل أحدث الإمام ــ رضي الله عنه ــ، أو ابنه أفلح ــ رضي الله عنهما ــ حدثاً، أو أمراً يحل لكما به خلع ولايتهما؟». واحتجّ عليهما بطاعة السمح لعبد الوهاب ــ رضي الله عنه ــ حتى مات، فاعتلا بالحوزات وانقطاعها. وقال لهما أبو عبيدة ان السمح قد أقرّ بطاعته على افتراق الحوزات.

فقال أحد الرسولين: «إننا نخاف إن لم تجب إلى طاعة هذا الرجل، إراقة الدماء».

فقال له أبو عبيدة: «أيهما أعظم، إراقة الدماء، أو ترك القيام بدين الله؟».

فقال له الرجل: «إراقة الدماء أعظم».

فقال أبو عبيدة: «لو كان الأمر كما ذكرتم، ما افترق أصحاب النهر وغيرهم ولأذعنوا لطاعة الظلمة المسودة وأصاب النخيلة وأبو بلال[4]

---

(4) هو مرداس بن خدير، أبو بلال، من كبار «الشراة». شهد صفين مع علي ولكنه أنكر التحكيم، وشهد النهروان وسجنه عبيد الله بن زياد بالكوفة، وقد كانت له مواقف معارضة مع زياد تعرض لها صاحب الطبقات بالتفصيل. وأما موقفه مع عبيد الله بن زياد، فخلاصته أن أبا بلال هرب من السجن والتجأ مع ستة وثلاثين من أصحابه إلى آسك، بالأهواز، وأذاع في الناس أنه لا يقاتل إلّا من قاتله وأنهم لن يرعوا أحداً ولن يأخذوا من الفيء إلّا اعطياتهم. وقد وجه إليهم عبيد الله بن زياد جيشاً تعداده ألفان، وجيش أبي بلال لا يتجاوز أربعين مقاتلاً. فدخل الطرفان في معركة انتهت بهزيمة جيش الخليفة. وبعد ذلك وجه إليهم جيشاً آخر بقيادة عباد بن أخضر (كذا في الطبقات، وفي رواية ابن علقمة المازني). وبعد محاورات بين الطرفين اتفقا على وقف القتال للصلاة. ولما ألقى أبو بلال وأصحابه بسلاحهم وشرعوا في الصلاة أحاط بهم جيش عبيد الله وقتلهم غدراً عن آخرهم، وكان ذلك في سنة 61 هـ. ومن رثاء أبي مرداس يقول عمران ابن قحطان:

يا عين أبكي لمرداس ومصرعه
يا ربّ مرداس اجعلني كمرداس
تركتني هائماً أبكي لمرزئتي
في منزل موحش من بعد إيناس
أنكرت بعدك ما قد كنت أعرفه
يا ربّ مرداس اجعلني كمرداس

على أن «الشراة» انتقموا لمرداس وأصحابه وقتلوا عباداً وابنه بعد ذلك.

راجع عن أبي بلال طبقات الدرجيني (2/214-223)؛ سير الشماخي (ص 66)؛ الكامل (3/203 و4/38)؛ الجمهرة (ص 212)؛ معجم البلدان (1/57)؛ معجم ما استعجم (ص 91)؛ رغبة الأمل (7/87-196).

وأصحابه، وعبد الله بن يحيى[5] وأبو حمزة[6] وأصحابهما، وأبو الخطاب[7] ومن تبعه من المسلمين، وأبو حاتم[8] ومن تبعه ـ رضي الله عنهم ـ أجمعين، حتى لا يجتمع منهم اثنان حتى أعد له من أسلاف المسلمين عدداً

---

(5) هو عبد الله بن يحيى بن عمر الكندي، أبو يحيى، الملقب بطالب الحق، إمام اباضي من اليمن، خلع طاعة مروان ابن محمد وبويع له بالخلافة واستولى على صنعاء ومكة واشتد خطره وتبعه أبو حمزة، المختار وبلج بن عقبة وأبو الحر علي ابن حصين ويحيى بن حرب وغيرهم. وقد وجه إليه الخليفة جيشاً بقيادة عبد الملك بن محمد السعدي، ودخل في معركة مع أبي حمزة قتل فيها الأخير، ثم سار إلى طالب الحق الذي خرج إليه من صنعاء ونشبت بين الطرفين معركة انتهت بمقتل طالب الحق، زعيم الثورة نفسه، وكان ذلك في سنة 130 هـ.

راجع: عن هذه الثورة طبقات الدرجيني (258/2 وما يليها)؛ اليعقوبي (77/3 و78)؛ الكامل (388/5-392)؛ سير الشماخي (ص 98 وما يليها)؛ البداية والنهاية (36/10)؛ دائرة المعارف الإسلامية (957/2).

(6) هو المختار بن عوف بن سليمان بن مالك الأزدي البصري، أبو حمزة، ثائر إباضي من رجال طالب الحق الذي التقى به في سنة 128 وبايعه بالخلافة في حضرموت. وتوجه أبو حمزة من اليمن إلى الشام لقتال مروان بن محمد، فاستولى على مكة في طريقه، ثم قاتله أهل المدينة في «قديد» وقتل منهم نحو سبعمائة، ثم واصل سيره في اتجاه الشام، ووجه مروان لمقاتلته جيشاً تعداده أربعة آلاف مقاتل، فالتقى الجمعان بوادي القرى فكانت الهزيمة من نصيب الخوارج فعاد أبو حمزة ببقية جيشه إلى مكة ولحق به جيش الخليفة ودخل الطرفان في معركة قتل فيها أبو حمزة في سنة (130 هـ).

راجع: الدرجيني الذي ترجم لطالب الحق ولأبي حمزة في فصل واحد (258/2 وما يليها)؛ الشماخي (ص 98 وما يليها)؛ الكامل (388/5-392)؛ البداية والنهاية (35/10)؛ شذرات الذهب (177/1)؛ تاريخ الطبري (حوادث سنة 130)؛ مروج الذهب (230/5).

(7) راجع ترجمته أعلاه.

(8) راجع ترجمته أعلاه.

كثيراً[9]، وإنما أهرقت دماؤهم على القيام بحق الله، ولم يتركوا القيام بحق الله مخافة إراقة الدماء ولكنهم رغبوا في الجهاد والقتل في سبيل الله، فبذلوا مهجهم لأسنّة السيوف، حتى أدركوا رضوان الله. فنحن على آثارهم، إن شاء الله، لا نبتغي به بدلاً ولا عنهم حولاً. فمن أراد غير الله، فالله يحكم بيننا وبينه بعدله وفضله وهو خير الحاكمين.

ثم ان أبا عبيدة قال للرسولين، إذا كان عندكم إهراقة الدماء أعظم من القيام بدين الله، فعلم يقتل الناس؟ ارجعوا إلى صاحبكم، فقولوا له ان هذا يوم الخميس، دعونا [منه]، فإذا كان يوم الغد، يوم الجمعة، إن شاء الله، نصوم للّه تعالى، وأطلع أنا وخلف بن السمح وأبو المنيب اسماعيل بن درار الغدامسي على شرف، فنبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين، وأن يفتح بيننا وبينكم وهو خير الفاتحين.

فهذا كله والخيل ثابرة غادية ورائحة على القرى التي وليَها أبو عبيدة، تقطع الميرة وتطلب الغارة بمال تأكله أو من تقتله.

فرجع الرسولان إلى خلف، فأخبراه بما جرى بينهم (وبين أبي عبيدة) من الكلام، فأمر عساكره بالتهيؤ لملاقاة أبي عبيدة.

فلما قرب العسكران وتراءى بعضهم من بعض، تقدم رجل ممن كان مع خلف بن السمح، وكان محامياً لجماعة المسلمين، ومن يشفق عليهم، فقال لأبي عبيدة: «تنحَّ بأصحابك إلى سفح الجبل، فإن تكن الدائرة لكم

---

(9) كذا في الأصل: وقد صعب علي قراءة النص إلّا بتعديل بسيط. ولربما كان من الملائم أن نقرأه كما يلي: «حتى لا يجتمع (وراء أحد) منهم إلّا واعد له من أسلاف المسلمين الخ». وقد قرأ ماسكاري هذه الكلمة وترجمها كما يلي:

— «Deux de ces hommes suffiraient à représenter l'Islamisme et la majorité des musulmans devraient les soutenir». (p. 159).

أدركتم ما رجوتم، وأمِنتم ما خفتم، وإن تكن عليكم، كنتم في حصن ولا يغرنّكم ذلك».

فقال أبو عبيدة: «نصيحة نزعها الله من عدوّه»، فأمر أصحابه بالتنحّي فأسندوا ظهرهم إلى الجبل.

فلما تنحّى أبو عبيدة إلى الجبل، ظن خلف أن بهم جبناً وخوراً عن القتال، [فـ] قدم سرعان خيله، وتبعهم بعساكره.

فلما غشيت الخيل أبا عبيدة ومن معه من المسلمين، دعا أبو عبيدة بماء الوضوء، فأمر رجلاً، فجعلوا له ستراً، فتوضّأ وصلى ركعتين، ودعا الله تعالى وابتهل إليه أن يفت شوكتهم، ثم قال: «يا من لم أعرض عنه منذ استقبلت أمره، لا تفرّق هذه العصابة على يده».

وبلغنا أن رجلاً من عسكر خلف، تقدّم إلى رجل في طرف صف أبي عبيدة، فقال: ما الذي أوقفكم؟

فقال الرجل الذي في عسكر أبي عبيدة: وقفنا لذكر الله. فقال الخلفي: ما بال السلاح؟ فقال له: للدفاع في سبيل الله. فقال له: من تدفعون؟ فقال: من بغِي علينا.

فتكلم رجل آخر من عسكر أبي عبيدة إلى صاحبه، فقال له: ما لك بيّنت له الكلام؟ فقال له الرجل: طمعاً في الصلح، ولتأخير بعض الشر، يا أخي.

ثم ان الصفين تدانيا بعضهم من بعض، وذلك، عشية الخميس لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب سنة إحدى عشرة ومائتين، بعد هجرة رسول الله صلىّ الله عليه وسلم، والتقوا فاقتتلوا قتالاً شديداً، وكان في

عسكر أبي عبيدة رجل شجاع، حاذق بالطعن، يقال له العباس، وهو أبو أيوب بن العباس[10]، نظر إليه أبو عبيدة [وهو] يضرب في أعراض الخيل ويكشفها، يميناً وشمالاً وقد حمى الميمنة والقلب والميسرة، فقال أبو عبيدة[11]، وقد ذكره، صار في عيني كالعقاب معصّم، لما أكلته النار، يريد العباس.

وقد ذكروا عن العباس أيضاً أنه ضرب رجلاً بسيفه، فطيرّ رأسه، فقال العباس للرأس حين طارت: «إلى النار»! فقال له الرأس مجيباً: «ولبئس المصير»!! وكان ممن قد عرف بالنسك والعبادة قبل ذلك. وقال [العباس] جسد أدعو له بالجنة زماناً تأكله النار! إنّا للّه وإنّا إليه راجعون.

وبلغنا أن رجلاً من أصحاب أبي عبيدة، رمي في عسكر خلف بمزراق، فصادف رجلاً، فخرج منه المزراق، وركل خلف الرجل، فخرّ صريعاً، فبنوا بعد ذلك، في ذلك الموضع وجعلوه مصلىّ، وهو إلى اليوم معروف، فأسرع القتل في عسكر خلف وانهزموا، وقُتلت منهم مقتلة عظيمة.

وأمر أبو عبيدة أصحابه أن لا يتبعوا مدبراً ولا يجهزوا على جريح، فأحسن فيهم السيرة، ــ أحسن الله إليه ــ فانحاز عليه[12] خلف وبقية أصحابه إلى تيمتى، فأمر بإخراج جميع من فيها من نفوسة وغيرهم، من أصحاب أبي عبيدة،

---

(10) قارن عن العباس بن أيوب سير الشماخي الذي وصفه بأنه «من أهل التقى والصلاح والاشتها في طرق الخير وسبل الرشاد. . . له أخبار في الشجاعة وسير الحروب: (ص 165)؛ وطبقات الدرجيني الذي ينقل ما أورده عنه أبوزكرياء (76/1)؛ وسليمان الباروني في أزهار الرياض (172/2)، الذي يقتبس هو أيضاً ما ذكره أبوزكرياء.

(11) في الأصل: له.

(12) في الأصل: إليه.

ولقد أخرج منهم كثيراً من أصحابه غلطاً عليهم وأجّل لهم ثلاثة أيام، فمن وجد بعد ذلك فمهدور الدم والمال، ومن ليس له ذنب، على كره منهم، من منازلهم وأوطانهم.

فلما هزمهم الله، افترق جل أصحابه عنه من نفوسة وغيرهم، فصاروا يأتون إلى أبي عبيدة يتوبون ويقبل منهم توبتهم ويرجعون عن خلف.

وبلغنا أن رجلاً ذا مجهود أتاه فيمن أتاه تائباً فقال له، تبت، يا أباعبيدة. فقال له أبو عبيدة، قبلت عنك، تاب الله عليك، فأتاه رجل آخر ممن أتى الأمر على عمد وعلم، فقال، تبت يا أباعبيدة، إن لم يسدد بعد، يابـن تحيمـت، يريد باب التوبة، فأوهن الله شوكة خلف، ولم تسكن له بعد ذلك حركة، حتى مات في زيفه وغيّه، ثم من بعد ذلك، ابنه، ولم تسكن له حركة، ثم ان ابن خلف، انحاز إلى جربة والتجأ إليها، وسنذكر حديثه وخبره ومنتهى أمره، إذا نحن صرنا إليه، إن شاء الله.

ثم ان الإمام أفلح ــ رضي الله عنه ــ ألقى بيده يميناً وشمالاً وتمكن في إمامته، واطردت له الأمور.

وبلغنا أنه قعدت عليه أربع حلق يتعلمون عنده فنون العلم، قبل أن يبلغ الحلم، وبلغ في حساب الغبار والنجامة مبلغاً عظيمًا.

وذكروا عنه أنه قعد ذات ليلة هو وأخته، فقال لها، هلمّ نحسب ماذا يذبح في السوق غداً أولاً، إن شاء الله، فحسب، فقال له أفلح، إن أول ما يُذبح في السوق بقرة صفراء، في بطنها عجل ذو غرة في جبهته. فقالت له، صدقت هي البقرة الصفراء وفي بطنها عجل، غير أن الذي

رأيته، هو طرف ذنبه أبيض تعمّمه على جبهته، فخلته أبيض الجبهة ذا غرة، وإنما ذلك طرف ذنبه.

ثم ان أبا عبيدة عبد الحميد أدركته منيته، فتوفي ــ رحمه الله ــ فاستعمل الإمام ــ رضي الله عنه ــ على نفوسة، العباس، وكان يرجو فيه الخير بدعوة الشيخ أبي عبيدة له، حين قال: «معصم، لا أكلته النار».

ولي، فأحسن السيرة، فكان على سبيل أصحابه حتى مات، رحمة الله عليه.

الافتراق الثالث
من الإباضية

حدث غير واحد من أصحابنا أن الإمام، ـ رضي الله عنه ـ استعمل على قنطرارة أبا يونس، وسيم النفوسي[1] فولي قنطرارة وما والاها، فأحسن السيرة. وكان أبو يونس أصله من نفوسة، فخرج من الجبال متوجهاً إلى قنطرارة[2] وكان سبب خروجه أن إماءه، إذا خرجن إلى المفحص ليحطبن، صرن يأخذن الحطب من أجنة الناس، فإذا أمطر في وقته، كانت المواضع التي يأخذن الحطب منها يتمكن فيها المطر. فيأخذ الماء (في الجريان) فتنهدم الجسور بذلك، فخرج خوفاً من أتباعه، فولي بقنطرارة سنين عديدة.

وبلغنا عن أبي يونس أنه طلع على الشرف الذي بنيت عليه

---

(1) قارن عن أبي يونس وسيم النفوسي ما ذكره الدرجيني في الطبقات (77/1)؛ والشماخي في السير (ص195)، وكلاهما يقتصر على إيراد المعلومات التي يقدمها أبو زكرياء.

(2) تقع قنطرارة على مسافة نحو 15 ميلاً إلى الشمال من «كباو» تحت سفح جبل، وتسمى الآن «تيجي». وقد كانت قنطرارة مدينة متوسطة الرقعة تحيط بها جنات وحدائق وبساتين ترويها مياه غزيرة وكانت تنتج أجود الفواكه والتمور. وقد خربها ابراهيم بن الأغلب عقب وقعة «مانو» التي سيأتي ذكرها. وقنطرارة الآن عبارة عن ينابيع المياه تسقي حقولاً محدودة المساحة من أشجار النخيل. وبعد تخريب قنطرارة، انتقل من نجا من علمائها من معركة «مانو» إلى تمصمص التي تقع في جنوب «طمزين» والتي سيرد ذكرها في السطور التالية.

قنطرارة، وهو يقول: لا فرار من الصدقة، والفار من الصدقة يؤدِّي. لا فرار، من الصدقة، والفار يؤدِّي، ويكرر ذلك حتى صعد الشرف.

وأرسل ابنه، سعيد إلى الإمام، ــ رضي الله عنه ــ، ليتعلم عنده العلم، ومع سعيد، نفاث بن نصر يتعلمان عند الإمام. فلما بلغا من العلوم ما قدر الله لهما، توجها نحو بلادهما، حتى توفي أبو يونس وسيم، والد سعيد، فأراد الإمام، ــ رضي الله عنه ــ أن يستعمل على قنطرارة، فاختبر الناس بذلك وميزهم، فوجد سعيداً لأحكام المسلمين أصلح، ولأمور الدين أحسن، ولحدود الله أصلب، فكتب سجلاً باستعمال سعيد، فطواه وختم عليه بخاتمه، ولم يبين لهما العامل منهما، فدفع لهما السجل، فأمرهما ألا يفكا عن السجل حتى يأتيا إلى بلدهما ويصلا إلى قنطرارة.

فمضيا، فلما كانا ببعض الطريق، استخف بنفاث الشره والخفة وسوء الخلق وحب الرئاسة وإرادة الإمارة، واستغفل سعيداً، فتخلف إلى رحلهما، ففتش وراء المكتوب فوجده وفض خاتمه وفكه وقرأ الكتاب ليعلم من استعمله منهما، فوجد (أن) سعيداً هو العامل، فظنت نفسه الظنون، وأضمر في قلبه الغش والعداوة، حيث لم يستعمله الإمام.

فوصل سعيد إلى قنطرارة، فولي وأحسن السيرة وأقام بحق الله فيها وله منبر وجمعة[3].

ثم ان نفاثاً، لما وصل إلى بلده، سئل عن الإمام، فأظهر الطعن فيه، فقال، أضاع أمر المسلمين، ويزيد في الخلقة ويلبس الطرطور ويخرج إلى الصيد، ويصلي بالأشابر، فبلغ ذلك الإمام، ــ رضي الله عنه ــ وما

---

(3) قارن قصة سعيد ونفاث في طبقات الدرجيني (77/1 وما يليها)؛ وسير الشماخي (214 وما يليها) وكلاهما ينقل عناصرها الأساسية عن أبي زكرياء.

يقوله فيه، فأرسل إليه الإمام أن يأتيه، فما نقمه عليه نقضه بين يديه، وان كان حقاً، اعتبه الإمام من نفسه، وان كان باطلاً، فأيه... ويواعده الإمام بقوله «إيه».

فلما سمع نفاث بذلك، قال: «إيه» من السلطان، هو القتل. وله مسائل انتحلها لا أصل لها: منها الخطبة، زعم أنها بدعة.

وسئل عن مسألة، فقيل له رجل مات وترك اخوته من الأب وبني اخوته من الأب والأم. فقال بنو الأخوة من الأب والأم أولى من الإخوة من الأب، فزاد ضلالا إلى ضلاله.

وذكر المشائخ أنه لو لم يفته إلاّ هذه المسألة لكفر بها وحدها.

وبلغنا أن نفاثاً له ابن أخت. فرأى ابن أخته ذلك ليلة رؤ يا، فأتى إلى نفاث فقصها عليه، فقال: رأيت رؤ يا، فعبرها لي. رأيت رجلاً جمع عرمة شعير، فرقى على رأسها سنور فوقف عليها. فقال له نفاث، ذلك رجل يجمع العلوم، فيستولي عليه الشيطان.

فقال له الفتى، ابن أخته، فأنت هو، يا خالي!

وبلغنا أنه دخل منزلاً، فقصد إلى رجل فلم يجده في منزله، فخرج: فجاء صاحب المنزل، فأخبره عياله بخبر نفاث، فأخذ دابة له فركبها وتبعه يريد أن يدركه ليكون على مذهبه، فجنه الليل فمشى حتى سمع صوته بليل مظلم وهو يقول: «ضللت وأضللت، يا نفاث»، يريد نفسه (وراح) يردد ذلك.

فلما سمع الرجل ذلك منه، قال، كيف لي باتباع رجل يقر على نفسه بالضلال، فرجع عنه وتركه.

وبلغنا أنه أعطي في العلم منزلة عظيمة وفي الفهم، ولكنه أفسد ذلك كله بالحسد وحب الأمور.

وذكروا عنه أنه جاءته امرأة ذات مرة تستفتيه في مسألة، فقالت، ما تقول في بيض طاهر طبخ في ماء منجوس. فقال لها، قفي مكانك حتى أخرج إليك.

فقعدت المرأة ودخل إلى الدار فأخذ بيضة ونيلاً وجعله في قدر وماء، فطبخها حتى أنضجها، فنزع فكسر منها، فوجد النيل قد سوّد القشرة وتغير داخل البيضة حتى صار كلون النيل، فعلم أن القشر لا يمنع النجس، فخرج إلى المرأة، فقال لها إن البيضة قد نجست.

وبلغنا أن سعيداً خرج متوجهاً في أثر نفاث، وهو بجبل نفوسة، مخافة من يضل من الناس، فعمد سعيد إلى دار يحال، فأخذ في بنيانها، وكان نفاث بناء عظيماً. فأراد نفاث معاونة سعيد في البنيان، وصار يبني له، ويجتمع الناس إلى سعيد في حوائجهم، فإذا نظر سعيد إلى الناس قد اجتمعوا عليه، وتخوف أن يتوهموا أنه قد رضي على نفاث، صار يقول في ملأٍ من الناس: فإلى متى تترك كفرك يا نفاث، فيقول له نفاث: معاذ الله من الكفر، يا شيخ!.

فإذا خلا سعيد بأصحابه، قال ليس جزاء من يخدمني ويبني لي أن أشتمه في وجهه، وانما تخوفت من الفتنة على الناس. ولذلك فعلت ما فعلت، وانما جزاؤه الخبز واللحم.

وذكر بعض أصحابنا أن نفاثاً توجه إلى أرض المشرق، فلما وصل إلى بغداد مكث فيها زماناً وكان يستأنس برجل من أهل بغداد ويقعد معه في حانوته ويحدثه. فبينما هم كذلك، إذ سمع نفاث منادياً ينادي، فقال لصاحبه، ماذا (ينادي) المنادي؟.

فقال له صاحب الحانوت، يقول من أجاب أمير المؤمنين (في) مسألة، فله سؤله ومناه.

فقال له نفاث، أنا أجيب أمير المؤمنين (على) مسألته.

فقال له صاحب الحانوت، أسكت، لأنه (سـ) يقطع رأسك إن لم تجب أمير المؤمنين بعد تكلفك الجواب.

فقال له نفاث، أجيبه عن كل ما سأل.

فلما جاز أعوان السلطان على الحانوت، قال لهم (صاحبه)، ان هذا الرجل تكلف أن يجيب أمير المؤمنين (على) سؤاله.

قال: فابتدر الأعوان إلى نفاث، فأخذوه وحملوه ومضوا به إلى دار الإمارة، فاستأذنوا له على السلطان، فأذن لهم السلطان فدخله (عليه).

فلما مثل بين يدي السلطان، سلم سلام الإمارة، فقربه السلطان وأدناه فسأله عن أحواله وبلده ونسبه ومولده. فقال نفاث، يا أمير المؤمنين أنا رجل من البربر، والبربر ليس معهم أدب، فأريد أن تأذن لي أن أتكلم في مجلسك بما بدا لي.

فقال له السلطان: قل ما بدا لك.

ثم ان السلطان سأله عن مسألة، فأجابه (عنها) وزاد عليه السؤال، فكلما زاد عليه أجاب، وقد اجتمعت وجوه بغداد وفقهاؤها وعلماؤها، فطفقوا يسألونه عن العلم حتى عيوا، فلم يقدروا على شيء، فنظر إليه السلطان وتأمله ملياً، وتعجب مما حوى من العلم، مع سخافته ونسبه، وقلة أدبه، فقال: نعم العسل في ظرف سوء. ففطن له نفاث فقال، وهو

يعرض به، كما فعل (هو): نعم الرجل في نفر سوء، يريد ديوان جابر بن زيد، ـ رضي الله عنه ـ[4] الذي كان محصوراً في الخزائن لا يستنفع به أحد، واحتمى لذلك السلطان وغضب وأنف من قوله، وتذكر عهده وأمره له أن يتكلم في مجلسه ما يريد.

ثم ان السلطان قال له، سل حاجتك. فقال له نفاث، حاجتي أن تهب لي ديوان جابر بن زيد أن أنسخه، فأجابه السلطان إلى ذلك. فلما خرج نفاث قال للسلطان بعض وزرائه، وكيف يا أمير المؤمنين عندك ديوان جابر بن زيد وفي بلدك وخزائنك وتجود به لغيرك وتخرجه من مدينتك، على أنه لا يوجد في شيء من البلدان سوى بلدك. أو لا ترى

---

(4) جابر بن زيد الأزدي، أبو الشعثاء ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر (أي سنة 21 هـ)، ومات سنة 96 هـ، في رواية الشماخي (وفي رواية أخرى سنة 93 هـ): تابعي من أهل البصرة، واصله من عمان. وصفه الشماخي بأنه «بحر العلم وسراج الدين، أصل المذهب واسه. . . صاحب ابن عباس (ض) وكان أشهر من صحبه وقرأ عليه» وينقل الدرجيني عن اياس بن معاوية قوله: «لقد رأيت البصرة وما بها مفت غير جابر بن زيد» ويصنفه الدرجيني ضمن علماء الطبقة الثانية (50-100 هـ). وفي حاشية الجامع الصحيح، أنه لما مات زيد وبلغ خبر وفاته أنس بن مالك، قال: «مات أعلم من على ظهر الأرض» وفيه أن جابراً مات في سنة 93هـ. وذكر صاحب تذكرة الحفاظ قول عمرو بن دينار: «ما رأيت أحداً أعلم بالفتيا من جابر بن زيد. وكذلك روي عن ابن عباس قوله: «تسألوني عن شيء وفيكم جابر ابن زيد». وقد ذكر صاحب التذكرة أن جابراً توفي في سنة 93هـ، ولكنه أورد أيضاً قولاً للواقدي ولابن سعد بأنه مات في سنة 103هـ. ونحن نلاحظ أنه إن صح ما روي عن أنس بن مالك وما قاله عندما بلغته وفاة جابر بن زيد، فلا بد وأن يكون جابر قد توفي قبل سنة 93هـ، حيث أن هذه هي السنة التي توفي فيها أنس على أوثق الروايات (وفي رواية أخرى أوردها صاحب مرآة الجنان، أن أنس توفي سنة 90 هـ وقيل في سنة 91، وقيل في سنة (92 هـ).

راجع: سيرة جابر بن زيد في حاشية الجامع الصحيح على مسند الإمام الربيع بن حبيب لأحمد السالمي (ص 7-8)؛ تذكرة الحفاظ (72-73/1)؛ تهذيب التهذيب (38/2)؛ طبقات الدرجيني (205/2-214)؛ سير الشماخي (ص 71-70)؛ حلية الأولياء (85/3)؛ البداية والنهاية (93/9-95).

ما فعل الرجل وما بلغ من العلوم على فقد ما يتعلمه منه، فكيف لو أصاب ديوان جابر بن زيد، ـ رضي الله عنه ـ.

فلما سمع السلطان ذلك من قولهم ندم على وعده لنفاث نسخه، وقال للوزير، إني قد وعدت له ذلك، وما الحيلة، ومثلي لا ينبغي له أن يخلف وعده؟

فقال له الوزير؛ أرسل إليه وقل له الديوان الذي وعدتك أن تنسخه (لك) فاختر أي يوم شئت من أيام السنة وليلته، فتنسخ فيه ما قدرت عليه، وأما (بـ) غير ذلك، فلا تصيبه.

ففطن نفاث أن بعض وزراء السلطان طعنوا فيه عنده فقال نفاث للسلطان افعل يا أمير المؤمنين.

ثم ان نفاثاً اشترى دنانير حبراً من عفص وزاج وصمغ[5] وعمل أحواضاً فحصها بالجير والشيد وهيأ للحبر أمكنة يمكن (معها) للوراقين الكتابة من أماكنهم.

فلما كان أطول يوم في السنة، أمر منادياً في الناس: ألاّ ان كل وراق كتب في يومه هذا فله دينار، وللملي نصف دينار، فابتدره الناس من كل مكان، فاتفق معهم.

فلما جاء اليوم الذي انتخبه للكتابة، أخذ الوراقون في الكتابة.

ولما كان عند غروب الشمس. أمر منادياً ينادي: ألا من يكتب لنا ليلته هذه بدينارين، وللملي دينار.

---

(5) انظر بشأن الفرق بين الحبر والصمغ والمداد لسان العرب، على التوالي (549-548/1) و (453-452/5) و (475/2).

فابتدره الناس من كل جانب يكتبون، فما طلع عليه (النهار) الا وقد استكمل ديوان جابر بن زيد، ــ رضي الله عنه ــ الا كتاباً واحداً، وكمل عنده سبعة أحمال، فدخل على السلطان يطلب إليه أن يدعه أن ينسخ ذلك الكتاب. فأبى عليه السلطان. فسأله أن يدعه يقرأ بين يديه مرة واحدة فأعطاه إياه، فقرأه مرة واحدة، فحفظه، فقال للسلطان: إني قد حفظته ظاهراً، وان أردت أن أتلوه عليك فعلت. فقال له السلطان، اتله علي. قال فأخذ في قراءته حتى أتمه.

ثم ان السلطان، جمع وجوه أصحابه ووزرائه، فقال لهم: ان هذا الرجل قد غلبنا، فما ترك لنا من حيلة. وأراه يريد الخروج بهذا الديوان، ولم أصب إليه سبيلاً فانظروا بما تحولون بينه وبين هذا الديوان، فافعلوا.

ثم ان السلطان قال لهم، إذا أراد التوجه إلى بلده، فإني سأخرج إليه فأسأله، فان وقف لي في مسألة قتلته.

وإلّا، فاسألوه عما قدرتم عليه، فمن وقف منكم في مسألته قتلناه.

فلما أزمع نفاث على المسير إلى بلاده، خرج إليه السلطان فتلقاه في عدة من أصحابه. فلما وصلوا إليه وجدوه وقد أراد الركوب على بغلة له (و) قد وضع رجله في الركاب فسأله السلطان عن مسألة، فطفق الناس يسألونه حتى قرب وقت الصلاة، فلم يقدر له على شيء.

قال: فتعرض نفاث لطريق، فأخذ غيره مخافة أن يتبعوه، فتوجه به إلى مكة، ثم من مكة إلى أرض المغرب.

فلما وصل إلى حيز طرابلس، نظر إلى ضعف أهل مذهبه وتمغصت نفسه وساء ظنه مخافة أن يصير الديوان إلى أهل دعوة المسلمين، فأخذه فانتخب له موضعاً، فحفر له فيه ودفنه، ولم يعرف موضعه إلى يومنا هذا.

وهذا كله حسد وبغي وسوء العاقبة. نعوذ بالله من حوادث الدهر وما يختلف به الليل والنهار.

وقال، ثم ان الإمام أفلح بن عبد الوهاب، ــ رضي الله عنه ــ مكث في إمامته ستين سنة والياً، إماماً حسن السيرة رؤوفاً بالرعية، لا يخاف في الله لومة لائم، ثم توفي، رحمه الله، وولي من بعده ابنه أبو بكر.

وكان محمد بن أفلح غائباً في أرض المشرق وقد دل بها عليه فأخذ وحبس حتى أطلقوه وأحسنوا جائزته، فتوجه نحو بلاده، فلما ابتعد عنهم حسبوا له فوجدوه ستكون له دولة لا محالة، فأخذوا في أثره يريدونه، فكان محمد ممن بلغ الغاية والنهاية في النجامة فحسب للوقت الذي يحسبون فيه فعلمها. فلما كانت تلك الساعة أخذ قصعة كبيرة فملأها ماء فدخلها فحسبوا له حين جاء الوقت الذي يحسبون فيه فوجدوه في الماء وظنوا أنه قد دخل البحر ولا يقدرون له على شيء. فرجعوا عنه وتوجه محمد بن أفلح، ــ رضي الله عنه ــ إلى تاهرت، ومعه رجل من نفوسة رفيق له. فلما وصل إلى تاهرت، وكان من أخيه ما كان من أمر ابن عرفة[6] اعتزل محمد ــ رضي الله عنه ــ الفريقين من أمر أخيه وابن عرفة، فلم يكن مع أخيه ولا مع غيره.

---

(6) يجب عدم الخلط بين ابن عرفة هذا، وسميه محمد بن محمد بن عرفة، الفقيه التونسي، صاحب المختصر الكبير في الفقه والذي عاش في الفترة بين 716-803 هـ. وأما ابن عرفة صاحب أبي بكر وضحيته، فإن المؤرخين الإباضيين لا يتعرضون لمقتله إلّا بكثير من التحفظ والاحتشام، مثل أبي زكرياء. على أن سليمان الباروني خصص لهذا الحادث المهم في كتابه أزهار الرياض عدة صفحات (223/2-236). والغريب أن الدرجيني يورد خبر مقتل ابن عرفة بصيغة التشكك فيقول: «فوجد ابن عرفة قتيلاً، فنسب إلى أبي بكر».

راجع: الطبقات (83/2)؛ انظر أيضاً ابن الصغير المالكي الذي يقول ان «الإمارة كانت بالاسم لأبي بكر وبالحقيقة لمحمد بن عرفة»؛ تاريخ الأئمة (ص 31-39). وهذا الحادث يذكرنا بفتك هارون الرشيد بالبرامكة.

ولاية محمد بن أفلح، رضي الله عنه[1]

حدث غير واحد من أصحابنا أن محمد بن أفلح اجتمع عليه عامة المسلمين فولوه على أنفسهم، ولم يكن منهم في توليته اختلاف، وبلغ في العدل والفضل غاية عظيمة. وكانت نفوسة لا تعدل بولايته إلّا ولاية جده، عبد الرحمن، ــ رضي الله عنهما ــ.

---

(1) هو محمد بن أفلح بن عبد الوهاب، أبو اليقظان. والمعروف أن الذي تولى الإمامة بعد أفلح، هو ابنه، أبو بكر الذي أهمل أبو زكرياء ذكر ولايته تحرجاً من فعلته واكتفى بذكر حادث غدره بابن عرفة. وقد تنازل أبو بكر لأخيه الذي كان بالمشرق عند وفاة أبيه عن الإمامة بعدما ملك أقل من سنتين.

وصف الدرجيني محمد بن أفلح بأنه «بلغ الغاية في العدل والفضل والاقتداء بمن سلفه، فكانت نفوسة لا يعدلون أيامه وسيرته إلّا بأيام جده عبد الرحمن وسيرته، وذلك أنهم اتخذوا مجلسه حينئذ كالمسجد، فطائفة يصلون، وطائفة يتذاكرون في فنون العلم». وذكر الشماخي أن أبا اليقظان ألّف كتباً كثيرة ووضع في الاستطاعة وحدها أربعين كتاباً وقد دخل أبو اليقظان في معارك مع محمد بن مسالة، وهو أمير إباضي مستقل عن تيهرت تمكن من الاستيلاء على هذه المدينة، بعد الفتنة التي أعقبت مقتل ابن عرفة، وقد توفي أبو اليقظان في سنة 281 هـ، بعدما ملك 27 سنة.

راجع عن عهده وسيرته المصادر المذكورة، وبصفة خاصة، طبقات الدرجيني (84-83/2)؛ سير الشماخي (ص 221-222)؛ سلم العامة (ص 14 و 43)؛ البيان (197/1)؛ الأزهار الرياضية (265-236/2)؛ ابن الصغير المالكي (ص 41-50).

وكانت نفوسة تجعل باب داره كالمسجد يسهرون حوله، طـائفة يصلون، وطائفة يقرأون القرآن، وطائفة يتحدثون في فنون العلـم.

ومكث في إمامته أربعين سنة حسن السيرة. أورع من في زمانه، فعاش حتى كبر سنه، ثم توفي، ــ رضي الله عنه ــ، وكان له في الرد على المخالفين كتب كثيرة بليغة شافية، وقد ذكر أنها قومت، فبلغت قيمتها سبعة عشر ديناراً، والله أعلم، أي ذلك.

ولاية يوسف[1] بن محمد بن أفلح، رحمهم الله

فلما مات محمد بن أفلح ــ رضي الله عنه ــ، ولي من بعده يوسف بن محمد، مكث في إمامته اثني عشر سنة، وقد اطردت له الأمور ولم ينقم عليه من رعيته أحد. وكان الياس أبو منصور[2] عاملاً له على

---

(1) بويع يوسف بن محمد بن أفلح، أبو حاتم، بعد وفاة أبيه في سنة 281 هـ، وقد كان يتولى الشؤون العامة في إمارة والده ومن المهام التي كان مكلفاً بها في حياة والده قيامه، على رأس جيش من زناتة بحماية القوافل التي تقبل من الشرق أو تقصد إليه حاملة الذهب ومختلف أنواع البضائع. وقد اشتهر يوسف بالبشاشة والكرم والمروءة والبر وكانت له سمعة شعبية عارمة، بحيث أنه لم يكد يدفن أبوه حتى سارع الناس في الأزقة إلى المناداة بأبي حاتم، يوسف، إماماً. في الوقت الذي كان هو فيه يرافق القوافل، وذلك بدون وقوع التشاور التقليدي وقبل اجتماع رؤساء القبائل للنظر في الأمر. وقد كان من أكبر أنصاره والمرشحين له للإمامة محمد بن حماد، أخ الشاعر المشهور، فيما يرجح. وقد وصفه الشماخي بقوله: «الإمام الماهر، والبحر الزاخر، العالم الذاكر، أبي حاتم الخ». وقال انه مكث في الإمامة أربع عشرة سنة. فبعد ثورات وحروب مع عمه يعقوب ابن أفلح الذي نادى به أهل تيهرت إماماً وقتاماً استقر له ودام ملكه حتى قتله بنو أخيه (اليقظان) غيلة في سنة 294 هـ.

راجع: سيرة أبي حاتم في تاريخ ابن الصغير (ص 50-53 و 56-62)؛ طبقات الدرجيني (2/265-291)؛ البيان (1/179)؛ سلم العامة (ص 15-20)؛ سير الشماخي (ص 262)؛ الأزهار الرياضية (2/265-291)؛ تاريخ الجزائر العام (2/24).

(2) وصف الشماخي أبا منصور بأنه «حكم عدل وفيصل في القضاء فلم الشعث ورتق الفتوق ورقع الخروق. السير (ص 318). =

جبل نفوسة ولأبيه ولجده، وكان قاضي أبي منصور، عمروس بن فتح[3] ـ رضي الله عنه ـ. وكان عمروس عالماً كبيراً، له كتابان في الأصول والفقه، وما مات حتى هم[4] أن يفرز بين مسائل النص ومسائل السنة ورأي المسلمين. وكان حافظاً فاطناً حاضر الحجة.

وبلغنا عنه أنه استمسك رجل برجل عنده، فاسترد عمروس جواب المدعى عليه، فسكت. قال فوطئه عمروس برجليه وعليهما خفاه، وأبو منصور، الياس حاضر.

فقال له أبو منصور، عجلت على الرجل يا عمروس. قال، فجمع عمروس أصابع يده، فقال له، كم هذه، يا أبا منصور؟ فقال أبو منصور، خمسة. فقال له عمروس، لم أعجل، كما لم تعجل أيضاً حين لم تأخذهم واحداً واحداً، حتى تأتي على آخرهم. فان لم تأذن لي بثلاث، فخذ خاتمك عني: بقتل الطاعن في دين المسلمين، ومانع الحق، والدال على عورات المسلمين.

وكان أبو منصور فاضلاً مستجاب الدعاء، وفي ذريته الولاية بنفوسة. وكان إذا خرج في عسكر ركب بغلته لا يتقي نبلاً عن نفسه ولا على بغلته ولا يقع فيه ولا في بغلته واحدة ولا يبالي من الله لومة لائم.

= راجع أخباره أيضاً في طبقات الدرجيني (84/1 وما يليها)؛ الأزهار الرياضية (252-251/2) تسمية شيوخ نفوسة وقراهم (ص 21 تعليق 29، ص 48).

(3) من علماء الإباضيين الذين قتلوا في وقعة مانو، وصفه الدرجيني بأنه «بحر العلوم الزاخر المبرز أول السبق، وهو الآخر، الضابط الحافظ، وهو المحتاط المحافظ، لم تشغله المجاهدة في الله عن دراسة العلوم».

راجع: ترجمته في الطبقات (320/2)؛ سير الشماخي (225 وما يليها). انظر كذلك، الاباضية في موكب التاريخ (143-137/1).

(4) في الأصل: اهتم.

وحدث يعقوب بن أبي يعقوب، ــ رضي الله عنه ــ، ان أبا منصور خرج في طلب ولد ابن خلف في آخر دولة الرستميين وقد هرب إلى زواغة والتأمت عليه وأرادوا منعه، وكانوا على مذهب أبيه، فسمعوا قوله، وأطاعوه، وقبلوا دعوته إلى أن رجعوا عنه، وسنذكر ذلك وكيف كان رجوعهم عنها، إن شاء الله.

قال، فسار أبو منصور ومن معه من نفوسة، فلما وصل إلى أريصة، قرب طرابلس، وجد بها جماعة زواغة في عدد كبير قد اتحدوا[5] على ولد بن خلف، وأرادوا منعه من أبي منصور، فتكلم شيخ كبير من شيوخ بني يهراسن، يقال له أبو سلمة، وقال، يا معشر زواغة، هل لكم في ثلاث أن تفعلوا واحدة منهن، الأولى أن تدعوا تربة أريصة وتدخلوا جربة وتتحصنوا فيها وتمنعوا صاحبكم، والثانية أن ترسلوا إلى تاهرت أن يستعمل عليكم عاملاً فتخرجوا من طاعة نفوسة، والذل لهم. والثالثة أن تدفعوا إليَّ ولد خلف لأسير به إلى نفوسة، وأنا ضامن لكم وكفيل الاّ يجاوزوا فيه.

فلما أتم كلامه، تكلم رجل من زواغة فقال، ما أراد هذه اليهرساني إلاّ أن يجلب[6] الوقيعة على الخليفة. فقال أبو سلمة، كيف قلت؟ فتكلم إلى أبي سلمة رجل آخر من زواغة، فقال، لا تسمع يا أبا سلمة، لا تسمع!

فقال له أبو سلمة لست أسمع، فجعل يده في الأرض فقام.

ثم ان زواغة اجتمعوا على مناصبة أبي منصور، فلما وصلهم أبو منصور، ناجزهم القتال، فاقتتلوا اقتتالاً شديداً، فانهزمت زواغة.

---

(5) في الأصل: تحدثوا.

(6) في الأصل: يغلب.

وكانت عامة أرض أريصة عامرة بأشجار صغار كما غرست، وكانت عادتهم لمن أراد أن يغرس أرضاً بأغصان الأشجار، فيجعل لها الأمكنة، فيغرسها في تلك الأمكنة ويوصل ما بينها بحبال كبيرة أو خيوط لئلا يفسدها الوحش والبهائم.

فلما هزمهم أبو منصور، تبعهم يقتلهم أينما وجدهم. وإذا انتهوا إلى تلك الجبال، ردتهم، فما استطاعوا جوازها، فوقها ولا تحتها، فقتل منهم أبو منصور عدداً كبيراً، فرجع عنهم، ودخلت بقية زواغة جربة، والتجأ ولد ابن خلف إلى رجل من زواغة وأدخله في قصر من قصور جربة(7) يقال له «غرادية».

---

(7) جزيرة بالبحر الأبيض المتوسط تقع في خليج قابس، طولها من الشرق إلى الغرب 36 ميلاً، وعرضها من الشمال إلى الجنوب 11 و16 ميلاً، وتبلغ مساحتها 224 ميلاً مربعاً. ويفصل بينها وبين البر مضيق يبلغ اتساعه 40 ميلاً. وتمتاز جربة باعتدال مناخها ودفء جوها في الشتاء وبتربتها الخصبة وأشجارها الوفيرة، ولا سيما من التين والزيتون والنخيل والكروم، ويبلغ عدد سكانها حالياً 61500 نسمة، وهم من البربر الذين يحتفظون بلغتهم الأصلية التي تشبه لغة جبال زواوه والريف المغربي، وذلك عدا أقلية من العرب الذين ينتمون إلى قبيلة حازم وأولاد مبتول. وجربة التي يذكرها الحسن بن محمد الوزان باسم (Gerbo)، ومرمول باسم (Gelves)، كانت معروفة في العصور القديمة باسم «منيكس» (Menix). وقد كانت الجزيرة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر مركز القرصنة البربرية، واتخذها عروج في أوائل القرن التالي، قاعدة لأعماله في البحر الأبيض المتوسط. وهي، تعتبر، إلى جانب جبل نفوسة، ووادي ميزاب من القواعد الكبرى في المغرب للمذهب الاباضي.

راجع عن جغرافية الجزيرة وتاريخها: البكري الذي قال عنها انها كثيرة الذهب (ص 85)؛ الادريسي (127-128)؛ كتاب الجغرافيا لابن سعيد (ص 145)؛ الحسن بن محمد الوزان (ط. شيفرز 176/2)؛ رحلة التجاني (ص 121-129)، وكذلك محمد أبوراس بن أحمد الناصر: ومن المصادر الأوروبية:

— Kayser, Description et Histoire de Djerba, Tunis, 1884;

— Guérin (V); Voyage archéologique dans la Régence de Tunis, 1860;

— Mas Latrie, Traités de Paix et de Commerce, p. 158;

= — Brulat (A), Monographie de l'île de Djerba, 1885;

فَسار إليهم أبو منصور ومن معه من نفوسه. فلما قرب أبو منصور من جربة، أرسل رجلاً من بني يهراسن إلى الزواغي الذي مع ولد ابن خلف (و) أرسل معه مائة دينار صرفاً، فدخل الرجل جربة.

فلما وصل إلى الزواغي وهو معقل من بني مراية، سلم عليه، فصار يصافحه ويصب الدراهم من كمه إلى الزواغي. فلما أحس الزواغي بالدراهم، جعل يسأله عن أحوال الشيخ ويقول له، لو أتيت إلى أولادنا لدفعناهم إليك!.

وكان أبو المنصور في مسيرته إذا حل وقت الصلاة نقر في طبله ويقف أول العسكر لآخره ويصلي بهم ركعتين فيرتحلون. وقدمها على (ثلاثة أميال) أو ما يقرب من ذلك.

ثم ان الرجل الزواغي توجه إلى ولد بن خلف، فقال له: انزل أيها الأمير، فقد طالما أرملت نساء زواغة على يدك.

فقال له ولد بن يخلف، ليتكم لم تسموني أميراً يا مشؤومات بالبربرية، فأنثهم، لأنه رجل عربي لم يحسن البربرية، فدفعوه لأبي منصور، فسار به، ولم يكن يومئذ في جربة حركة ولا قتال، فمضى به أبو منصور إلى الجبل فسجنه به، وكان في سجنه إلى أن نزلت عليهم مسألة قطع الرجل، فاختلفوا فيها، فتوجهوا نحوه. فسألوه عنها: من أين تقطع؟ فأفتاهم أنها تقطع دون العاقب.

فعند ذلك قال سجنوني ويسألوني. فذكر بعض أصحابنا أنه رجع هذا الفتى إلى مذهب أهل الحق وحسنت أحواله، والله أعلم.

=

— Laffitte et Servonnet, Le Golfe de Gabès, 1881, Tunis, 1888;

— Bossoutrot, Documents pour servir a l'Histoire de Djerba, Revue Tunisienne, 1903;

— Gendre, L'île de Djerba, Revue Tunisienne, 1907 et 1908.

وقعة مانوا
وانقراض الإمامة[1]

حدث غير واحد من أصحابنا أن نفوسة بلغت في التأييد لسلطان

(1) جرت موقعة «مانوا» بين ابراهيم بن أحمد بن الأغلب وبين أهل جبل نفوسة وكان ذلك في سنة 283 هـ. وقد دخل الخوارج هذه المعركة بعد كثير من التردد، حيث أن أميرهم، أفلح بن العباس أبى لهم ذلك، كما أبى لهم عامل قنطرارة سعيد بن يونس، وهذا ما يفسر جزئياً هذه الكارثة التي حطمت سلطان الخوارج في المغرب إلى الأبد، وبهذا النصر حقق المعتضد بالله العباسي (ومانو وقعت في عهده وليس في عهد المتوكل كما ذهب أبو زكرياء والدرجيني، لأن المتوكل توفي في سنة 247 هـ) واحداً من أهدافه الكبيرة في القضاء على مواطن الشغب والثائرين في المملكة الإسلامية، ويقول الشماخي نقلاً عن ابن الرقيق ان ابراهيم بن أحمد خرج يريد محاربة ابن طيلون (كذا في السير، ولكن الدرجيني يقول انه كان يتجه إلى تيهرت ــ وهي الرواية التي أعتمدها سليمان الباروني)، بعدما حشد الجيوش وسار من تونس لعشر خلون من المحرم، فأقام برقادة إلى سبع بقين من صفر، ثم خرج بقواته واعترضته نفوسة في النصف الأول من ربيع الأول «فكان بينهم قتال عظيم، فقتل من جنده جماعة من الرؤساء، ثم انهزم أهل نفوسة، فتبعهم وقتلهم قتلاً ذريعاً، وتطارح منهم بشر كثير وقتلهم حتى غلبت حمرة الدم على ماء البحر». وقد قتل في هذه المعركة، طبقاً لرواية المؤرخين الاباضيين إثنا عشر ألفاً، منهم 400 من العلماء، وحمل ابراهيم معه ثمانين عالماً أسرى. وبعد هذه المعركة سار ابراهيم إلى طرابلس، ثم كر على الاباضيين في أطراف جبل نفوسة في سنة 284 هـ، فقتل من وجده فيها.

قارن رواية أبي زكرياء عن «مانو» بروايات الدرجيني في الطبقات (87/2 وما يليها)؛ وسير الشماخي (ص 268 وما يليها)؛ الأزهار الرياضية (285/2-287)؛ العبر (203/4).

الرستميين بأرض تاهرت مبلغاً عظيًا، لم يبلغه غيرهم في مغربنا هذا، فلذلك قال الإمام: إنما قام هذا الدين بسيوف نفوسة وأموال مزاتة.

واتصلت أخبار نفوسة إلى من كان بالمشرق من أئمة المسودة يدس إليهم بالكتب من كان بالقيروان ومدينة طرابلس ويخبرهم أن قيام دولة الفرس بتاهرت تضر بهم. وكان ذلك على عهد المتوكل ببغداد من بني العباس.

فلما تواردت[2] الكتب والأخبار إليه، أنفذ إلى المغرب عسكراً وجعل عليه إبراهيم بن أحمد من بني الأغلب[3] فسار إبراهيم نحو المغرب بعسكره.

فلما قرب من طرابلس، سمع بخبر نفوسة الجبل، فاجتمعوا، فاتفق رأيهم ألا يتركوه وما يريد إلى الجواز إلى تاهرت، دون أن يناصبوه.

قال فاتصل ذلك به من قولهم وعزمهم على منعه دون الوصول إلى تاهرت فوجه إليهم: أن اتركوا لي ساحل البحر مقدار نشر عمامة لأجوز فيه، أنا ومن معي فأبوا له ذلك.

قال، فلما رأى إبراهيم أن ليس (له) إلاّ الرجوع إلى المشرق أو مناصبتهم، تهيأ للقائهم، وعزم على محاربتهم، فقال لأصحابه، خذوا

---

(2) في الأصل: تداركت.

(3) هو ابراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب (237-289 هـ)، كان والياً على القيروان لأخيه أبي الغرانيق، فلما توفي أخوه ولي مكانه في سنة 261 هـ، وقد قمع عدة ثورات أخرى، عدا ثورة الاباضية، كما افتتح عدداً من حصون الأفرنج وغزا صقلية، ولكنه في أواخر أيامه اختل عقله وقتل عدداً كبيراً من أفراد عائلته، ومنهم اثنان من أبنائه. وقد دامت ولايته 28 سنة ونصف.

راجع أخباره في البيان (116/1)؛ العبر (203/4)؛ أعمال الاعلام (ص 3).

عدتكم وشمروا أنفسكم، وجوزوا على الساحل، ولا تتعرضوا لهؤلاء القوم، فان هم تركونا وطريقنا، وإلّا ناصبناهم.

فوصل ذلك إلى نفوسة، فقال بعضهم لبعض: دعوا هذا الرجل ولا تتعرضوا له بشيء، فأبى جمهور المسلمين ذلك وكان سعيد بن أبي يونس، ـ رضي الله عنه ـ، فيمن قال لهم، لا تتعرضوا له.

فقال له بعضهم اشتقت إلى (المحافظة) على قنطرارة ولم ترد الموت.

فقال لهم، يا قوم، ليس بي ما تذكرون وما تقولون، ولكنني خفت أن تذبح البقرة فيتبعها عجلها، يعني بالبقرة، الجبل وبالعجل، قنطرارة.

ثم انهم خرجوا فتوجهوا نحو الفاسق فقاتلوه بالموضع المعروف بمانوا، وهو قصر من قصور الأولين على ساحل البحر، فاقتتلوا فيه قتالاً شديداً، فلم يذكر أنه رأى مثله في ذلك العصر بأرض المغرب، فطلب رجل من عسكر المسودة المبارزة إلى عسكر المسلمين، فلم يبارزه أحد إلّا قتله. فأراد الخروج إليه أفلح بن العباس، فأبى له أصحابه ذلك، وكان إذ ذلك هو واليهم العام عليهم، فأبى إلّا الخروج إليه فخرج إليه فبارزه فقتله أفلح فاشتد القتال بينهم وأسرع القتل في الفريقين، فكثر القتلى والجرحى في نفوسة حتى هموا بالانهزام، فتهدم الرجال في الصفين كالحيطان.

فلما رأى ذلك واليهم أفلح بن العباس، أمر صاحب البند أن يحفر له في الأرض ويوقفه كي لا ينهزم على البند أحد، فأبى له صاحب البند ذلك. ثم اقتتلوا ملياً فرجع إليه، فقال: «احفر للبند»، فأبى عليه، ثم أبى له إلّا الحفر. فقال له صاحب البند: «مسكته عند جدك، فلم يقل ذلك، ومسكته عند أبيك، ولم يقل لي ذلك. (ان) حفرت له، حفر الله لك».

فحفر للبند ووقفه، فولى أفلح مدبراً وتركهم يلوذون بالبند، ولم يستجيزوا أن ينهزموا والبند واقف حتى قتل منهم بشر كثير.

وقد كان أفلح، فيما بلغنا، كره خروجهم إلى الفاسق وقتالهم إياه، فلذلك فعل بهم ما فعل.

ثم ان رجلاً من ذوي البصائر في الدين، نظر إلى البند واقفاً والناس يصرعون حوله، فقال ان أمرك قد انتهك بالله وقصد نحو البند فضربه بسيفه فوقع.

فلما رأى من بقي من المسلمين أن البند قد وقع، انهزموا وولوا مدبرين، فأفلت من أفلت منهم.

وبلغنا عن ثقاة أهل دعوتنا من أهل الجبل أن عدد قتلاهم اثنا عشر ألفاً. أربعة آلاف من نفوسة، وثمانية (آلاف) ممن كان معهم من البربر وغيرهم، وفيهم أربعمائة عالم فقيه، فيما ذكروا.

وبلغنا أن عمروس بن فتح كان في آخر المعركة يحمي الناس ويذود عنهم، ولم يقدروا عليه، وكان على فرس سابق. فلما أعجزهم وأتعبهم، عمدوا إلى حبال فنصبوها له واضطروه إليها، فعثر به الفرس، فأخذوه أسيراً، ومضوا به إلى الفاسق، فسألوه أن يستعفيه ليعفيه، فقال لهم كلمة لا تسمعها مني، ولكن أسألك في سراويلي هذا، لا تكشفوني منه، فأخذوا يقطعونه بالحديد من أنامله، فلما وصلوا إلى عضده، استشهد، رحمه الله..

وقد كانت بعض نسوة نفوسة حين خرجوا، خرجن معهم، فأخذن، فكانت فيهم أخت عمروس بن فتح فتخوفت عليهن الفتنة من قبل الظلمة والفجرة، فأمرت أن تستخلف كل واحدة منهن عن نفسها من يزوجها لمن أرادها بسوء، وكانت عالمة فقيهة.

ثم ان بقية نفوسة رجعوا إلى الجبل وتحصنوا فيه واشتوروا في عزل أفلح بن العباس وتولية ابن عم له، فاتفق رأيهم كلهم على عزله إلّا ما كان من أبي معروف وغيره، فإنه أبى لهم من عزله، خشية الاختلاف، ولم يبق من علمائهم وفقهائهم إلّا أبو القاسم البغطوري[4] وعبد الله بن الخير[5] وهما اللذان يفتيان لأهل الجبل في نوازلهم من تلك الوقعة، ولولاهما لعطلت (الفتوى) إلى يوم القيامة.

ثم إن نفوسة عزلوا أفلح بن العباس وولوا مكانه ابن عمه. فلما علم بذلك أفلح، وقد كان معه رجل ممن يحاميه، غضب وتحامى وقام بريده، فقال أفلح: إحمني، فقال له الرجل، لا أقدر أن أحميك[6] فقال له، إحمل لي ولو حلي. فلما سمع بذلك أبو معروف[7] وتخوف الفتنة، توجه إليه،

---

(4) ترجم له الشماخي باسم أبي القاسم سدرات بن الحسين البغطوري النفوسي ووصفه بأنه «بقية الحافظين واعتماد أهل الدنيا والدين، بل كان من الراسخين. أخذ العلم من منبعه... وأحياه بعد انطماسه. تعلّم عند أبان بويغو». السير (ص 235). وأما الدرجيني الذي ينقل رواية أبي زكرياء عن هذه الأحداث فيصف أبا القاسم بقوله انه «لم يبق بعدهم (الذين قتلوا أو أسروا في مانو) عالم يفتي في النوازل غير أبو القاسم البغطوري، وعبد الله بن الخير»؛ الطبقات (89/1)؛ راجع كذلك تسمية شيوخ نفوسة (ص 21، تعليق 55، ص 68).

(5) ترجم له الشماخي وقال، نقلاً عن أبي الربيع ان عبد الله بن الخير «عالم كبير يضرب به المثل» ويقال: «من ضيع كتاباً كمن ضيّع خمسة عشر عالماً مثل عبد الله بن الخير». وعبد الله بن الخير نفوسي من قرية تؤنزيرف عمر ما يقرب من 103 سنوات.
راجع: السير (ص 236-237) تسمية شيوخ جبل نفوسة (ص 21، تعليق 6، ص 31).

(6) في الأصل: احملني، فقال له الرجل، لا أقدر أن أحملك.

(7) راجع أخباراً له في طبقات الدرجيني (90/1 و157)؛ وفي سير الشماخي (ص 263-265)؛ وفي تسمية شيوخ نفوسة (ص 121، تعليق 20) أن اسمه: أبو معروف ماطوس، وماطوس، مدينة تقع في الطرف الغربي من جبل نفوسة.

فوجده في حالته تلك، فنهاه عن الفرقة والاختلاف وأمره بالصبر، فسمع منه أفلح وقبل قوله واطمأن إليه حين قال لنفوسة لا تعزلوه، وترك أفلح الاختلاف ومكث ابن عم أفلح حوالي ثلاثة أشهر، فلم يحسن شيئاً فتركوه ورجع الناس إلى أفلح.

وحدث غير واحد من أصحابنا أن الصفين لما افترقوا بمانوا وجنهم الليل، جاء رجل من عسكر الفاسق إبراهيم بن أحمد، إلى أخ له مات في المعركة ليحمله ويدفنه.

فلما وصل إلى الصفين ورفع أخاه على دابته، نظر إلى شخص كهيئة صورة سلوق يطوف في قتلى المسلمين، فسمعه يقول: «كبروا يا أهل الجنة، كبروا». فكبر قتلى المسلمين بأجمعهم. ثم جاز على قتلى المسودة، فسمعه يقول: «انجوا يا كلاب النار». فنجوا بأسرهم حتى نبح أخوه بين يديه على سرج الدابة، فألقى به إلى الأرض وهرب وتركه ومضى لسبيله.

ولما فرغ الفاسق من قتال نفوسة ومن كان معها، ذكر له أن قنطرارة كانت بها بقية أهل دعوتهم، فعمد نحوهم حتى أتاهم بغتة، فنزل عليهم عند طلوع الفجر، فقتلهم واختار من فقهائهم وعلمائهم ثمانين عالماً، فشد وثاقهم.

وبلغنا أنه لما فرغ من أهل قنطرارة سأل عن بقية أهل الدعوة، فقالوا له ان بنفزاوة رجلاً عالماً فقيهاً من علمائهم وفقهائهم يقال له أبو بكر بن يوسف النفوسي فوجه إليه، فأخذته الرسل بتيز زاج[8].

فلما أخذته رسل الفاسق. طلبهم الشيخ أن يدعوه حتى يصلي ركعتين. فلما صلاهما، أخذ بالدعاء إلى الله، فبعث الله عليهم ريحاً عاصفاً

---

(8) كذا في الأصل: تيزى زاج؟؟

مظلمًا، فحال بينهم وبين الشيخ، فأخذ ابنه يوسف، وكان الشيخ إذ ذاك قد كف بصره ومضى إلى تناوته[9].

ثم ان الفاسق عدو الله، توجه بثمانين عالماً يريد مدينة القيروان فشد وثاقهم. وقد كان فيهم رجل عالم يقال له ابن يثيب[10] وكان مقطوع العرقوب، فلما جن عليهم الليل استأذن أصحابه في الهروب، ولم يرد الهروب حتى يأذنوا له، فأذنوا له، فحل رجله من الوثاق، فهرب. وقد كان حين أرادوا أن يشدوه أخرج لهم الرجل المقطوعة العرقوب، فأعطاها لهم، فشدوها.

فلما هرب ابن يثيب، أمر إبراهيم بن أحمد بأصحابه كلهم فقتلوا عن آخرهم.

فتوجه إلى مدينة القيروان، فدخلها وتحصن فيها. وهو الذي بنى لأهل المغرب المحارس على ساحل البحر، من سبتة إلى الإسكندرية.

وكان سبب ذلك أن أهل الإسكندرية كانوا ينظرون من المنارة التي عملها ذو القرنين لهم في زمانه، فيرون قلاع الروم في البحر أينما كانت ويحذرون من كان بحواليهم.

فلما بنى إبراهيم ابن الأغلب هذه القصور التي على الساحل، أمر أهل الإسكندرية، إذا نظروا في مرآة المنارة ورأوا قلاع العدو إن ينيروا فيبصر نارهم من كان قريباً منهم من القصور، فينيروا هم أيضاً. فكل من رأى من أهل القصور نار القصر الذي يليه فينيروا هم أيضاً، فتتصل نيرانهم حتى تبلغ في ليلة واحدة إلى سبتة، فيحذر الموحدون الروم. فكانت

(9) ورد في الترجمة بالنص العربي: ماوته.

(10) كذا في الأصل، أوردها المترجم بالشكل الفرنسي: (Jetsoub).

الروم بعد ذلك دهراً طويلاً لا يظفرون بالموحدين في شيء، من سواحلهم، ورجع الموحدون يغزونهم إلى أرضهم واغتم لذلك ملك الروم، فجمع أهل مملكته فاستشارهم في الحيلة، فوثب رجل يهودي، فيما بلغنا، فقال، أيها الملك، إن أنت أذنت لي (بالدخول) إلى بيت الأموال، آخذ منها حاجتي، أكفيك المؤونة إن شاء الله.

فقال له الملك: شأنك وما تريد. قال، فعمد اليهودي إلى بيت المال، فأخذ منها أموالاً عظيمة من الجوهر والدرر واليواقيت والذهب المضروب على سكة الأولين. فوفر من ذلك أحمالاً، فقصد إلى أرض الإسكندرية، فصار يحفر في كل جبل من جبالها ويدفن (الأموال) في الأودية وعند المدينة، ثم أظهر على نفسه مرتبة وزينة وزياً حسناً، فأظهر أنه عالم بإخراج كنوز الأولين، ثم اتصل خبره بالسلطان بمصر، فبعث إليه، فصار يخرج له الدفائن التي دفنها هو بنفسه، فلما نظروا إلى أموال جسيمة وكنوز عظيمة، اطمأنت نفوسهم إلى جهته وأعجبهم ما رأوا من ذلك.

فلما أحس اليهودي منهم (الثقة)، قال للسلطان، ها هنا كنز أعظم من جميع الكنوز، في المنارة، تحت المرآة. فإن أذن لي السلطان في نزع المرآة التي في المنارة ونزعناها وأخرجنا ما تحتها، وصقلناها، فإنها قد تصدت ورددناها.

فأذن له السلطان في ذلك، رغبة في المال. فلما نزع المرآة أمر بعض القوم بالهدم تحتها وبعضاً بصقالة المرآة، انسل اليهودي فلم يروا له أثراً، فعالجوا المرأة لردها على بنيانها الأول، فلم يتجه لهم ذلك[11].

(11) يشوب روايات الجغرافيين والمؤرخين العرب عن منارة الاسكندرية وخصوصاً، مرآتها، كثير من التهويل والتضخيم كما تحيط بها قصص هي أقرب إلى الأساطير منها إلى التاريخ، والخلاف قائم أولاً حول من بناها وحول مادة البناء التي يقوم عليها أساسها ثم حول طول المنارة، ولكن الخلاف الخطير الشأن بين المؤرخين هو الذي=

= يتعلق بمرآة المنارة العجيبة. فمن قائل ان أساس المنارة من الزجاج (ياقوت) ومن قائل انه من الحجر المنحوت أو الحجر المضموم بالرصاص الخ. . وهناك من يقول (وهم الأكثرية) بأن الاسكندر ذا القرنين هو باني المنارة، وآخرون يذكرون أن الذي بناها هو فرعون، بل ان ابن عبد الحكم يعزو بناء المنارة إلى دلولة بنت زباء، بعد فرعون. والادريسي يقول ان ارتفاع المنارة يبلغ 100 قامة (القامة = أربعة أذرع) ولكن ابن سعيد يذكر أن طول المنارة في زمنه 84 قامة، في الوقت الذي يعزو لها ابن جبير 50 قامة فقط.

وفيما يتعلق بالمرآة، أو بعبارة أدق بتدمير هذه المرآة التي يقال «ان الرائي يرى فيها المراكب إذا خرجت من أفرنجة أو من القسطنطينية» فإن ياقوت يخبرنا أن ملكاً من الروم اسمه سليمان، ظهر البرص في جسمه وسار إلى الاسكندرية للاستشفاء في حمة تقع فيها ورافقه إليها أسطول كبير، وبعد ما تم له الشفاء، استغل قوته فغور الحمة. . . ثم اقتلع مرآة المنارة!

«والرواية التي تقترب من رواية أبي زكرياء هي رواية زكرياء بن محمد القزويني (القرن السابع الهجري) الذي يقول ان المنارة ظلت باقية حتى عهد عبد الملك بن مروان (ت. سنة 86 هـ). فأنفذ ملك الروم شخصاً من خواصه ذا دهاء فجاء إلى بعض الثغور وأظهر أنه هارب من ملك الروم ورغب في الإسلام، وأسلم على يد الوليد بن عبد الملك، واستخرج له دفائن الكنوز من أرض الشام. فلما صارت تلك الأموال إلى الوليد، شرهت نفسه، فقال له: يا أمير المؤمنين، إن ههنا أموالاً ودفائن للملوك الماضية، فسأله الوليد عن مكانه، فقال: تحت منارة الاسكندرية. فإن الاسكندر احتوى على أموال شداد بن عاد وملوك مصر والشام وتركها في آراج وبنى عليها المنارة. فبعث الوليد معه قوماً لاستخراجها، فنقضوا نصف المنارة وأزيلت المرآة. ولما رأى العلج أن المرآة بطلت هرب بالليل في مركب نحو الروم.

وكذلك نرى أنه، إذا استثنينا بعض التفاصيل الثانوية، فرواية أبي زكرياء تتفق مع رواية القزويني بشأن الطريقة التي اختفت بها مرآة منارة الاسكندرية، ولكن المشكلة، هي أنه في الوقت الذي يقول فيه القزويني إن العلج قام بفعلته الشنيعة في عهد الوليد بن عبد الملك (ت. سنة 96 هـ). يذكر أبو زكرياء أن اليهودي نفذ خدعته بعد عهد الموحدين. . .

ولكن الطريف هو أن الرحالة والجغرافي ابن حوقل الذي هو معاصر لأبي زكرياء، ينكر حتى مجرد وجود مرآة المنارة! ويقول إن الأمر لا يعدو قبة على رأس المنارة وقعت لقدمها «لا كما يدعي المحاليون في حماقات ورقاعات مصنفة أنها بنيت =

= لمرآة كانت فيها، يرى الرائي (منها) سائر ما يدخل بحر الروم». والجدير بالتسجيل أن ابن عبد الحكم (وهو أقدمهم جميعاً) لم يشر لدى ذكره لبناء المنارة إلى هذه المرآة.

راجع عن المنارة ومرآتها تعليقنا على كتاب الجغرافيا لابن سعيد المغربي (النص: ص 148، تعليق 159، ص 247)؛ فتوح مصر (ص 40-41)؛ ابن حوقل (ص 142)؛ معجم البلدان (1/186-188)؛ الادريسي (ص 136 وما يليها)؛ القزويني (ص 144-147)؛ رحلة ابن بطوطة (1/29-30).

أخبار عُبيد الله
ووقوعه بأرض المغرب

وعقبه من بعده: القاسم، وابنه اسماعيل وابنه معد، ومسير معد[1] إلى مصر، ومسير الشيخ أبي حزر وأخبار من قام عليه من الاباضية.

حدّث غير واحد من أصحابنا أن عبيد الله أقبل من المشرق، وهو ينتمي إلى علي بن أبي طالب (ض) وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان عنده في العلم أنه سيلي الملك بمدينة يقال لها توزر، وأنه منها تقوم دولته. فأقبل من المشرق، فلما وصل إلى توزر وحسب أنها هي التي تقوم منها دولته[2] فنظر إلى رجالها، فليس يرى عليهم زينة الملك ولا هيئة

---

(1) في الأصل: معاذ، وهو الرسم المحرف الذي أعتمده المترجم.

(2) ولد عبيد الله بن محمد الحبيب بن جعفر المصدق مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب، في سنة 259 هـ. وكان أبوه قد وجه أبا عبد الله إلى المغرب حيث استقبلته كتامة ونصرته في الدعوة لظهور «المهدي»، حتى تمكنت دعايته واستفحل أمره، فلحق به عبيد الله عن طريق الزاب وسجلماسة وبويع في القيروان في سنة 297 هـ، ونزل «رقادة». وبعدما طوح بدولة الرستميين، توغلت جيوشه في المغرب الأقصى ثم حاول الاستيلاء على مصر ولكنه فشل، وعبيد الله الذي طعن في نسبه عدد من المؤرخين ونسب إلى عبد الله بن ميمون القداح، هو باني «المهدية» ومؤسس الأسرة التي ستحكم إلى جانب المغرب، مصر وسورية أيضاً. توفي عبيد الله سنة 322 هـ، بعدما حكم 24 هـ.

راجع: سيرته في رسالة افتتاح الدعوة للقاضي النعمان بن محمد، تحقيق وداد القاضي (الفهرست)؛ العبر (11/4 و30/4-40)؛ تاريخ الخميس (385/2)؛ وفيات الأعيان (116/3-119)؛ الكامل (90/8)؛ البيان (الفهرست) حسن ابراهيم وطه شرف، عبيد الله المهدي، إمام الشيعة والإسماعيلية.

السلطنة، وإنما كانوا مشيطرين[3] وأصحاب الحوانيت، وكانت معه دابة نفيسة ركبها من مصر، فنزعها له رجل من بني جلتمين[4] وهم من بني واسين، فكتب عبيد الله اسم الرجل وقبيلته واسم بلده.

فلما نظر عبيد الله إلى أهل توزر على الصفة التي ذكرنا، ازدراهم ونقصهم وبقي متحيراً في أمره، طالعاً ونازلاً، لا يدري ما يفعل. فقعد ذات يوم في سوق توزر، فسمع رجلاً ينادي ويقول: من يشتري قمح تاصورت، فأتاه فسأله: هل في المغرب مدينة تسمى تاصورت غير هذه؟

فأعلمه الرجل أن في كتامة قلعة تسمى تاصورت، فوجدها على الصفة التي توافق علمه، فوجه إليهم عبده الحجاني، فدعاهم إلى التشيع، وقبلوا دعوته.

وحدثني من دخل بلد كتامة أن بقية الشيعة فيهم إلى يومنا هذا، بقلعة من قلاعهم تسمى حلافة.

فلما قبلت كتامة دعوته، خلف فيهم مولى له يكنى أبا محمد ويسمى الحجاني[5] يقرئهم القرآن ويشرح لهم مذهب التشيع.

قال: فخرج عبيد الله متوجهاً إلى سلجماسة، فجاز بطريقه إلى أورجلان، فلما رآه سفهاؤهم هزؤوا منه. وقالوا: هذا الذي جاء من المشرق يطلب الملك؟ فرموا في وجهه وضربوا له القرون، وكان أشد الناس عليه في ذلك، أهل قصر بكر، فلذلك حرق المسجد الكبير في رجوعه. وسنذكر كيف كان ذلك، إذا صرنا إلى موضعه، إن شاء الله.

---

(3) كذا في الأصل. وقد أهمل المترجم الكلمة. وهي كلمة محرفة عن «الشاطرين» أي دهاة حاذقين.

(4) كذا في الأصل. وقد أوردها المترجم برسم (Beni Djelthin).

(5) يقصد أبا عبد الله الداعي، ونحن لم نعثر له على هذه التسمية في مصدر آخر.

ثم إن عبيد الله سأل عن شيخ أهل ورجلان، فقيل له غيار. فقال: أين منزله؟ فقالوا: تاغيارت. فقال: شيخهم غيار وبلدهم تاغيارت. غير الله ما بهم!

قال فخرج من ورجلان إلى سجلماسة[6] وأقام بهامدة طويلة، فانتشر خبره في الناس (و) أنه هرب من المشرق بأموال عظيمة، فهاله ذلك وأفزعه.

وكان الوالي على سجلماسة يقال له اليسع بن مدرار، فركن إليه عبيد الله، فأعطى له بعض ما عنده ليرد عنه الناس. فمكث عبيد الله في سجلماسة زماناً طويلاً، وسكن في عالية دار وسكن رجل من وجوه سجلماسة في سفلاها.

فبات الرجل صاحب الدار الساكن في سفلى الدار ذات ليلة إذ رأى، فيما يرى النائم ثعباناً عظيمًا مضطجعاً، في الدار، فانتبه مرعوباً فزعاً، فمكث باقي ليلته متململاً.

فلما أصبح عليه طلع إلى عبيد الله، وهو في عليا الدار، وقد كان رآه قبل ذلك يقرأ كتاباً وينظر فيه، فقص عليه الرؤيا، ولم يخبره بمن رآه.

قال عبيد الله، إن كانت الرؤيا صادقة، فالثعبان العظيم يملك المشرق والمغرب.

---

(6) فيما يتعلق بتحديد موقع سجلماسة التي أنشئت سنة 140 هـ، والتعرّف عليها في القرن الماضي في مدينة تافيلالت الحالية.

راجع: تعليقنا رقم 124 على كتاب الجغرافيا لابن سعيد (ص 242)، والمراجع المحال إليها. وكذلك يمكن الاطلاع على مجمل وصف الجغرافيين العرب، في مختلف العصور لعاصمة بني مدرار في كتابنا «المدن المغربية في الأدب الجغرافي العربي». وفيه قائمة وافية بالمراجع العربية والأجنبية.

فلما سمع الرجل ذلك من قوله، طأطأ على يده فقبلها، وقال: العفو، يا مولاي.

فقال له عبيد الله: مماذا تستفتني؟ فقال: أنا صاحب الرؤ يا. وقد رأيت في منامي ثعباناً عظيمًا وليس معي في الدار أحد غيره، فأنت ذاك. فزاده ذلك حرصاً في حاجته، فمكث بسجلماسة حتى عرف بالعلم والفقه والقراءة، وصار الناس يختلفون إليه ويسألونه عن حوائجهم، فكانـوا يجدون عنده فوق ما يريدون، حتى أدناه والي المدينة إلى نفسه وآثره على جميع أصحابه وجعله وزيراً في جميع أموره.

قال: وكانت حالته كذلك. فربما يزحف عسكره إلى سجلماسة فيأمرهم بالخروج، فيظفرون، وينهاهم عن الخروج، فلا يندمون. وإن عصوه في هذا كله، كان وبال ذلك عليهم. فزحف إليهم عسكر عظيم، فأمرهم بالخروج على كثرة العسكر، في قلة معلومة، فخرجوا وظفروا، فتيمنوا به في جميع أحوالهم.

فلم يلبث أن توفي اليسع بن مدرار[7] فابتدر أهل المدينة عبيد الله ليولوه على أنفسهم، فامتنع وأبى وتخوّف منهم أن يقتلوه، (فـ) قال: أنا رجل غريب، انظروا من تولونه غيري. فأبوا إلا توليته، فولي عليهم. فولي في سجلماسة وما حولها من البربر، فصار يأخذ القرى والمدائن التي بحواليها إلى أن أخذ مدينة فاس.

قال: فلما تمكن في البلد وتملك على الجند، بعث إلى مولاه الحجاني، وهو بكتامة أن يجمع له من أطاعه ويسمع دعوته من الناس ومن كان على مذهبه (ويسير) إلى سجلماسة.

---

(7) راجع عن اليسع وغيره من أمراء بني مدرار الصفريين، البكري (ص 148-151)؛ الادريسي (ص 159-161)؛ وابن عذاري البيان (156/1)؛ والسلاوي (الفهرست)؛ والقاضي النعمان في رسالة افتتاح الدعوة (الفهرست) وخصوصاً، (ص 237-240).

خروج الحجاني[1]، لعنه الله
من كتامة

حدّث بعضهم أن الحجاني لما وصلته رسل سيده بالكتب متواترة أن يخرج إليه بمن أطاعه من الناس وقد (تمكّن) الحجاني من نفس كتامة وعظمت درجته عندهم، وكان ذا علم عظيم بحساب النجوم، وكانت حاله عندهم مرضية، لا يأمرهم بشيء إلا فعلوه.

وبلغنا أنه تعلّم عنده من فتيان كتامة نحو من أربعمائة غلام.

---

(1) يقصد أبا عبد الله (الحسين بن أحمد) الشيعي الملقب بالمعلم ناشر دعوة العبيديين في المغرب. أصله من صنعاء وأرسله عبيد الله إلى المغرب لجمع الأنصار لقضيته، وقد أحاط دعوته بكثير من الأسرار والغموض، بحيث أنه حمل كتامة على مبايعة سيده «المهدي» (سنة 286 هـ)، دون أن يسميه لهم. وبعد وقت من التعليم والتدريب الايديولوجي دخل أبوعبد الله في مرحلة النضال العسكري واتخذ من قلعة ايقجان حصناً له، قبل أن يزحف على ميلة ثم على القيروان ليطرد منها زيادة الله الأغلبي، وبذلك مهد العرش لعبيد الله، وقد كان نفوذ أبي عبد الله وأخيه أبي العباس عارماً بين كتامة وغيرها من قبائل البربر، مما خشي معه عبيد الله على مستقبل ملكه، فأمر بقتلهما، وقتلا في رقادة في سنة 298 هـ.

راجع: رسالة افتتاح الدعوة (الفهرست)؛ البيان (164/1)؛ وفيات الأعيان (193-192/2)؛ الاستقصا (الفهرست)؛ الكامل (8/10-17)؛ العبر (362/3 و31/4 و37).

قال: فمكث في ذلك إلى أن قال لهم يوماً من الأيام، لعامة من علمه من فتيانهم: «ليس مرادي التعليم، وإنما مرادي الملك».

قال: فأجابوه لذلك واتبعوه على قوله. فلما تمكّن أمر بالخروج إلى سجلماسة، وأظهر لهم من نفسه أنه وجد في العلم أنه سيلي أرض سجلماسة، وأنه سيغلب الأمير الذي كان عليها، فخرج متوجهاً يريد سجلماسة.

وحدّث بعض أصحابنا أن دوسر، بنت يوسف بن محمد بن أفلح بن عبد الوهاب ـ رضي الله عنهم ـ لما قتل أبوها وغدره بنو يقظان، خرجت متوجهة إلى الحجاني مع أخ لها.

فلما وصلت إليه أخبرته بقصة أبيها وما انتهك من حرمته، فلم يشتغل بها.

فلما رأته كذلك، وعدته من نفسها، إن هو أخذ بثأرها أن تزوجه من نفسها.

ثم إن الحجاني أخذ في طريقه إلى تاهرت، فلما كان بقرب منها، خرج إليه وجوه أهلها من المخالفين والشيعة والواصلية ومن بها من الصفرية وتلقوه، وشكوا إليه الإمارة ووعدوه العون من أنفسهم، على جميع الرستميين، وأمروه باستئصال شافتهم وتوهين شوكتهم، فأرسل الحجاني رسله إلى يقظان وبنيه: أن اخرجوا إلي.

فلما وصلت رسله إلى يقظان، خرج هو وبنوه، فتلقوه على مسيرة أميال من تاهرت.

فلما قدموا عليه، سأل الحجاني يقظان عن اسمه، فقال له: اسمي يقظان. فقال له الحجاني: «بل اسمك حيوان! فكيف قتلتم أميركم وسلبتم

لأنفسكم ملكه، فأطفيتم نور الإسلام وألقيتم إلينا بأيديكم بغير قتال ولا حصار». فأمر به وببنيه فقتلوا عن آخرهم.

فلما أيقنت دوسر بنت يوسف بقتلهم، تغيبت وهربت من الحجاني مخافة أن يتزوجها، وطلبها حتى عيي، فلم يقدر عليها.

ثم إن الحجاني دخل المدينة وانتهبها وانتهك حرمتها وأجلى كثيراً ممن فيها وجعل أعزة أهلها أذلة، وكذلك يفعلون.

وذكروا أنه وجد بها صومعة مملوءة كتباً، فاستخرجها كلها واقتنى منها كل ما يصلح للملك والحساب، وأضرم النار في بقيتها.

وذكر بعض أصحابنا أن يعقوب بن أفلح، لما سمع بإقبال الحجاني، خرج من تاهرت متوجهاً إلى ورجلان، وله حديث طويل، سأذكره في موضعه إن شاء الله، وأذكر ابنه سليمان، وكيف انتحل الفرية.

ثم إن الحجاني توجّه يريد مولاه عبيد الله، ومولاه خارج من سجلماسة بمن معه من عساكره، يريد عبده الحجاني، والرسل تختلف بينهما بالكتب.

فلما قرب التقاء العسكرين أرسل الحجاني إلى عبيد الله: إنا إذا التقينا بالغد، فاخرج إلي من صف العسكر وأخرج إليك. فإذا التقينا نزلت وقبّلت يديك. فاتفقا على ذلك.

فلما كان الغد تراءى العسكران وتدانا بعضهم من بعض، خرج الحجاني إلى عبيد الله من الصف، فنزل عن دابته وقبّل يديه وركبتيه، فتحامت لذلك كتامة. فقال لهم الحجاني: «انه مولاي وسلطاني وسلطانكم من ذرية علي بن أبي طالب وابن فاطمة، بنت رسول الله، صلى الله عليه وسلم».

فقالوا له: «لا نعرف لأنفسنا سلطاناً سواك»، فقال لهم: «هو سلطاني ومــولاي»، فسمعوا له وأطاعوه فالتأم العسكران لعبيد الله.

ثم إن عبيد الله انتخب من عسكره أولي القوة والعدة والسلاح الشائك، فجعل عليهم عاملاً وأنفذهم إلى ورجلان فتوجه بهم العامل. فلما وصل إلى ورجلان (2) وقد سمع أهل ورجلان بإقباله توجهوا (إلى) كريمة، وهي كدية عظيمة لا ترام، فطلعوها، فحفروا فيها مواجل للماء، فملؤوها. . . فلما وصل إليهم حاصرهم أشد الحصار.

وذكر أصحابنا أنه طوّق عليهم سبعة أطواق من خيل، فأراد الإقامة

---

(2) ورد ذكر ورجلان (وارقلة حالياً) في أعمال الجغرافيين العرب بأشكال متعـددة: واركلان، وارجلان، وارجلن، ورجلن، ورجـلان، وارقلان، ضبـطها يـاقوت: ورجلان، وقال عنها انها «كورة بين إفريقية وبلاد الجريد (كذا)، ضاربة في البر، كثيرة النخيل والخيرات». ورسم الادريسي الكلمة: وارقلان، وقال ان فيها «قبائل مياسير وتجار أغنياء يتجولون في بلاد السودان إلى بلاد غانة، وبلاد ونقارة، فيخرجون منها التبر ويضربونه في بلادهم باسم بلدهم، وهم وهبية (انظر هذه الكلمة في هامش أعلاه)، اباضية نكار، خوارج في دين الإسلام». وجاء ذكرها في كتاب الدليل لأبي يعقوب يوسف الورجلاني. (500-507): ورجلان، وذكرها ابن خلدون مكتوبة واركلا بالكاف آخرها لام وبدون نون، وشكلها بالحركات مكسورة الراء. وهذا التشكيل غفل عنه المرحوم ابن تاويت الطنجي الذي أوردها في التعريف بابن خلدون، وشكّلها واركلا. وورجلان (عرضها الشمالي 32° وطولها الشرقي 5^0-25′) تقع في جنوب مدينة تقرت في واحة وفيرة المياه والكلأ والنخيل. وهي الآن قاعدة ولاية في التقسيم الإداري الجديد في الجزائر.

راجع: معجم البلدان (371/5)؛ البكري (ص 77 و182)؛ العبر (في عدة أماكن)؛ التعريف بابن خلدون (ص 155)؛ الادريسي (ص 120)؛ رحلة العياشي (الفهرست)؛ طبقات الدرجيني (2/ الفهرست)؛ بغية الرواد (23/2 و32)؛ تاريخ الجزائر العام (الفهرست) مقالة الأستاذ عبد الرحمن الجيلالي (مجلة الاصالة ــ يناير 1977) عن كتاب الدليل والبرهان للورجلاني.

وكذلك: — Fanyan (E) Extraits inédits (171-162) G. Sell (st.), Atlas arch, de l'Algérie, F. 26.

عليهم حتى يموتوا عطشاً. فلما رأوا ذلك ارتابت نفوسهم، وفيهم رجل يهودي، فأمر بجمال فزمت أفواهها فعطشها ثم أخذها فوقفها على حرف كريمة، فجعل لهم في قصاع كبار زيتاً. فإذا نظرت الجمال إلى ما في القصاع، جعلت أفواهها في القصاع، فمن رآها من أسفل كريمة، حسب أنها تشرب. فإذا أعيتها أزمتها رفعت رؤسها فنفضت الزيت عن مناخرها. ومن بعد عنها حسب أنها تشرب.

وبلغنا أنهم أخذوا كساءة فرشوها بزيت فنشرت على حرف كريمة.

فلما رأوها، قالوا ان مع القوم ماء، ونحن محاصروهم ليموتوا عطشاً، فتنحوا عنهم، وقالوا: لا مطمع لنا فيهم، فارتحلوا عن أهل ورجلان، فحرقوا المسجد الكبير لجنون ابن يمريان[3]، ـ رحمه الله ـ فدخلوا ديارهم ففتشوها، فوجدوا في دار واحد منهم بيضة النعامة مملوءة شعيراً فحملوها. فلما وصلوا إلى رملة أزلفان، لحقهم رجل من أهل ورجلان، ممن أراد هلاكهم، فأدرك بقية أهل العسكر، فقال لهم: ما لكم تركتم أهل ورجلان وليس معهم ماء، وإنما جعلوا لكم الحيلة.

فنظر بعضهم إلى بعض فأخذوه وقتلوه قبل أن يفشي خبره في العسكر، فيرجع العامل إلى أهل ورجلان فيهلكهم.

وإنما صادف هذا الرجل المقتول في ساقة العسكر (من) سدارتة، فتحامت لإخوتها، ولذلك قتلوه.

ثم إن بعض العسكر جاز بتوزر، فقصد نحو القبيلة التي أخذت له الدابة فقتلهم وأنهبهم.

---

(3) قارن طبقات الدرجيني (344-341/2)؛ وسير الشماخي (ص 362).

فلما وصل العامل إلى القيروان، وقد تمكن بها عبيد الله، أخبرهم خبر أهل ورجلان فقال له: إنك رفقت بهم.

قال: فعمد العامل إلى رمح طويل فوكزه ونصب عليه رغيفاً، فقال له: أصلح الله مولانا، هل يقدر أحد أن ينتزع هذا الرغيف عن هذا الرمح على هذا الحال؟ فكذلك أهل ورجلان، فأخرج له بيضة مملوءة شعيراً، فقال له: هذه مطاميرهم.

وذكر بعضهم أن عبيد الله لما صحت له ولاية القيروان، أرسل مولاه الحجاني إلى كتامة عاملاً له عليها، فتكاتف بها أمره، واشتد سلطانه.

فلما كبر عبيد الله وخاف من الحجاني على عقبه من بعده أن يفسد عليهم سلطانهم، أرسل إليه وقال له: أقدم علي بوجوه كتامة، فإني كبرت ورقّ عظمي، وأنا في آخر عمري، فأريد أن تقدم علي عاجلاً لأوصيك بوصايا.

فلما وصل كتاب عبيد الله إلى الحجاني، انتخب من وجوه كتامة عدداً كبيراً، فأقبل بهم إلى القيروان.

فلما أتى إلى القيروان وقد بنى بها عبيد الله قصراً كبيراً وجعل عليه غرفاً.

فلما وصل إليه الحجاني وأصحابه، أدخله وأصحابه في بعض غرف القصر، فأعطى لهم طعاماً وشراباً. فلما أخذت فيهم الخمر مأخذها، أضرم من تحتهم ناراً في سقف الغرف وأحفّ رجالاً عليهم السلاح. فلما أحسوا بالنيران، صاروا يتساقطون من القصر، فمن أفلت من النيران، قتله الرجال الذين حفّوا بالقصر، إلا ما كان من الحجاني. فلما أحسّ

بالنار، قفز قفزة صار بها خارج القصر، فأخذه الرجال. فقال لهم، مهلاً علي، لا تعجلوا بقتلي وامضوا بي إلى مولاي، فمضـوا به إلى عبيد الله.

فلما دخل عليه قال له الحجاني: «هذا جزائي عندك؟ أطعتـك وبلّغتك السلطنة والملك»، وذكر له أياديه عنده.

فقال له عبيد الله: «كل ما ذكرته قد كان، ولكني لم أؤثر عليك إلا نفسي».

فأمر به فذبح في طست، فأظهر عبيد الله التشريق في أرض المغرب حتى مات.

فلما مات ولي من بعده ابنه، أبو القاسم بن عبيد الله[4] فظلّ ينظر متى تكون له الدولة في أرض مصر. وفي أيامه وعصره، خرج أبو يزيد.

---

(4) هو محمد بن عبيد الله، أبوالقاسم، القائم بن المهدي العبيدي، الذي يسمى أيضاً نزاراً. ولد بسورية في سنة 278 هـ. ودخل المغرب مع أبيه. قام بحملتين على مصر وخاب في كل منهما وعاد إلى المغرب، بويع في سنة 322 هـ، بعد وفاة أبيه، وهو أول من تلقب بلقب أمير المؤمنين من الفاطميين، وقد مات محاصراً في المهدية سنة 334 هـ.

راجع: أخباره في رسالة افتتاح الدعوة للقاضي النعمان بن محمد (الفهرست)؛ النجوم الزاهرة (287/3)؛ وفيات الأعيان (27/2)؛ البيان (171/1 و208).

أبو يزيد
مخلد بن كيداد اليفراني[1]

حدّث غير واحد من أصحابنا أن أبا يزيد كان رجلاً من بني يفرن،

---

(1) هو أبو يزيد مخلد بن كيداد النكاري، صاحب الحمار، أصله من البربر، وكان يمارس الزهد والتقشف، نشأ في قسطيلية وخالط النكار وأصبح إماماً من أئمتهم، وقد كان في مبدأ الأمر معلمًا للصبيان، ثم أخذ على نفسه العمل لتغيير المنكر فكثر أتباعه، وعقب وفاة المهدي العبيدي في سنة 322 هـ، أعلن الثورة في جبل أوراس وتلقب بشيخ المؤمنين، ثم استولى على القيروان وحاصر القائم العبيدي في المهدية، على أن البربر أخذوا ينتقضون عليه لما كان يرتكبه من الأعمال الوحشية ولم يلبث انتصاره أن تحوّل إلى هزائم وانتهى الأمر بقبض المنصور عليه ومات متأثراً بجراحه في سنة 336 هـ. ورواية أبي زكرياء عن ثورة أبي يزيد هي أقدم الروايات وأدعاها إلى الثقة وأكثرها تفاصيل، إذا استثنينا رواية ابن الأثير، على أن الروايتين تكمل إحداهما الأخرى، والذي يستحق التنويه أيضاً هو أن رواية أبي زكرياء الذي لا يفصله عن هذه الأحداث سوى ما يقرب من قرن لم يستفد منها المتأخرون، مثل ابن خلدون وابن خلكان. ومن هنا، يمكن مقارنتها بفائدة بما كتبه المؤرخون الذين تعرضوا لأخبار ثورة أبي يزيد. وفي مقدمتهم صاحب البيان (193/1 و316 و319-320)؛ رسالة افتتاح الدعوة (ص 15-19)؛ وفيات الأعيان (234/1-235)؛ اتعاظ الحنفاء (ص 109)؛ الكامل (422/8-441)؛ النجوم الزاهرة (28/3)؛ العبر (40/4-44). انظر أيضاً: طبقات الدرجيني (119/1-123)؛ سير الشماخي (ص 346)؛ رياض النفوس (2/ الفهرست)؛ المؤنس (ص 57-62)؛ الحلة السيراء (390/2-391)؛ دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية 164/1)؛ مقالة الدكتور إحسان عباس (مجلة الأصالة ــ يناير 1977)، (ص 25-42)، صالح باحية، الاباضية بالجريد (الفهرست).

وكذلك: — Letourneau (R), la Revolte d'Abou Yazid au Xme siècle, Les Cahiers de Tunisie (1/1953).

وكان مسكنه بقلعة سدادة، وله حديث في مبدأ عزمه مع أبي الربيع سليمان بن زرقون[2] ورجوعه إلى مذهب النكار، بعد الوهبية، وسنذكر ذلك إن شاء الله في أحاديث ابن زرقون، فإنما قصدنا من هذا الموضع، خروجه عن القاسم بن عبيد الله، وإلى ما انتهت به المقادير.

وحدّث بعض أصحابنا أنه وجد على حجر مكتوب عليه: «ثلاثة مفسدون في البلاد، شداد بن عاد، وفرعون ذي الأوتاد، ومخلد بن كيداد».

وكان سبب ثورته[3] فيما بلغنا، أنه توجه إلى المشرق يريد الحج، فلما وصل إلى مصر، نظر إليه رجل من أهل مصر، وقد حلق رأسه من عند الحجام، فقال له: غط رأسك أيها الثائر، فضربه عليه. فلما سمعها أبو يزيد، مخلد بن كيداد، وقع في نفسه من ذلك ما وقع.

فلما حجّ وقضى مناسكه كر راجعاً إلى المغرب.

فلما وصل في طريقه إلى قرب جبل نفوسة، فوضّ من سار عنه نحو جبال نفوسة، فقال له: أقر عني السلام على جميع إخواننا، وقل لهم قد وافينا كثيراً، وأنه ليس لله علينا أن نشتري حجة.

وقد بلغنا (أنه) أدى في طريقه تلك أقل من درهم، ولذلك قال: ليس لله علينا شراء حجة.

فلما رجع أبو يزيد من أرض المشرق، حفر غاراً بقلعة سدادة فـ(كان) يجتمع فيه مع أصحابه، يذكرون ما يريدون من أمرهم، وذلك الغار اليوم معروف، وينتظرون متى يأتي وقت ذلك.

---

(2) قارن سير الشماخي (ص36)؛ وطبقات الدرجيني (349/2). انظر كذلك الاباضية في موكب التاريخ (164-162/1).

(3) في الأصل: تيارته.

وكان على قسطالية عامل من عمّال أبي القاسم بن عبيد الله، وهو الذي بنى مدينة المهدية وسمّيت به، وكان يسمى المهدي، وتسمى أيضاً القاسمية، باسم القاسم.

وكان عند المهدي علم بأنه سيخرج عليه رجل من البربر، بصفة كذا وكذا، فصار يتوقع ذلك ويتوكعه، ويرسل إلى عماله في البلاد يأمرهم أن يتحفظوا ويتحذروا منه ويعلمهم بصفة الرجل.

فكان هو وعماله يستكشفون عن الصفة التي كانت عنده ويبحثون في طلبها، إلى أن ذكر لعامل قسطالية رجل بقلعة سدادة من نعته ومن أمره كذا وكذا، فبثّ إليه عامل قسطالية، وهو بمدينة توزر.

فلما رآه وعرفه بالنعت الذي نعته له صاحبه، أخذه فرماه في سجنه وقيّده في الحديد ليرسله إلى السلطان بالقيروان.

فلما طال مكث أبي يزيد في الحبس ولم يجد لنفسه حيلة، وأنست نفسه من سلامة تكون على يد العامل، وبلغ ذلك جماعة النكار، اجتمعوا فيما بينهم واختاروا من أنفسهم أربعة رجال، يثقون بهم في الجلد والشجاعة والبأس والنجدة، فأرسلوهم إليه آخر النهار.

فلما وصلوا إلى باب المدينة، وقف واحد منهم على الباب، وتقدم ثلاثة إلى الحبس، فلما أتوه، بدأوا بالسجان الذي يحرس الحبس، فقتلوه وكسروا السجن، وأخرجوا جميع من فيه وأخرجوا صاحبهم مقيداً واحتمله أحدهم على ظهره، وكان اسم حامله، يوجين، فيما بلغنا، وبين يديه رجل بالسيف مصلتاً، وآخر خلفه. فكل من قام إليهم من الناس قتلوه. فخرجوا بصاحبهم حتى أتوا على صخرة بين الحامة وتوزر، وكسروا ما عليه من القيد، فسميت «صخرة أبي يزيد».

فمضى نحو بني يدرجتن في الصحراء، برملة سماطة، رجاء منهم أن يمنعوه، وقد كانوا في قوة عظيمة ينتهون إلى ثمانية عشر ألف فارس، فيما بلغنا، فالتجأ إليهم وطلبهم أن يمنعوه، فلم يجد عندهم ما يريد، فمضى من عندهم مستخفياً إلى جبل أوراس(4).

قال: فلم يزل الطلب عليه والبحث عن شأنه حتى علموا بموضعه، فأنفذ إليه القاسم بن عبيد الله جيشاً عظيمًا فحاصره بجبل أوراس سبع سنين، وبلغت فيه نفوسهم التراقي. وفي ذلك قال متكلمهم يذكر ما نزل

---

(4) هي سلسلة من جبال الأطلس الصحراوي بالجزائر. وهذه السلسلة تمثل شكلاً رباعياً طوله من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب 65 ميلاً. وفي نهاية هذه السلسلة إلى الجنوب تمتد التلال القليلة الارتفاع التي تتصل بالصحراء الكبرى، وأهم قمم هذه السلسلة من الشمال هي كيف محمل (40 قدماً) وشيلية (759 قدماً). والقمم المرتفعة منها تغطيها الثلوج في الشتاء والربيع، كما تتعرض السفوح الشمالية منها للرياح الشمالية الباردة. وسكان أوراس يتكونون من عناصر مختلفة أهمها البربر، الذين انضمت إليهم عناصر عربية أشهر قبائلها حلفوية الذين هاجروا من منطقة بسكرة. وأولاد فدهلة وأولاد زيان. والجمورة والبرانس الذين قيل انهم هاجروا إلى هناك من الساقية الحمراء. وأما أشهر قبائل البربر الأصلية في أوراس. فهم زناتة (أوربة وجراوة) التي ظلت تحتفظ باستقلاله في عهد الرومان والبيزنطيين والوندال، ولكن المنطقة تلقت روافد من العناصر العربية بعد الغزو الهلالي، فاستوطن اوراس الشمالية بنو دريد (من بطون أثبج).

• راجع: وصف أوراس في البكري (الفهرست)؛ الادريسي (الفهرست).
وكذلك المراجع التالية:

— Xavier de Plankol, Les fondements géographiques de l'histoire de l'Islam (p. 125-26);

— Lartigue: Monographie de l'Aurès;

— Masqueray: Formation des cités chez les populations sédentaires de l'Afrique Septentrionale (Rev. Afric., 1884);

— Basset (R) Note sur les Chaouia de la province de Constantine, Paris, 1897;

— Mercier (E), Chaouia de l'Aurès, l'Ecole des Lettres d'Alger, 1896.

بهم من البلاء والضرر، وطول الحصار والمطر، قال: «جبل لا يصعد، ومطر ساكب، وفتى مستقصى، وشيخ غير مدفوع. ونحن المبتلون المقتولون».

فلما رأى القوم ما نزل عليهم وحلّ بهم، اجتمعوا إليه وقالوا له: قد رأيت ما حلَّ بنا ونزل علينا من أمر هذا الفتى، ولم يبق لنا طاقة للقوم. فهلاك رجل واحد أيسر من هلاك العامة. فقال لهم أبو يزيد: «أمهلوني في هذه الليلة».

فلما أظلم عليهم الليل، أمر بخمسمائة ثور، وأمر أن يشد على قرن كل ثور منها حزمة من حلفاء، وإلى ذنبه حزمة أخرى. قال: فاختار خمسمائة رجل من أصحابه، من ذوي البأس والنجدة، فأخذوا عدتهم وسلاحهم وساق كل واحد منهم ثوراً، حتى إذا قربوا من العسكر، أي جيش العبيديين ألقى كل واحد منهم في حزمات ثوره ناراً.

فلما بلغت حرارة النار إلى الثيران، ركضت أمامها، فخاضت الثيران بالمعسكر والرجال في ساقتها بالسيوف مصلتة، يضربون بها كل من أدركوه، فجعل الله ذلك هزيمة للعسكر فانهزموا، فقتلهم أبو يزيد وأصحابه قتلاً ذريعاً.

فلما كان صباح يومئذ من الهزيمة، عرض في اثني عشر ألف فارس من أهل عسكر القاسم خاصة ورجعوا إليه، فصار الطلب على باقي عسكر القاسم، فتسامعت به القبائل وطار اسمه في الآفاق، فاجتمعوا إليه من كل أوب، والتأمت إليه عساكر كثيرة، حتى عدوا في عسكره ألفاً من الخيل البلق، والله أعلم. ومعه من مزاته آلاف كثيرة، فأخذ في فتح المدائن والقرى والمنازل، ففتح الساحلَ كله، وأقبل يريد قسطالية التي منها خرج، ففتحها بأسرها.

قال: فلما أحسّ من نفسه القوة ورأى كثرة من اجتمع له من الناس، تكلم إليه بعض عزابتهم[5] ماذا تنتظر (للأخذ) بثأر يزيد بن فندين، يا شيخ؟

فقال أبو يزيد: دعنا حتى نفرغ من نسج كسائنا. فإذا ما فرغنا منها وقعدنا في مصحات اشتغلنا في تنقية كساءاتنا.

فقام إليه بعض من كان معه من مزاتة، وهو مسارة بن غني، فقال له: فلا تظن أن الوهبية قد خرجت معك، إنما كانت في مساجدهم. وإنما خرجنا معك نحن لنتواكل هذه الميتة، فدع عنك هذا، وإلا قتلنا كلاب الحي ـ يريد بالميتة الغنائم والأموال التي يأخذونها.

ثم إن عدو الله، سار يريد القاسم بالقيروان، وكل قرية ومدينة مرّ بها في طريقه خربها وسبا ذريتها وغنم أموالها، كفعل نافع بن الأزرق وغيره من الخوارج، بل قد زاد عليهم وأربى.

كان معه رجل من علماء النكار، يسمى زكرياء، ينكر ذلك عليه، ويقول: «إن هذا لهو الخروج من الدين».

فلما رأى أبو يزيد إنكاره عليه، خشي أن يفسد عليه العامة من الناس، أمر بقتله، فقتل ليلاً، ولا يدرى أين كان.

فلما سمع القاسم بإقبال يزيد إليه بما لا قبل له به من العساكر،

---

(5) العزابة اسم لجماعة، واحدهم عزابي، وهو مشتق من العزوب عن الشيء، أو البعد عن الأمور الدنيوية. والعزابة تعني الانقطاع والعزلة الجماعية وتنطبق خصوصاً على طلبة العلم. ولكن هذا المصطلح أصبح يطلق في العصور الحديثة على هيئة تقوم بالإشراف على شؤون المجتمع الاباضي الدينية والسياسية والتربوية، وهذه الهيئة تمثل في زمن «الظهور» (أي إعلان الدعوة)، مجلس شورى للإمام أو لعامله، ومقر العزابة هو المسجد.

خرج من القيروان إلى المهدية، فترك على القيروان رجلاً، وقدم أبو يزيد القيروان وحاصر أهلها، حتى اشتد عليهم الحصار، وقد أنهب من المدينة كثيراً من أطرافها، فخافوا على أنفسهم وألقوا إليه بأيديهم وخرجوا إلا قاضي المدينة. (فـ) قد انحاز في دار الإمارة بأموال جسيمة، فأرسل إليه أبو يزيد: «أخرج»! فأبى القاضي إلا بالأمان، وأعطاه أبو يزيد الأمان.

فلما خرج إليه القاضي، شاور وزراءه، فقال له رجل منهم يسمى أبا عمارة: ألم تعلم ما ذكر في كتاب كليلة ودمنة؟ فقال له أبو يزيد: وكيف ذلك؟ قال له: ليس شيء أروح للقلب من قتل عدو مخوف، وإن بلغ من الضعف الغاية.

قال: فأمر أبو يزيد بقتل القاضي، فقتل بعد الأمان، وأخذ تلك الأموال.

وذكروا أنه بلغ عدة ما خرب على يده في إفريقية ثلاثون ألف قرية لم تعمر إلى يومنا هذا. وفعل في إفريقية من الفسوق والمعاصي والفجور، ما لم يبلغنا مثله عن الفراعنة والأكاسرة والقياصرة والجبابرة.

وبلغنا أنه عوتب على ما يفعله عسكره من الفساد والخراب، وهو شاهد كما يراهم ولا ينهاهم، بل قد يأمرهم به، فتلا قوله تعالى: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان، وما كفر سليمان، ولكن الشياطين﴾.

وكان عدو الله على حمار جاء (به) من مصر، إذا مشى عدت الخيل معه، وإذا عدا سبق الخيل.

وبلغنا أن أبا القاسم، ـ رحمه الله ـ لما بلغه ما خرب على يد أبي يزيد، وقد ذكر قومنا، فقال: «لقد فتح فيهم أبو يزيد باباً، إلا أنه لم يحسن السيرة».

وبلغنا أنه مرّ بعسكره على مدينة قابس[6] فنظر إلى غابة وقومها بكسر درهم، وأمر أصحابه بالنهب والأكل والفساد والخراب ومكث عليها زماناً كذلك. فلما أزاد الانصراف، قوّم الغابة مرة أخرى، فجعلها درهماً فصار يطالب أهل قابس فيما زاد على التقويم الأول.

وبلغنا أنه نزل بالساحل، فأخذ أهل عسكره صبيتين جميلتين، فجاءته أمهما تشكو إليه، فقالت له: يا شيخ، إن العزّابة سبوا لي ابنتين؛ وهما حرتان؛ وغصبوهما، فلم يجبها عدو الله بجواب، غير أنه قال: هل في إفريقية حرة؟ فخافت المرأة على نفسها فهربت ونجت بنفسها.

وبلغنا أنه، عدو الله، لا يبيت كل ليلة إلا على أربعة أبكار.

ثم إن أبا يزيد سار من القيروان يريد المهدية[7] فحاصر بها المهدي زماناً طويلاً، حتى نزل بالرملة التي بباب المدينة، وبنى بحيال باب المدينة مصلى، وهو بها معروف يدعى «مصلى أبي يزيد».

ثم إن (ابن) المهدي، قضى الله عليه بالموت ورجع في مكانه ابنه اسماعيل[8] ابن أبي القاسم بن المهدي، فسمع أهل العسكر بوفاة

---

(6) راجع وصف الجغرافيين العرب في مختلف العصور لمدينة قابس في كتابنا: المدن المغربية في الأدب الجغرافي العربي.

(7) راجع وصف الجغرافيين العرب في مختلف العصور للمهدية في نفس المصدر.

(8) إسماعيل بن محمد بن عبيد الله المهدي، المنصور بنصر الله، ثالث خلفاء الفاطميين، تولى الخلافة بعد وفاة أبيه أثناء حرب أبي يزيد في سنة 334 هـ، ولكنه لم يبايع رسمياً إلا في سنة 336 هـ، وهو الذي تمت على يده بمساعدة الزبيريين، هزيمة أبي يزيد، والمنصور هو الذي بنى مدينة «المنصورية» التي تحمل اسمه، وقد توفي فيها في سنة 341 هـ.

راجع: سيرته في وفيات الأعيان (236-234/1)؛ رسالة افتتاح الدعوة (ص 278-279)؛ العبر (43/4)؛ الكامل (150/8 و164)؛ البيان (218/1)؛ أعمال الاعلام (22 و23)؛ طبقات الدرجيني (102/1 و104).

أبي القاسم وسُرّوا بذلك غاية السرور، واستبشروا وطمعوا في أخذ المدينة، وبشّروا بموته أبا يزيد، فساءه ذلك وتراجع وتنكس طويلاً.

فقال له أصحابه: لم هذا؟ فقال: مات رجل أديل لنا عليه، وولي رجل فلا ندري أيدال له علينا أم يدال لنا عليه.

قال: فزحف أبو يزيد فيمن معه إلى أحد أبواب المدينة، فضرب فيها، وكان اسماعيل عنده في العلم أن أبا يزيد، إذا ضرب في باب معروف من أحد البابين، (فـ) انه يخيب. وإذا ضرب في الآخر (فـ) إنه يظفر. ووقع ضربه على باب الخيبة، وخيبه الله...

وقالوا له من أعلى البرج: أخطأت، يا شيخ!

قال: فوقع القتال بينهم حتى انهزم عدو الله أبو يزيد وكانت الدائرة عليه.

وقد ذكروا أن ميمنة عسكره انهزمت، حتى انتهت الهزيمة إلى القيروان، ولم يشعر بذلك أهل الميسرة بـ (سبب) كثرة جنوده.

ثم ان أبا يزيد سمع بأن أهل القيروان[9] وثبوا على عامله عليها وحاصروه حتى اخرجوه، وقد دس اليهم الشيعي بالكتب في ذلك، فتراجع[10] أبو يزيد عن المهدية.

فعندها انهزم عدو الله الهزيمة التي أصيب بها. فلما سمع اسماعيل بما فعل أهل القيروان بعامل أبي يزيد وأحس فيه التأخر (وقيل إن اسماعيل خرج إليهم بخمسمائة فارس أو نحوها) خرج إليه وتبعه، فكانت عليه الهزيمة واستحر القتل في عسكر أبي يزيد.

---

(9) راجع وصف الجغرافيين العرب في مختلف العصور لمدينة القيروان كتابنا: المدن المغربية في الأدب الجغرافي العربي.

(10) في الأصل: فتأخر.

وبلغنا أن ما قتل بعضهم من بعض أكثر مما قتل منهم عدوهم.

فلم يزل الشيعي في ساقتهم يقتلهم إلى أن انتهى إلى القيروان.

فلما وصلوا إلى الموضع الذي بنيت فيه صبرة، قال أبو يزيد لأصحابه: «اصبروا صبرة»، فكـرَّ راجعاً. فلذلك سمي الموضع صبرة[11].

قال: فخرج عليه أهل القيروان يقاتلونه، فلما أخذته الغلبة ولى منهزماً، وتبعه طائفة من خيل اسماعيل فأدركوه وقد تأثر من جروح. فألقى بيده على أحدهم، فقال له: خلصني!

فقال له الفارس: من تكون؟ فقال له أبو يزيد: أنا أبو يزيد.

قال: فأخذه الرجل ومضى به إلى اسماعيل. فلما مثل بين يديه، قال الرجل لاسماعيل: إني أسرت هذا الرجل وزعم أنه أبو يزيد، وأنا لست أعرفه.

قال: فدعا اسماعيل بمن يعرفه، فأخبره أنه هو. ثم دعا اسماعيل بالأطباء ليعالجوه، وقد أنفدته الجروح، لئلا يموت (حيث أنه) يريد أن يعذبه بأنواع العذاب. فقال له الأطباء، إنه لميت.

قال: فلما علم اسماعيل بذلك من أمره، أمر بسلخه،

---

(11) مدينة صبرة متصلة بالقيروان، بناها يوسف بن زيري بن مناد في عهد المنصور العبيدي في سنة 337 هـ، واستوطنها الخليفة وسماها المنصورية. ولما تولى المعز الفاطمي الحكم نقل إليها أسواق القيروان كلها وجميع الصناعات، وقد كان لها خمسة أبواب، ويذكر البكري أنه كان دخل واحداً من أبوابها في اليوم، ستة وعشرين ألف درهم. وصبرة المنصورية هي التي ذكرها ابن رشيق حين يقول:

بنفسي من سكان صبرة واحد ... هو الناس والباقون بعد فضول

وصبرة الآن خراب يباب. راجع الادريسي (ص 103 و121)؛ البكري (ص 26-47)؛ معجم البلدان (3/291-292).

واخذوا في سلخه. فلما وصلوا إلى السرة مات عدو الله إلى النار وبئس المصير، فتفرقت عساكره ومضى كل في وجهته.

ثم إن الفضل بن أبي يزيد، بعد موت أبيه، جمع على نفسه جمعاً من أخلاط الناس، فلما رأى كثرة من اجتمع له، قصد إلى ظعائن مزاتة، وفيهم أبو القاسم يزيد بن مخلد، وأبو خزر يعلى بن زلتان ـ رضي الله عنهما ـ فلم يشعروا إلا وعساكر الفضل تضرب أخبيتها حولهم، وكانت عساكره في ثلاثين ألفاً، في صباح يومئذ، وقال لهم: ادفعوا إلى إخوتي من بني «تيجرت»، يريد أبا القاسم وأبا خزر، رضي الله عنهما.

وذلك أن بني واسن وبني يفرن إخوة، وهم جميعاً بنو تيجرت.

فقال لهم (الفضل)، لم أقصدكم، يا مزاتة، إنما قصدت إخوتي؛ فائتمرت مزاتة على دفعهما، فكان رأي بعض أهل الدنيا أن يدفعوهما، وأبى لهم أهل الصلاح منهم ذلك، وتنحوا ناحية عن أهل الدنيا، وهم في ذلك، إذ أتاهم رجل من ملأ مزاتة وقال لهم: إن إخوانكم من هذه الجماعة ليست لكم فيهم ما يقومون له، فإن أحببتم أن تشمروا عن أنفسكم وتدفعوا عن صاحبكم، فافعلوا.

فقال بعضهم لبعض: قوموا بنا لنأخذ عدة الحرب، فقاموا غضباً لله ولدينه ولمشائخهم، فأخذوا من هيئة السلاح، بعضهم يشد السرج لفرسه، وبعضه يسوي سنان رمحه، وبعضهم يقلد سيفه وأمثال ذلك من أنواع السلاح «وما منا إلا وله في القوم (أخ)[12] أو ابن عم أو نسيب أو قريب. فإن هم رأونا محاربين لا يدعوننا ويسلموننا».

فلما رأى أهل الدنيا عزيمة المشائخ على الحرب وجدهم على القتال، رجعوا إليهم فتابوا مما بلغ المشائخ عنهم، فقبلوا عنهم توبتهم.

---

(12) كلمة سقطت في النص ولكنها وردت في الترجمة.

قال: فاجتمع رأيهم على ذلك، وكان مسارة بن غني، من مزاتة، ممن وافق رأيه رأي المشائخ، فقال: لي اثنا عشر ابناً وقد وهبتهم لكم اليوم، يا مشائخ.

وقال مسارة لبنيه: قاتلوا اليوم وقد أمر المشائخ، كقتال علي بن أبي طالب أمام النبي، صلى الله عليه وسلم.

قال: فتهيأت العامة للحرب، واستجمع عسكر الفضل في خيله ورجله، واجتمعت المشائخ ومن معهم، ثم إن مسارة التفت إلى أحد ولده، وهو أصغرهم، فقال له: «أمك طالق إن لم تكشف تلك الربوة التي عليها خيل الفضل»[13] وقد كانت عليها الخيل حتى اسودت، فيما بلغنا، كالليل المظلم، وحمل عليهم الفتى وكشف عنها.

ثم ان الفريقين التقوا ونشبت الحرب وكان ذلك ضحوة نهار، فيما بلغنا، فاقتتلوا ملياً، والفضل في ثلاثين الفاً، وكانت الدائرة على الفضل وأصحابه وقتل منهم خلق كثير.

وحدث أبو الربيع، سليمان بن يخلف ــ رضي الله عنه ــ عن أبي يعقوب يوسف بن نفات ــ رضي الله عنه ــ أنه قال: لما انهزم الفضل وعساكره، وصاروا ثلاث فرق، طائفة مستأصلة، وطائفة هلك بعضها ونجا بعضها، وطائفة لم تصب من يتبعها، فهرب الفضل حتى انتهى إلى قرية من قرى تلك الأرض، فدخلها، فأخذه أهلها وقطعوا رأسه، وتوسلوا به، إلى اسماعيل بن القاسم، فتشفعوا به إليه، فشفعهم وانطفأ ذكره.

وبلغنا عن رجل من هوارة يسمى محمد بن عربية، حين انهزم عسكر الفضل، ضلت له إبل ليلة يوم الهزيمة، فمضى في أثرها يطلبها ثم جنه الليل، فبات ولم يعلف حصانه.

---

(13) في الأصل: خيل الخيل، وهو تحريف واضح.

فلما كان صباح (يوم) الهزيمة، رأى[14] العسكرين وقد تواقفا، وكان على فرس سابق. فلما انهزم الفضل وأصحابه، كان سرعان الخيل. فإذا بلغ إلى جماعة رجال من أصحاب الفضل، اقتطعهم إلى من خلفه من أصحابه يقتلونهم ولا يقتل هو أحداً. فكان كذلك حتى استقتل منهم عدداً كبيراً، وكان رجلاً تائباً في آخر عمره بعد كبره، ولم يكن بالغاً في العلم.

فلما كان في الليلة المقبلة، علف حصانه أربعة أثمان بالثمنة الكبيرة.

---

(14) في الأصل: وافى.

أخبار يعقوب[1] بن أفلح
ابن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم،
رضي الله عنهم

وحدّث غير واحد من أصحابنا أن الحجاني لما سار متوجهاً إلى تاهرت، خرج يعقوب بن أفلح في خيل من أصحابه بعائلاتهم وأهاليهم، فتبعهم عسكر العدو، وكان عنده حصان عظيم الشأن، فتقدم لأصحابه على الطريق، وقد أسدل على رأسه ملحفة، فإذا قرب العدو من أصحابه وغشيهم خيلهم، نادوه، فيقف لهم حتى يصلوا ويأمرهم بالسير على الطريق ويستقبل خيل العدو بوجه فرسه، وكان فرسه تضرب به الأمثال في المغرب. فإذا نظروا إليه وعرفوه، توقفوا له من هيبته. فإذا ما تباعد

(1) كان يعقوب بن أفلح، أبو يوسف، يطمع في الإمامة بعد وفاة أخيه، محمد بن أفلح ولما بويع ليوسف بن أخيه، كما تقدّم، انقطع يعقوب عنه ورحل إلى زواغة، وعندما ثار أهل تيهرت على يوسف وأخرجوه منها، أرسلوا إلى يعقوب، فجاءهم وبايعوه بالإمامة في سنة 284 هـ، وقد استمر في الإمامة أربع سنوات، وكان سلطانه محصوراً في تيهرت وضواحيها، ولما خلع عادت الإمامة إلى يوسف في سنة 288 هـ، وبعدما اغتيل الأخير، خلفه أخوه يقظان بن محمد الذي قتل في سنة 296 هـ، وكان آخر الأئمة الرستميين. ولما حل العبيديون بتيهرت، رحل عنها يعقوب إلى ورجلان، حيث أحسن السكان استقباله وعرضوا عليه الإمامة، ولكنه رفضها، معتقداً أن سلطان الاباضية ذهب لغير رجعة، وقد ظل في ورجلان حتى توفي سنة 310 هـ.

راجع: عن يعقوب ابن أفلح، طبقات الدرجيني (104/2 وما يليها)؛ البيان (197/1)؛ سير الشماخي الذي يكتفي بنقل أقوال أبي زكرياء (ص 265-266)؛ الأزهار الرياضية الذي يصف يعقوب بـ «العلامة» (266/2-271).

أصحابه عنهم سار في أثرهم حتى يدركهم فيسبقهم، وعسكر العدو يقتفي أثرهم، حتى كادوا أن يدركوا أصحابه تارة أخرى، فنادوه مرة أخرى، فيقف لهم حتى يتباعدوا فيأخذوا في أثرهم.

فكانت تلك حالهم وحاله حتى أيس منهم العدو ورجعوا عنه وأصحابه، فمضى يعقوب وأصحابه سائرين إلى ورجلان.

وبلغنا أنه نظر إلى الطالع في طريقه، ذلك، فالتفت إلى أصحابه وقال لهم: إنه «لا يجتمع منكم اثنان إلا كان عليهم الطلب. افترقوا، فقد انقضت أيامكم وزال ملككم ولا يعود إليكم إلى يوم القيامة».

قال: فافترقوا وأقبل هو وعياله وأهله إلى ورجلان، وذلك على عهد أبي صالح جنون بن يمريان ــ رحمه الله ــ فتلقاه أبو صالح في جموع أهل ورجلان، فأدخلوه وأكرموه وأحسنوا القيام به، فطلبوه أن يولوه على أنفسهم فامتنع لهم من ذلك، فقال: «لا يستتر الجمل بالغنم» فأرسلها مثلاً.

ومكث فيهم دهراً، وكانت له بنتان وابنتا أخيه، قد منعهما وحبسهما من التزويج[2] فلما اجتمع إليه مشائخ أهل ورجلان يطلبون إليه أن يزوجهما ولا يدعهما، قال لهم: إني لا أزوج ابنتي إلا لرجلين، أحدهما من أهل الدين والآخر من أهل الصلاح، فأضع يدي بيد من شئت.

فقالوا له: ضع يدك على من شئت، فقال لهم: فإن كان ولا بد،

(2) كذا في الأصل، وفي النص المترجم:

— «Il avait deux fils et deux filles, tous quatres de la même mère, mais il ne voulait pas les marier».

أي كان له ابنان وابنتان من أم واحدة ولم يرد تزويجهم.

فالذي كان من أهل الصلاح، حموم بن لؤلؤ[3]، والثاني العز بن محمد[4] قال: فزوجها لحمو وللعز، وكانت عند حمو امرأة غير ابنة يعقوب، فلما سمعت بتزوج حمو ، خالطها الهم، حتى قضى الله عليها بالموت.

وبلغنا أن بعض أهل ورجلان سأل يعقوب بن أفلح، فقال له: أتحفظ القرآن كله؟ فقال يعقوب: معاذ الله أن ينزل على موسى وعيسى ما لم أحفظه وأعرف معناه، فكيف بكتاب أنزله الله على نبينا محمد، صلى الله عليه وسلم.

وكان يعقوب بن أفلح مجتهداً في الليل، وكان ذات ليلة في بيت يصلي وخز عليه السقف إلا الخشبة التي تقابل رأسه، فكان كما هو حتى أتاه الناس، فحفروا إليه؛ فوجدوه قائمًا يصلي وسألوه، فقالوا له: ماذا ظننت؟ فقال لهم: ظننت أن القيامة قد قامت وبورجلان بعض آثارها.

---

(3) في الترجمة اقتضاب واضطراب في هذه الفقرة.

(4) قارن طبقات الدرجيني (105/1)؛ وسير الشماخي (ص 514).

الافتراق الرابع
من الإباضية

وحدّث غير واحد من أصحابنا أن أبا سليمان بن يعقوب بن أفلح انتحل بعض العلوم ومدارسة الكتب، فحذر أبوه منه جماعة أهل ورجلان، وقال لهم: لا تطمئنوا إليه، فإنه درس ديوان أحمد بن الحسين.

فلما مات يعقوب بن أفلح، اجتمع جموع أهل ورجلان فجهزوه ودفنوه بمقبرة أبي صالح جنون بن يمريان ـ رضي الله عنه ـ وقبره في عصرنا هذا لم يندرس، كأنه ربوة.

وكان أهل ورجلان قد أجادوا الضيافة لأبي سليمان ابن يعقوب وأصحابه[1] والناس يتهمونه على مسائل منها تنجيس الفرث، فأرادوا استخراج ذلك وتجربته وصنعوا لع طعاماً عليه العصب فيها فرث، فدعوه وأصحابه إلى الطعام، وذلك بعد صلاة العصر.

فلما حضر الطعام بين يدي أبي سليمان وأصحابه وعليه عصب، أخذ أبو سليمان عصبة واحدة فشمها فأحس فيها الفرث، فرما بها وألقاها، وقال: «هذا طعام منجوس».

---

(1) هذه العبارة غير واردة في الترجمة.

فقال له أصحاب الطعام، ماذا نفعل بالطعام؟ فقال لهم، احفروا له وادفنوه، وقطع عذر من أكله.

فبلغ الشيخ صالح جنون بن يمريان ـ رضي الله عنه ـ ما فعل، وكان الشيخ صائمًا، وأخبروه بتنجيسه طعاماً طبخ فيه الفرث، وأخذ ذلك بمسامع أهل ورجلان، وتخوّف الشيخ من الفتنة، وارتاب كثير من الناس في ذلك الطعام، وأبى أهله أن يطعموه حتى يأكل منه الشيخ. فلما رآهم كذلك، مضى في جماعة من أصحابه إلى الدار التي بها الطعام فاستأذن، فأذن له أصحابه، فدخل، فدعى بماء وغسل يديه وقربوا له الطعام، فأفطر وأكل هو وأصحابه، (وقضوا) حاجتهم.

ثم إنه كان بين الشيخ وبين أبي سليمان على ذلك مشاجرة ومنازعة عن تلك المسألة، فقال له الشيخ، إن شئت باهلتك.

فقال له أبو سليمان، أجل.

واتفقا أن يبتهلا يوم الجمعة. ثم إن الشيخ أخذ في العبادة والابتهال إلى الله أن ينصر أحب الفريقين إليه.

فلما كان يوم الجمعة اقترعا بين كريمة وتيسر سرين، فوقعت قرعة الشيخ على تيسر سرين، وتوجه نحوها، وتوجه أبو سليمان إلى كريمة، فعمل الشيخ بتيسر سرين مصلى، وهو اليوم معروف، فمكثا بقية يومهما يدعوان الله على المبطل، ثم رجعا فمكث أبو سليمان بعد ذلك، ففضحه الله، وكان من تبعه على أثره حتى أباد الله جملتهم. وقد أفتى لهم في سبع مسائل: أولها الفرث، والثانية تحريم الجنين بعدما ذبحت أمه، والثالثة عرق الجنب، والرابعة عرق الحائض والخامسة دماء العروق التي استبطنت الظهر بعدما ذبحت الشاة، والسادسة صوم يوم الشكر، والسابعة الزكاة للقرابة.

أخبار أبي الربيع،
سليمان بن زرقون النفوسي،
رضي الله عنه

وكان أبو الربيع قادة، وهو من نفوسة تابديوت[1] وبها مولده ومسكنه. ولقد أخبرنا بعض أصحابنا ممن كان في عصرنا، أنه أدرك ديوانه وكتبه بقرية تابديوت. وقد بلغ من العلوم ما لم يبلغه كثير ممن في عصره. وكان تعلمه في سجلماسة، هو وأبو يزيد، عند ابن الجمع.

وكان ابن الجمع رجلاً من أهل الدعوة، أقبل من المشرق تاجراً ينتحل جميع الفرق[2] وكان غزير العلم، فقدم توزر (وأقام) بها وإذ ذاك أبو الربيع شابٌ حدث السن.

وكان ابن الجمع يرسله في حوائجه ويلوذ له، فاختبره في أمور كثيرة، فوجده فاهماً حاذقاً ذكياً. فقال له ابن الجمع يوماً من الأيام لما رآه من فهمه وحضور ذهنه، إني أراك «فطين»، وشد ابن الجمع الطاء ليوهم عليه أنه أراد الفطنة، فأجابه الشيخ أبو الربيع: غير منزلق يا عمي، فتعجب به.

---

(1) كذا في الأصل. وفي النص المترجم: (Tadiout).

(2) من علماء المشرق وتجارها الأغنياء. نزل توزر وبقي فيها مدة من الزمن، وهناك التقى به الطالب ابن زرقون فلزمه.

راجع: الاباضية في موكب التاريخ (162/1، هامش 3).

وبلغنا أنه قعد معه ذات ليلة، فلما أراد ابن الجمع الرقاد، أمر أبا الربيع بتغطيته، فغطاه. فقال ابن الجمع: «الزيت خيراً»، ليوهم عليه أنه أراد، جزيت خيراً، ففطن به أبو الربيع، فأجابه، فقال له: «على الخبز، يا عمي»! فعظمت درجته عنده لما رأى من فهمه وعقله.

ثم أراد ابن الجمع المسير إلى سجلماسة، فطلبه أن يسير معه ويعلمه ما أراد من العلوم.

قال: فسار ابن الجمع وأبو الربيع، يريدان سجلماسة، فلما وصلاها، مكث عنده سنين عديدة، ومعه أبو يزيد مخلد بن كيداد.

ولما حضرت الوفاة ابن الجمع، أوصى بكتبه لأبي الربيع. فلما مات ابن الجمع، أقبل أبو الربيع إلى قسطالية وقد اشتهر اسمه وعلا ذكره، فطفق الناس يسألونه عن فنون العلم، فكل من سأله، أجابه، واضطربت قسطالية كلها من أجله.

وكان بها رجل مؤدب قبل ذلك لأبي الربيع في صغره، قبل أن يتعلم، لم يتماسك أن يقول: إنما قرأ عندي، وأنا علمته، ويكرر ذلك أينما جاز.

وبلغنا أن أهل سجلماسة اختلفوا بعده في مسألة، فكادوا يقتتلون عليها، فاتفقوا على أن يبعثوا رجلين بحملين إلى أبي الربيع أينما كان يستفتيانه، فما أفتى به أخذوا به.

فمضى الرسولان وجعل لهما أهل البلد أجلاً معلوماً، فتوجها حتى أدركاه، فاستفتياه، فأفتى لهما بوجه الحق، فكرّ الرسولان راجعين حتى وصلا إلى سجلماسة فأخبرا بما أفتى به، فاصطلحوا بعدما كانوا يقتتلون.

وحدّث غير واحد من أصحابنا أن أبا الربيع وأبا يزيد مخلد ابن كيداد، خرجا ذات مرة سائرين في بعض حوائجهما، فصادفا بعض أهل الدعوة، فاستضافاهم، فأخافوهما، ولم يحسنوا ضيافتهما، فتلجلج في نفس أبي يزيد شيء، وهو السبب الذي أهلكه أول مرة.

ثم إنهما مرا بقوم من النكار، فاستضافاهم، فأضافوهما بأحسن ضيافة. فقال أبو يزيد لأبي الربيع، يا أبا الربيع، ألا ترى ما بين الرجال والرجال، فهل لك في الرجوع بنا إلى مذهب هؤلاء القوم؟

فقال له أبو الربيع: لست أريد الدنيا، ولو كانت مرادي، إذا لنلتها بعلمي.

قال: فافترقا، فرجع أبو يزيد نكارياً، وثبت أبو الربيع على مذهب الحق.

وبلغنا أن أبا الربيع، توجه يريد إفريقية، فوجدها متغيرة راجعة إلى مذهب النكار، فلم يزل بهم حتى ردهم إلى مذهب الوهبية.

وبلغنا أنه دخل خصاً فوجد فيها سبعة أسرة منصوبة، وعلى كل سرير شيخ من شيوخ النكار. فقال له شيخ من شيوخهم: ها هنا، يا أبا الربيع، ففسح له للجلوس، فقصد أبو الربيع نحوه، فأراد الطلوع إليه فوق السرير فلما طلع وكاد يستوي في الجلوس، عثر عليه عثرة ووقع على النكاري ووكزه بمرفقه، فكاد يكسره، فقال له: كسرتك، يا شيخ، وأوهم نفسه أنه لم يتعمد الوقوع عليه، فجرت بينهما مناظرات فغلبهم أبو الربيع وطردهم من تلك الأحياء قبل أن يتغدوا، وقد حضر غداؤهم، فاتبع أثرهم في إفريقية يطردهم أينما وجدهم ويردهم إلى الوهبية، حتى طهّر إفريقية من آثار النكار.

وبلغنا أنه توجه إلى جبل نفوسة، وكان الشيخ أبو القاسم البغطوري يوالي نفاثاً قبل إحداث ما أحدث، ولم تقم البينة عند الشيخ على نفاث، فكانت على ولايته.

فقال أبو الربيع لأهل منزله: شيخكم يوالي نفاثاً، وأنتم توالون شيخكم، فكلكم نفاثية.

وبلغنا عنه أنه سألته عجوز عن براءة النكار، فقال لها: حسبتك يا أم فلان فقيهة في العلم. (. . .) فقال لها: من لم يصب ما ينفق، فليصبح ويلعنهم، فكأنه أنفق جراب دراهم. وكان يفتي في مسائل الرخص كثيراً.

وبلغنا عنه (أنه) طلب إلى عجوز خرقة ليرقع بها جبته، فأعطته خرقة منجوسة، فقال لها: إنها نجسة. قال: فأخذها وانتزع من أطرافها شيئاً ورمى به إلى العجوز وقال لها: خذي نجسك، فأخذ البقية لترقيع جبته.

وبلغنا عنه أنه طلب إلى عجوز ماء ليشرب، فأعطته كوزاً، فقالت: اشرب قليلاً. قال: فأخذه وشربه كله. فلما أخذت الكوز منه وقد شرب الماء كله، قالت له: قلت لك اشرب قليلاً وشرب كلاً.

قال لها: ما شربت إلا قليلاً! قال الله تعالى: ﴿قل متاع الدنيا قليل﴾.

وعوتب ذات مرة على فتيا في مسائل الرخص للناس، بيني وبينهم النسيان.

وبلغنا أنه دخل ذات مرة قسطالية، فرأى نساءها متبرجات مكشوفات فقال: ما أكثر خدم هذا البلد، حملهن على أنهن لسن بحرائر.

وبلغنا أنه شمر ذات ليلة، فوطىء برجل على شيء رطب، فقال: ما أكثر طعام هذا البلد!

وحدّث غير واحد من أصحابنا أن أبا الربيع مرَّ بريصة[3] فوجد فيها أربع فرق من فرق الاباضية متداهنين متساترين، وذلك في أيام أبي الخطاب وسيم بن سنتن، فأمر القضاء والأحكام عند أبي الخطاب، وأمر الفتيا إلى النكار، والإمامة في صلاة رمضان إلى الخلفي والأذان إلى النفاثي.

فلما قدم عليهم أبو الربيع، وجدهم مجتمعين على ما ذكرنا، وكان فيهم من الوهبية من ذكره كذلك. ثم إن أبا الربيع وجدهم في الحلقة فقعد في طرفها، وكان بجانبه رجل فأمره أبو الربيع أن يسأل عن سؤال استمسكه له.

وسأل الرجل صاحب الفتيا، وهو النكاري، فلما سمع المسألة، تعجّب بالسؤال وتوقف في جوابه وتلعثم.

فقال له أبو الربيع: أجب الرجل سؤاله. فألح السائل في السؤال، وأبو الربيع يقول، أجب الرجل سؤاله. فقال له النكاري، أجبه أنت! فقال أبو الربيع للسائل: كيف سؤالك؟ فأعاد الرجل السؤال، فأجابه، وزاد فأجابه، فقدموه وجه الحلقة يسألونه، والنكاري متروك لم يسألوه بعد.

وكان في الحلقة من أهل الدعوة من كره تساترهم، وتداهنهم.

فسأل رجل أبا الربيع، فقال له: ما تقول في النكار، يا شيخ؟

فقال: «هم كفار»!

---

(3) كذا في الأصل، أورده صاحب الترجمة في الهامش برسم: بريضة وقال انه ربما يعني روضة (ص 275، هامش 1).

فقال له: ما تقول في الخلفية؟

فقال: «هم كفار»!

فقال له: ما تقول في النفاثية؟

فقال: «هم كفار»!

فلما سمعوا بذلك التفتوا فيما بينهم، فقالوا: تكلموا على المجلس، فتكلموا فافترقوا.

فقام بعض أصحاب أبي الخطاب إليه فأخبروه بما فعل، فقال له كأنه عجل على القوم، فقال لهم أبو الخطاب، كلا: إنه فصل لكم دينكم على حدة.

وبلغنا أن أبا الخطاب وسيم، عاتبته نفوسة في أربعة أشياء: قالوا له: إنك التزمت الأمور ليقظان وتغرم اليتامى والأرامل بالظلمة. وتستفتي نكاريا، وتقدم في الصلاة خلفياً.

فلما بلغه كتابهم وعتابهم، استعبر وبكى وقال: الحمد لله الذي جعل لي إخواناً يعاتبونني على ما بلغهم عني قبل يوم القيامة.

ثم انه كتب إليهم:

«أما ما ذكرتموه من التزامي من الأمور ليقظان، لم التزمها ليقظان، وإنما التزمتها احتساباً لله. وأما ما ذكرتموه من أموال الأيتام والأرامل، فإن الظلمة إذا قبلت إليهم أمرتهم أن يداروا عن أنفسهم. وأما الاستفتاء في النكار، فلم أحكم إلاّ بما عندي. وأما تقديمي في الصلاة الخلفي. فإني إذا صليت الفريضة ناديت يا فتح، فيتقدم، فيصلي بالناس، ولم آمره بالتقدم، والسلام»(4).

---

(4) هذه الفقرة غير واردة في الترجمة.

وبلغنا أن رجلاً من أهل القيروان كان عنده في العلم أن من بنى مسجداً في موضع معروف، يقال له تبازريوت، بقرب بحر جربة أنه مسلم عند الله.

قال، فخرج الرجل من القيروان متجهزاً لبنيانه، فلما وصل إلى ذلك الموضع، وجد أبا الخطاب قد سبقه وبنى مسجده به.

وهو اليوم معروف.

وحدث علي بن يحيى، قال أتى رجل إلى أبي الخطاب وهو لم (يكن) يعرفه، فقال له، لي عليك دينار، فأعطينيه، فقال له أبو الخطاب لا أعرفك، فمن أين لك علي دينار؟

فألح عليه الرجل في الطلب، فتأمله أبو الخطاب ملياً، فقال: إن خصومتي معك لعار، فانتزع ديناراً فأعطاه إياه.

وبلغنا أن أبا الخطاب أتاه رجل من أغنياء بني يهراسن، وكان له أخ فقير صعلوك يقال له تينون، فسأل الشيخ أبا الخطاب إن كان يجوز أن يدفع إليه من زكاة ماله.

فقال له أبو الخطاب، ائتني به، فأتاه به، فاستتابه الشيخ، فقال له: تبت، يا شيخ. فقال لأخيه، ادفع إليه صدقة مالك.

ثم قال الشيخ لتينون، ألبسناك لباس التقوى، فإن تعريت منها فلا يقتلك إلاّ الجوع، فتغير تينون بعد ذلك، فابتلاه الله بالجوع، وكان ذلك في عقبه من بعده، فاستجاب الله فيه لأبي الخطاب.

ولما مات أبو الخطاب، قالت امرأة معافرية من ذرية أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح، رضي الله عنه، وهي تندبه وتبكيه، قالت: «لما

مات أبو الخطاب مات الحق وبقيتم ها هنا، يا زواغة، ببطون كالأخرجة، وعمائم كالأبرقة وأحكام متعوجة».

وبلغنا أن أبا الخطاب وأبا أيوب بن كلابة الزواغي، خرجا ذات يوم في بعض حوائجها، فأبصرا ليلة القدر، فدعا أبو الخطاب وسأل لأمر آخرته، ودعا أبو أيوب أن يرزقه الله دنيا يصيب منها الآخرة.

فقال له أبو الخطاب، ماذا تفعل يا أبا أيوب! كنا في موقف عظيم، فتتعرض للدنيا وذكرها؟

فقال له أبو أيوب: إن لم أنل بها الجنة، فلا رزقنيها الله، وكانا جميعاً في بريصة.

ثم ان الله تعالى بسط الرزق على أبي أيوب، فاتسعت عليه الدنيا بأوسع ما يكون.

وبلغنا أنه إذا جمع عرمة في الأندر ليدرسها بريصة، رآه من بجزيرة جربة، وأنه أطلق يده في ماله بالنفقة للوارد والصادر والغائب والحاضر، فإنا نرجو أن ينال الآخرة من دنياه، كما سأل.

وبلغنا أنه نزلت به رفقة ليمتاروا، ففتح لهم مطمورة، وهو الجب من القمح، فلما بردت أنزل ابنه فيها لينظر ما فعلت، فلما دخلها الغلام، قال له أبوه ماذا فعلت المطمورة يا بني؟

فقال الغلام، حسنت يا أبت، الا . . . فقال له أبوه، وما ذلك، قمحها قمح الجنة!

وبلغنا أنه قال لابنه، اخرج، أي بني، فخرج الغلام، فأعطى منها لأهل الرفقة لكل واحد منهم ثمني (. . .) قمح لزادهم، وأنفق البقية من المطمورة حتى أتى على آخرها.

وحدث بعض أصحابنا عنه أنه جاءته جماعة من مشائخ أهل الجبل في سنة شديدة بالمحل والقحط، وقد تمكن بالناس الجوع والهزال.

فلما نظر إليهم أبو أيوب، وقد دهاهم أمر السنة، أنزلهم ومكثوا عنده شهراً يذبح لهم في كل ليلة كبشاً، وكل يوم كبشاً. وكان عدة ما ذبح ستين كبشاً، بغير ما أنفق عليهم من الطعام.

ثم انهم سمعوا برخص الطعام في جزيرة جربة، فأرادوا أن يرسلوا ما معهم ليمتاروا منها، فأرسلوا إلى أبي أيوب أبا مسور يسجا بن يوجين، رضي الله عنه، ليخبر أبا أيوب مرادهم.

فلما وصل أبو مسور إلى أبي أيوب أخبره بمراد الشيوخ، فقال له أبو أيوب، وجد مكتوباً على حجر في طرف البحر ثلاث كلمات: الأولى، «لا يركب البحر إلاّ ذو خطر أو جاهل مغرور» والثانية: «مالي، مالي، ما دام في كمي! فإذا خرج من كمِّي صرت مدعياً» والثالثة: «من يعطي ماله على القراض يعتريه منه البرسام».

فرجع أبو مسور إلى المشائخ فأخبرهم بما قال أبو أيوب وكان أبو مسور إذ ذاك شاباً حدث السن.

فلما جاء الشيخ استفهموه واستخبروه ثانية، فقالوا له، كيف قلت لأبي مسور؟ فقال لهم أبو أيوب، الأمر ما قال لكم أبو مسور. فإنه أخذ تشقيق الكلام من بني سلاوة، وهم أخوال أبي مسور. ثم ان أبا أيوب أطلق بغال المشائخ في الأندر تأكل كما أرادت. فقال بعضهم، عجباً للشيخ أبي أيوب، كيف يصنع بزكاة ماله. فلما كان وقت إخراج الزكاة، أخذ في الكيل، فصار يكتال ويخرج العاشرة والتاسعة والثامنة والسابعة والسادسة. ثم يرجع فيخرج العاشرة والتاسعة والثامنة والسابعة والسادسة، وكذلك حتى يفرغ زرعه. فتعجبوا (منه).

ثم انهم امتار لهم من عشوره، وكان في تلك الجماعة رجل يسمى أبا يعقوب الدمري، ومعه ابن له فقال لهم اجعلوا للصبي حظه.

فقالوا له إن كان متولياً لك نجعل له سهمه، فقال لهم دعوني أبيت معه الليلة، فلما أصبح، قال لهم، أعطوه، فإني قد توليته الليلة، فأعطوا له سهمًا[5].

وبلغنا أنه خرج ذات مرة في عدة من أصحابه، يريدون زيارة نفوسة، الجبل. فبينما هم يسيرون إذ نظروا إلى رفقة أقبلت إليهم، فظنوا أنها عسكر العدو، فنزلوا عن بغالهم وهربوا إلى الجبل، فباتوا فيه.

فلما جنهم الليل، قال لهم أبو أيوب، حين أيقن أنه يبقى بلا عشاء، إن عندي ألف قفيز من طعام بالقروي والجربي، وعندي ما يلوثه من الزيت أو ما يؤكل بها، وأنا أبيت بلا عشاء، وخير ما يدخر المرء التقوى.

ثم ان أهل الرفقة جازوا على بغال الشيوخ، فعقلوها وأخذوها ومضوا بها.

---

(5) هذه الفقرة غير واردة في الترجمة.

الافتراق الخامس من الإباضية :
خبر الشكاس وانتحال مذهبه

وذكر عدة من أصحابنا أن الشكاس كان يكنى أبد الله، وكان أبوه رجلاً صالحاً.

وبلغنا أن أباه توجه إلى الحج، قبل مولد ابنه، ابد الله، فلما كان في سفره، رأى، فيما يرى النائم انه قد ولد عنده شيطان.

فلما رجع إلى أهله، وكان مسكنه بقنطرارة، وجد ولداً ولد عنده، فسماه أبد الله. فنشأ الغلام، فلما احتمل الأدب، أدخله أبوه في الكتاب، فقرأ وحفظ فلما اشتدوبلغ الحلم، سوَّلت له نفسه طلب العلوم.

فلما بلغ منها منيته، دعته نفسه وسوًّلت له مسائل خالف فيهن اهل العدل، وهي سبع مسائل:

الواحدة منهن، ابطال سنة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وابطال رأي المسلمين، وأن الله أغنى بكتابه أهل العقول عن غيره، فليس من رأي ولا سنة.

والثانية، ان الصلاة بالجماعة بدعة. والثالثة ان الاذان بدعة. فاذا سمع هو واصحابه اذان الصلاة، قالوا: نهيق الحمير!

والرابعة ان الصلاة عنده لا تجوز بشيء من القرآن، الا بما عرف معناه وتفسيره.

والخامسة ان الأجنة نجسة بما يعتريها من سماد بني آدم.

والسادسة ان الصلاة لا تجوز بثوب فيه قمل. والسابعة ان الأندر اذا بالت فيها الدواب، لا يطهر القمح الذي تدرسه الا بالغسل.

وحدّث أبو الربيع، سليمان بن يخلف، رضي الله عنه، عن ابي يعقوب، يوسف بن نفاث، رضي الله عنه، قال أدركنا بقية اصحاب ابد الله الشكاس، اذا قرب وقت الصلاة، خرجوا متخبين عن الناس فذهبوا لأنفسهم، فصاروا يصلون فرادى.

وبهذا الإسناد، أخبرنا، قال، ادركنا جماعة من المشائخ بقسطالية يصلون على موتى اهل القبلة، كلهم، الا اصحاب الشكاس. فاذا مات منهم احد جعلوا في رجله مرابط فيجرونه الى موضع يوارونه فيه.

وحكى أبو الربيع، سليمان بن يخلف، رضي الله عنه عن أبي يعقوب يوسف بن نفاث[1]، عن أبي الربيع سليمان، من أهل تميجار أنه قال، ان من العلماء من يقول انهم مشركون، ومنهم من يقول انهم منافقون، يعني الشكاس. وكان مذهب الشكاس لم يجاوز قسطالية، بل لم يجاوز قنطرارة، ولم تكن لهم بقية حتى فنوا عن آخرهم.

(1) راجع أخباره في سير الشماخي (ص 466-467).

أخبار أبي القاسم يزيد بن مخلد
وأبي خزر يغلي بن زلتاف[1] الوسيانيين
أيّدهما الله

كان أبو القاسم وأبو خزر الوسيانيان، وأبو القاسم أسن من أبي خزر وكان مسكنهما بالحامة، وكان الذي تعلما عنده الأصول وأخذاها (هو) حسنون[2] بن أيوب. وأما غير ذلك من مسائل الإعراب واللغة، وفنون العلم، فعن أبي الربيع، سليمان بن زرقون النفوسي.

وكان أبو القاسم ذا مال كثير، وأما أبو خزر، فلم يكن كذلك، وإنما كانت معيشته من كسب يده. وكانا في أول ابتدائهما يقرآن كتاباً واحداً. فإذا قام أبو خزر إلى إصلاح معيشته، قرأ أبو القاسم واشتغل في قراءة كتابه ودراسته.

فإذا رجع أبو خزر من طلب معاشه، قال لأبي القاسم: ارجع إلى حيث قمت عنك، فيقول له أبو القاسم، نعم، لي مرتان ولك مرة، فيرجع أبو القاسم، فيعيد ما قرأ بعده.

---

(1) نقل الدرجيني في الطبقات (119/1 وما يليها)؛ والشماخي في السير (ص 346 وما يليها)، ترجمة أبي زكرياء للشيخين دون أن يضيف أحدهما شيئاً يذكر إليها. وفي مقابل ذلك تشتمل ترجمة أبي الربيع الوسياني على إضافات مهمة ولا سيما فيما يتصل بالفتوى والشؤون الفقهية المخطوطة المحققة (ورقة 44 وما يليها).

(2) كذا في الأصل وفي النص المترجم، وفي طبقات الدرجيني: سحنون.

وكانت تلك حالهما حتى بلغا من العلم مبلغاً عظيماً فعقدا الحلقة ويأتيهما من أهل الدعوة من كانت له رغبة في العلم والأدب وسير الصالحين، ويتعلمون عندهما حتى اشتهر أمرهما وعلا ذكرهما.

وكان أبو القاسم يطعمهم وينفق عليهم من ماله، وأبوه مخلد إذ ذاك حي. فقال بعض الحاضرين لأبيه، مخلد، إن ابنك هذا مجنون، يعلمهم ويطعمهم. وتزوج أبو القاسم امرأة يقال لها «الغاية».

وبلغنا عن أبي القاسم أنه سأل عن رجل من التلامذة، فقيل له تزوج. فقال: ليبلغني موت واحد من التلامذة أحب إلي من تزوجه، فقالت له زوجته، الغاية: فلم تزوجت أنت إذاً؟ فقال لها لو علمت أين كانت مسألة ليست عندي، لشددت رحلي إلى سجلماسة، وما أخاف أن يعذبني الله إلاّ على الجهل.

وبلغنا عن زوجته الغاية أنها سمعت من قرأ القرآن قراءة السر في الصلاة بتكييف ولم يحرك شفتيه أنه يعيد صلاته. فلما جنها الليل، أقبلت على الصلاة تحتاط لصلوات سنة في ليلة واحدة. وكانت عادتها قبل ذلك الصلاة بالتكييف.

وبلغنا أن أبا القاسم وأبا خزر ومن معهما من التلامذة كانوا ببعض أحياء البربر، فقصد إليهم رجل من النكار، فأظهر الرجوع عن مذهبه إلى أهل الدعوة، فمكث عندهم دهراً طويلاً يتعلم ويتكيف من الشيوخ غرة وأظهر على نفسه حالة حسنة، وإنما أراد من يغدر به من المشايخ.

ثم ان أبا القاسم انتبه ذات مرة من القائلة فقام منتحياً عن الحي ليتهيأ للصلاة، وقد أخذ كل واحد من التلامذة في جهته يشتغلون في وظائف الصلاة، فنظر الرجل النكاري إلى أبي القاسم منفرداً عن الناس مبتعداً عن

الحي، ولم يكن معه أحد، فنظر إلى رماح التلامذة مركوزة بجانب خصّ فتيممها وأخذ منها رمحاً ولم يشعر به الشيخ فتبعه.

فلما بعد الشيخ عن الحي، قصد نحوه فطعنه من خلفه، فأخذ الرمح على جانب الشيخ وخرج الرمح من ثيابه أمامه. وكان الشيخ لابساً محشوة فأخطأ الرمح جسد الشيخ فصادف محشوته بحمد الله، فقامت على الرجل الصيحة، فابتدره الناس من كل جانب فأخذوه، فصاروا يجرونه ويسحبونه إلى المشائخ ولم يريدوا أن يحدثوا فيه حدثاً إلاّ عن رأي المشائخ. فقال لهم رجل أمهلوني حتى أسأل المشائخ.

قال، فتوجه نحوهم يريدهم، فلما كان ببعض الطريق، تربص قليلاً مقدار ما يصل فيه إلى المشائخ، فرجع إليهم، فقال لهم: يقول لكم المشائخ، اقتلوه ولم ير شيخاً، فقتلوه.

وبلغنا أن رجلاً من نفوسة نظر إلى أبي القاسم راكباً على دابة عليها سرج محلاة بالذهب بزينة حسنة، فقال له، يا شيخ، ليس هذا من سيرة أهل الدعوة وأفعالهم، فبكى أبو القاسم، رحمه الله، فأتى النفوسي إلى الجبل وأخبرهم، وقال لهم: لقد كلمت أبا القاسم ووعظته حتى بكى، فقالوا: بجهلك كان يبكي!

وكان لأبي القاسم عشرون جملاً وخلاخل يسافر بهم إلى القيروان وكان بها مشهوراً، عظيم المنزلة، معروفاً بالعلم والأدب والورع.

وبلغنا أنه إذا دخل مدينة القيروان، اضطربت المدينة كلها، من أجله بفنون العلم والسؤالات والمعضلات يدخرونها ليسألوه عنها، من المخالفين، أو ممن أراد تعلم مذهبه، فعظمت درجته فيها.

وروي عن الشيخ أبي نوح، سعيد بن زنغيل، رضي الله عنه، أن

أبا القاسم، رحمة الله عليه، جاز برجل من الوراقين بمدينة القيروان، يقال له أبو ابراهيم المشبه، فمر به، وهو يكتب تشبيه الله بخلقه، فتعجب به أبو القاسم، فجرى بينهما كلام كثير حتى قال له المشبه: إذ زعمت أن الله ليس بجسم ولا عرض ولا صورة، فأخبرني عمن أراد أن يبطل ربه، كيف يقول؟

فقال له أبو القاسم، رضي الله عنه: فليقل مثلما تقول!

فانقطع الكلام بينهما.

«وبلغنا أن رجلاً من أهل القيروان، سأل أبا القاسم عن بيت من الشعر فيه لغز، كيف تنشد هذا البيت:

قاد الجيوش لسبع عشرة حجة ولَداته إذ ذاك في تسعال

بفتح اللام في إنشاده من ولداته.

فقال له أبو القاسم: نصبه[3] ينزله. إنما هو بكسر اللام. فقال القروي لأصحابه، ان أبا القاسم لعالم كبير، فمن أنشد بفتح، فهو ذم، لأنه أراد السدوات (؟) ومن كسر، أراد الاتراب والاقران.

وكان أبو القاسم لما بلغ من العلم عظيم الدرجة رفيع الرتبة عند سلاطين القيروان[4].

---

(3) في الأصل: رفعه.

(4) هذه الفقرة غير واردة في الترجمة.

وبلغنا أن أبا تميم[5] بعث إلى الحامة جيشاً، وكان من عادته إذا سخط على قرية، أو مدينة أن يبعث مع جنده راية حمراء فهي أمارة السخط على تلك القرية أو المدينة، وله أيضاً، راية بيضاء، فهي أمارة لرضاه بعد السخط.

فسمع أبو القاسم، رحمة الله عليه أن أبا تميم بعث إلى الحامة جنداً فيهم الراية الحمراء وهو عالم بخبر الرايتين، فخرج مبادراً إلى القيروان، حتى وصل إلى أبي تميم.

فلما دخل عليه، سأله أبو تميم عن حاجته، فأخبره أبو القاسم عن حاجته واستعفاه عن الحامة، فعفا عنها، فأعطى له أبو تميم الراية البيضاء، فأسرع بها أبو القاسم السير، كي لا يسبقه العسكر إلى الحامة، فوافى أبو القاسم العسكر، كما وصل إليها.

فلما رأى العسكر الراية البيضاء، تنحُّوا عن الحامة فتركوها.

وكانت منزلة أبي القاسم عظيمة، وأبو تميم هو القائل فيه: «يزيد بن مخلد، لم تلد العرب مثله».

---

(5) هو الخليفة معد المعز لدين الله بن اسماعيل بن القائم بن المهدي الفاطمي، أبو تميم ولد في المهدية سنة 319 هـ، وبويع له بالخلافة بعد وفاة أبيه في سنة 341 هـ، وهو الذي وجه جيشاً بقيادة جوهر الصقلي في كتامة إلى المغرب في المرحلة الأولى وفتحه حتى سجلماسة (فيما عدا سبْتة)، ثم إلى مصر. في المرحلة الثانية وطوح بعرش الإخشيدي واحتلها وبنى القاهرة (سنة 359-361 هـ)، وشيد جامع الأزهر قبل أن يستولي على سورية وتقام له الدعوة بالحجاز. وقد غادر المعز الفاطمي إفريقية التي استخلف عليها بلكين بن زيري في سنة 361 هـ، ودخل القاهرة في 5 رمضان سنة 361 هـ.

راجع: سيرته في وفيات الأعيان (4/224-228)؛ الكامل (8/165-220)؛ البيان (2/221) هدية العارفين (2/465)؛ أعمال الاعلام (ص 24)؛ رسالة افتتاح الدعوة (279-282)؛ العبر (4/46)؛ اتعاظ الحنفاء (ص 134). وفي سياق أبي القاسم وما جرى له مع أبي تميم. راجع أيضاً سير الشماخي (ص 348 وما يليها).

وذكر أبو خزر، فقال: «يغلي عالم ورع». وذكر أبا نوح، سعيد بن زنغيل[6] فقال: «سعيد فقي مجادل».

وبلغنا أن أبا القاسم، رضي الله عنه، دخل ذات مرة على أبي تميم فطلبه أن يريه سيف رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ذا الفقار، فأمكنه منه وأراه إياه.

فلما أخذه أبو القاسم، رضي الله عنه، وهزه بين يديه، رعد أبو تميم منه، ثم قال أبو تميم، بعد ما رد له السيف لبعض وزرائه: لم آمن على نفسي حين أمكنت أبا القاسم من السيف، حتى دخل يدي، فتخوف من جهة أبي القاسم كثيراً، وطعن في أبي القاسم، رضي الله عنه، بعض وزرائه وأكثروا فيه الطعن.

وذكر أبو الربيع، سليمان بن يخلف، رضي الله عنه[7]، أن أبا القاسم، رضي الله عنه، تحدث مع يهودي فجرى بينهما كلام في أمر أبي تميم، فقال له أبو القاسم، رضي الله عنه، ليس بيننا وبينه إلاّ يسير، فنقوم عليه ونخرجه من تلك المدينة، إن شاء الله ــ يعني مدينة القيروان.

---

(6) راجع أخبار أبي نوح، سعيد بن زنغيل في سير الشماخي في سياق الحديث عن أبي القاسم (ص 349 وما يليها)، وكذلك في صفحة (349 وما يليها). وقد ترجم له الدرجيني الذي يصنفه بين علماء الطبقة الثامنة (سنة 350-400 هـ). وأورد كثيراً من أخباره ووصفه بأنه «أنجب من طالع ودرس، واحد من أحيا ما كان عفى ودرس، جبلته طلب الصلاحية والعلم» الخ.

راجع: الطبقات (361-353/2). وكذلك تعرض أبو الربيع الوسياني لذكر أخبار أبي نوح بن زنغيل في «سير مشائخ المغرب» (النسخة الخطية المحققة (15-14/2)، وفي الصفحات التالية سيورد أبو زكرياء كثيراً من القصص التي نقل معظمها عنه الدرجيني والشماخي.

(7) هذه الفقرة غير واردة في الترجمة.

فلما افترقا، قام اليهودي مبادراً، فبلغ قوله لأبي تميم. وبلغ المشائخ ما قاله أبو القاسم لليهودي، فاتوه وعاتبوه على ذلك ولاموه، وقالوا له: لو كنت على ذلك، فمثلك لا يفشي سره، ولا يهتك ستره، أحسن الله عزاءنا فيك!

وكان أبو القاسم، رضي الله عنه، وجماعة المشائخ، يخرجون أوان الربيع إلى ظعائن مزاتة، وكانت لهم بها قوة عظيمة، وعدتهم اثنا عشر ألف فارس، وأما الرجال، فلا يعدون.

وكثر الطعن في أبي القاسم، رضي الله عنه، عند أبي تميم ويذكر عنه أنه يريد الخروج عنه والقيام عليه.

ثم ان أبا تميم بعث إلى عامله بالحامة، يأمره بقتل أبي القاسم، رضي الله عنه، ويبعث إليه برأسه، فتلكأ عنه العامل، ولم يرد قتله، لمكانته عنده وعظم شأنه لديه وكان له صاحباً عظيمًا، فأشار العامل لأبي القاسم، رضي الله عنه، بالمسير إلى الحج.

فقال له أبو القاسم: قد حججت بعد. فقال له العامل: أنتم الوهبية[8] تحتسبون إعادة الحج وتؤثرونه لكثرة فضله.

---

(8) هم أتباع عبد الله بن وهب الراسبي الأزدي من الخوارج، عرف بعلمه وفصاحته وسداد رأيه، وهي الخصائص التي أهلته لأن يكون أول من طبقت عليه نظرية الخوارج القائلة بأن الخليفة ليس من الضروري أن يكون قرشياً، وذلك حين بايعوه وسموه «أمير المؤمنين». وكان عبد الله قد شهد فتوح العراق مع سعد بن أبي وقاص، وكان في صف علي في حروبه، حتى وقعت قضية التحكيم الذي ينكره عليه الخوارج، وفي مقدمتهم عبد الله بن وهب وتحولوا على علي وقاتلوه في معارك مشهورة في تاريخ الإباضية في النهروان، حيث قتل عبد الله بن وهب الراسبي، في سنة 38 هـ.

راجع: الكامل للمبرد (119/2)؛ طبقات الدرجيني (201/2-218)؛ وانظر فجر الإسلام (ص 256-260).

فقال له أبو القاسم: ليس لله علي أن أحج مرتين.

فاستبطأ أبو تميم عامله، فأرسل إليه كتاباً ثانياً يأمره فيه بقتل أبي القاسم.

قال، فأشار العامل إلى أبي القاسم بالخروج إلى ورجلان. فقال له أبو القاسم: لست أخرج من الدنيا وأنا حي. يريد بالدنيا قسطالية[9].

قال فاستبطأ أبو تميم إنفاذ أمره من عامله، فكتب إليه كتاباً ثالثاً يأمره فيه بقتل أبي القاسم، ويقول له: إما رأس أبي القاسم وإما رأسك!

فلما رأى العامل عزمه على ذلك وجده عليه، أيقن أنه إن لم ينفذ أمره، فهو هالك.

ثم ان العامل أرسل إلى أبي القاسم، فلما وصلت رسل العامل إليه، ركب دابته وتوجه نحوه. فلما دخل إليه قعد عنده، فدفع إليه الكتاب الأول الذي وجهه إليه أبو تميم و(الكتاب) الثاني والثالث.

فلما قرأ أبو القاسم الكتاب، قال له العامل: هذا الذي أقوله لك، ولست أؤثر عليك إلاّ نفسي.

فلما سمع ذلك منه أبو القاسم، علم أن لا بد من الموت، فقال له: أمهلني أركع ركعتين. قال فتركه حتى ركع وفرغ منها، نظر إلى البيت، فإذا

---

(9) وصف ابن حوقل قسطيلية بالعبارات التالية: «وقسطيلية مدينة كبيرة عليها سور حصين ولها نخيل كثير، والتمر والقسب بها كثير، وهي مغوثة أفريقية بتمورها، وفيها الأترج الكثير الحسن الطيب الزكي». وهذا الوصف اقتبسه الادريسي الذي يضيف بعض المعلومات، ولكن ياقوت يقتصر على إيراد بعض عبارات ابن حوقل ويشير إلى وصف البكري الهام لبلاد قسطيلية.

راجع: ابن حوقل (ص 92)؛ البكري (ص 48)؛ معجم البلدان (348/5)؛ الادريسي (ص 104)، وانظر كذلك تفاصيل ومراجع أخرى في كتابنا، المدن المغربية في الأدب الجغرافي العربي.

هو مملوء بالرجال، عليهم السلاح، فبادروا إليه ووثبوا عليه، رحمه الله، ولم يحتمل العامل أن يراه كذلك لما بينهما من الخلة والصداقة، طلع إلى غرف فوق البيت، فأغلق على نفسه الباب.

و(كان) في عضد أبي القاسم، رضي الله عنه، سكين، فسله فدافعهم به. فإذا دفعهم تفرقوا عنه، فتح العامل باب الغرفة وسره ذلك، فإذا اجتمعوا عليه، أغلق على نفسه الباب، كراهة أن يراه كذلك.

فكان كذلك حالهم وحاله حتى ظفروا به وقتلوه ومات شهيداً ومضى فقيداً، رحمة الله عليه ورضوانه ومغفرته.

فلما قتلوه وغيبوه، ابتدروا أبا محمد ويسلان[10] فأخذوه وقالوا له: أنت صاحب أبي القاسم، فحبسوه.

فقال لهم أبو محمد حين أخذوه: أين صاحبته؟ في المدارج أو (في) عريسا؟ وهما موضعان يقعد فيهما السلابة لقطع الطرق.

وكان أبو محمد شيخاً فاضلاً قارئاً للقرآن جهير الصوت. فلما انتهوا به إلى الحبس، تفرغ إلى قراءة القرآن، فاشتكى به أهل السجن أنه يسهرهم بقراءته ويؤذيهم، فأخرجوه من السجن.

وسئل بعد ذلك عن السجن، فقال: يصلح لقراءة القرآن!

---

(10) ترجم له أبو الربيع الوسياني في سيره (المخطوطة المحققة، ص8) باسم ابن محمد ويسلان بن يعقوب، وبهذا الاسم أيضاً، ذكره الدرجيني في الطبقات (127-126/1)، ولكن الوسياني يتحدث في مكان آخر عن أبي محمد ويسلان بن أبي صالح (ورقة 54)، وذلك في الوقت الذي يترجم له فيه الشماخي في سيره بابن محمد ويسلان بن أبي بكر.

راجع: السير (ص375) فهل تنطبق هذه الكنيات المتعددة على شخص واحد؟ المؤكد هو أن بعض العناصر التي تحتوي عليها ترجمة الوسياني تتفق مع بعض الأخبار التي يوردها أبوزكرياء والتي تشتمل عليها ترجمة الشماخي، وهو عامل يوحي إلى النفس ببعض الثقة في هذا التعرف.

خبر وقعة باغاي
وكيف كان خبرها ومنتهى أمرها

وحدث بعض أصحابنا أن أبا القاسم لما قتل، رضي الله عنه، بلغ في أهل الدعوة مقتله مبلغاً عظيمًا ولم يجدوا في أنفسهم أن يصبروا عن حقه وعن طلب دمه.

وعزم رأي الشيخ أبي خزر، رضي الله عنه، على القيام بثأره والطلب بحقه من الأئمة المسودة ـ هو ومن معه (من المشائخ)، ولكن لم يريدوا أن يحدثوا حدثاً إلاّ عن مشورة أهل الدعوة واستمدادهم.

فأرسلوا إلى ناحية طرابلس أبا نوح، سعيد بن زنغيل، رضي الله عنه، فتوجه أبو نوح إلى جبل نفوسة. وكان شيخهم ومن يرجع إليه أمرهم، أبا عبد الله بن أبي عمرو بن أبي منصور الياس النفوسي، رحمة الله عليه.

فجمعهم أبو نوح واستشارهم، فقالوا له: نحن في الضعف الذي تقدم ذكره، وهو الناجم عن وقعة مانو، ولكن كونوا على هيئتكم، فنحن معاً ونؤكد بما قدرنا عليه.

فرجع أبو نوح إلى جربة، فاستشارهم، وكان مراد العامة منهم طلب الثأر للشيخ، إلاّ ما كان من أبي صالح اليهراسني، رضي الله عنه، فإنه كره

ذلك، وقال لأبي نوح، لا تهيجوا لأنفسكم أهل الخلاف، فإنهم أكثر منكم عدداً ومدداً وأقوى يداً.

ولكن العامة (كانت تميل إلى الثأر) على ما رأى الشيخ أبوخزر ومن معه من المشائخ. ورفع أبو نوح إلى المشائخ (ما سمعه) وأخبرهم بما كان عند أهل طرابلس.

فاتفق رأي الشيخ أبي خزر، رضي الله عنه، ومن معه على أن يكاتبوا بني أمية في شأن أبي تميم، فأمروا أبا نوح أن يكتب إليهم كتاباً، فكتبه فأرسلوه إلى بني أمية، فأخذ الكتاب في الطريق، فانتهى إلى أبي تميم، فوقف عليه، فقرأه وفهمه، فزاده ذلك حنقاً.

وكان أبو محمد ويسلان ممن ذكر قيامهم وخروجهم على أبي تميم، وكان يقول لأصحابه، ليس لكم ما تقومون به في مزاتة.

ونظر ذات مرة إلى أبي نوح، وقد أكثر النجوى في أمر القيام على أبي تميم، فقال أبو محمد، سأعلم من أين يخرج نجواك يا أبا نوح.

ثم ان أبا تميم حين سمع بخروجهم عليه والتهيؤ لذلك، أرسل إلى المشائخ وقال لهم، ارجعوا إلى بلادكم التي وليتموها قبل هذا (العهد) في تاهرت وغيرها، فتكونوا على ما كان عليه أوائلكم ونكون على ما كان عليه أوائلنا. وكان مراد الشيخ أبي خزر، رضي الله عنه، أن يفعلوا ذلك ولكن العامة أبت إلاّ مناصبة أبي تميم وقتاله والطلب لثأر الشيخ.

ثم ان أبا خزر أرسل إلى ناحية الزاب[1] واريغ ووارجلان أبا محمد يستفزّهم ويستحشدهم.

---

(1) تمتد منطقة الزاب التي تقع حول بسكرة على نحو 120 كيلومتر من الشرق إلى الغرب وما يتراوح بين 30 و40 ميلاً من الشمال إلى الجنوب، وتنقسم إلى الزاب الشرقي، والزاب الشمالي، والزاب القبلي، وأهم مدن الزاب، بعد بسكرة، هي طولقة وطبنة =

وذكر يعقوب بن أبي اسحاق أن رسل أبي خزر ــ رضي الله عنه ــ، وصلت إلى وارجلان ليستفزّوهم، فأخذوا في التهيـؤ للخروج. وخرجوا في السلاح الشائك.

ثم ان أبا خزر ــ رضي الله عنه ــ اجتمعت عليه جموع [من] مزاتة تعد باثني عشر ألف فارس، وأما الرجال، فلا يعدون. وكان رجاء أبي خزر ــ رضي الله عنه ــ أن ينال حاجته ببعض مزاتة، فضلاً عن غيرهم.

وحدّث أبو عمرو، ميمون بن حمودي ــ رضي الله عنه ــ قال أدركت ألواح التلامذة الذين خرجوا إلى باغاي[2] بمسجد المنية، وكانت جماعة التلامذة الذين يتعلمون العلم ويتعلمون الفراسة، بفحص مسجد أبي خزر ــ رضي الله عنه ــ ثم ان الشيخ أبا خزر ــ رضي الله عنه ــ عقدوا له الولاية على الدفاع والطلب بحق الشيخ ــ رضي الله عنه ــ فإن أدركوا حاجتهم عقدوا له ولاية الظهور، فزحف الشيخ أبو خزر ــ رضي الله عنه ــ ولم ينتظر إمدادهم.

= وتهودة، ولو أن الحسن ابن محمد الوزان يذكر أن الزاب يشتمل على نحو خمس وعشرين مدينة، وذلك علاوة على عدد كبير من القرى (وزاب المغرب هو غير زاب العراق). ولربما اعتبر هذا الرحالة مدناً أخر من الجريد التونسي مثل توزر وقفصة ونفزاوة ونفطة، من ضمن الزاب، كما صنع ياقوت.

راجع: معجم البلدان (124/3)؛ البكري (ص 59)؛ ابن حوقل (ص 85)؛ الادريسي (ص 93 و 104).

وكـــذلـك: — De Lattre, Excursions dans le Zab Occidental (Société Archéologique et Géographique de Constantine) (1889);

— Marçais, les Arabes en Berbérie;

— Leon l'Africain, Description de l'Afrique, éd, Scheper (III/250).

(2) راجع وصف الجغرافيين العرب لمدينة باغاي في كتابنا، المدن المغربية في الأدب الجغرافي العربي.

فلما وصلت عساكره إلى باغاي، حاصر أهلها بأشد الحصار، ثم اضطرّهم إلى القصر القديم.

فلما اشتدّ عليهم الحصار، رجعوا إلى الأموال، فصاروا ينتهبون (ما في القصر القديم ويوزّعونها) في العسكر، فيرشون بها من يطمعون فيه نفعهم.

وبلغنا أن أهل باغاي جاعلوا ناساً من مزاتة يقال لهم بنو يليان على أن يجعلوا في أنفسهم الهزيمة، فكان بينهم وبين بدنة[3] ضغائن ودحول وثارات.

فلما التحم القتال، تنحّت بنو يليان وانحازوا إلى ناحية وألقوا في مسامع العسكر أن بني بدنة تخلّفت لهم [لتستولي على] أموالهم وأنعامهم ومواشيهم وأحيائهم، وجعلوا في أنفسهم الهزيمة، وانهزم العسكر.

وكان الشيخ أبو خزر والشيخ أبو نوح وجماعة التلامذة، في ساقة العسكر [ووقع عبء] القتال عليهم، وكان أبو نوح على فرس أدهم فاضطرّوه إلى الخندق وألجأوه إليه، فرمى بفرسه في الخندق وعاد فيهم حتى نفس على كثير من العسكر الهزيمة.

وبلغنا أن شيخاً منهم من بني عبود يقال له عبود من بني كريز، وعليه الحلقة، ركب فرساً له وقد قال له بعض تلاميذه قبل ذلك، يا شيخ، إنك على فرس، ونحن نخاف، إذا كان شيء مما نكره أن تتنحّى عنا وتمضي بفرسك وتفرَّ عنّا، فأنت راكب ونحن رجالة.

---

(3) كذا في الأصل وفي طبقات الدرجيني، وقد قرأ المترجم غلطاً: مديونة، مع أن مناطق مديونة في الغرب، بين تلمسان ووجدة، وجبل عمورة، جنوباً.

قال لهم عبود، لا أفر عنكم، إن شاء الله، فلما انهزم الناس كسّر عبود[4] وشكّل فرسه للقوم ليفي لتلاميذه بوعده وكثر معه تلاميذه، فما برحوا حتى استشهد واستشهدوا معه.

وحدّث أبو الربيع، سليمان بن يخلف ــ رضي الله عنه ــ عن أبي زكرياء بن أبي زكرياء[5] ــ رضي الله عنهما ــ أنه قال: مات في تلك الوقعة من التلاميذ عشرات: لم يفقهم أبو نوح سعيد بن زنغيل إلا بعلم اللغة، فافترق العسكر وكان الطلب على الشيخ (أبي خزر؟).

وحدّث يحيى بن أبي يحيى عن أبي عبد الله، محمد ابن الخير ــ رضي الله عنه ــ عن أبي وانودين أن أبا محمد جمالاً، لما استنفر أهل الزاب واريغ وورجلان، خرجوا في جموع عظيمة، فخرج خزرون بن فلفول، فلما وصل خزرون ومن معه إلى الموضع الذي يقال له أفودان تطلا[6] وكان بينه وبين باغاي[7] (مسافة قصيرة)، فيما قيل، والله أعلم، سمع بخبر الهزيمة فرجع، وأن أبا محمد توجّه بعسكره إلى الشيخ أبي خزر ــ رضي الله عنه ــ فتلقّى كتاب الشيخ أبي خزر ــ رضي الله عنه ــ ببعض الطريق، فدفعه له رجل، ففكّه وقرأه، ووجد فيه خبر الهزيمة، ففاضت عيناه دموعاً، فأمر الناس أن يرجعوا إلى منازلهم ومواطنهم، وأخبرهم خبر الشيخ أبي خزر ــ رضي الله عنه ــ.

وبلغنا أن أبا خزر قال عقيب الهزيمة: كنا عجّلنا بالتلامذة فاستهلكناهم.

---

(4) كلمة غير واضحة ويمكن أن تقرأ أيضاً عثر عبود.

(5) راجع سير الشماخي (ص 427-437).

(6) كذا في الأصل، وقد أورد المترجم رسمه العربي: أفودان لكلا.

(7) وردت الكلمة في الأصل محرفة: مغيلة.

وبلغنا أنه رأى ثلاثة رجال رؤيا في ليلة واحدة أن يسمّوا هذه الوقعة، وقعة الشهداء.

ثم ان أبا خزر ـ رضي الله عنه ـ لما انهزم العسكر، تنحّى وهرب إلى جبل يقال له تلتماجرت[8] ومعه رجل يقال له أبو محمد يوجين، فاستخفى الشيخ ـ رضي الله عنه ـ أربعين صباحاً حتى انقطع عنه الخبر وعيا عنه الأثر، وليس له طعام إلا الوبر يصطاده أبو محمد.

ثم توجّه نحو جبل نفوسة. وأما أبو نوح ـ رضي الله عنه ـ فتخفّى ولبس عباءة وصار يرعى إبلاً.

فلما بلغ أمر الهزيمة أبا تميم، خرج بعسكره مجدًّا في طلب الشيوخ من القيروان، وفرّق رسله في البلاد تفتش وراء الشيوخ حتى صادفت رسله أبا نوح يرعى إبلاً لابساً عباءة متنكّراً في زي راع.

فلما نظروا إليه عرفوه، فقالوا له: ليس مثلك يرعى الإبل، فقيّدوه في الحديد، ومضوا به إلى أبي تميم في قيده، فتلقوه في بعض الطريق، فألبسوه لباس الزنار وخلعوا عليه الخلق والأطمار، وحملوه على جمل، وكانوا يطوفون به في كل [مكان] مروا به وينادون به عليه: «هذا الذي سعى في فساد دين الله، سعى فيه زماناً، ونحن عقود. سعى فيه بجبل نفوسة واستمدّ الأمداد ووعد بالأصفاد».

ثم يقول المنادي، بعد ذلك: «وهذا كله، فيما قال ابن ورمجوج».

وكان حسن بن ورمجوج رجلاً نفوسياً، من نفوسة قنطرارة.

---

(8) هذا هو الرسم الذي أورده الدرجيني في طبقاته، ونص المخطوطة غير واضح وهو بالشكل التالي: بالصعر، وقد أورد المترجم رسم المخطوطة التي اعتمدها بالعربية: تسحرة.

وكانت أم أبي نوح ـ رضي الله عنه ـ قد تتبّعته حين يطوفون به. فإذا نظروا إليها أعجبتهم ويقولون: لا يلد السبع إلا اللبوة. فلما كان آخر النهار، نزل أهل العسكر فأنزلوه عن الجمل ووكّلوا عليه صاحب السجن.

قال، قال أبو نوح، فلما نزلت، وقد قرب غياب الشمس ابتدرت فتيمّمت لأصليّ، قبل أن يقتلوني، فنظر إليّ السجّان، وقال لي: يا سعيد، ادخل الخباء واسترح وأزل البرد عن نفسك، فعند ذلك تصليّ.

قال أبو نوح، فلما قال لي ذلك اطمأنّت نفسي ورجوت الحياة.

قال أبو نوح، وكان يأتيني رجل منهم فيقول: تركت رجال مولانا يتحدّثون فيك ويأكلون لحمك مضغة مضغة.

قال أبو نوح، فأقول، مولانا خير [كله]، فيبلغ ذلك أبا تميم عني، فيعطفه عليّ. فلما عفا عني أبو تميم وقرّبني، وكان الرجل يأتيني ويقول، يا حبيبي، يا حبيبي، فقلت له يوماً من الأيام، فهل ترى حبيباً يأكل لحم حبيبه مضغة مضغة؟

فقال لي، نحن رجال مولانا فمن أحبّه أحببناه، ومن كرهه كرهناه.

قال أبو نوح، ثم ان أبا تميم جمع أصحابه وتأمّلوا الكتاب الذي كتبته إلى بني أمية في شأنهم، وقد ذكر لهم أني كاتب الشيخ أبي خزر ـ رضي الله عنه ـ ومولى سره، فأرادوا استخراج خطي ليقيسوه إلى الكتاب المبعوث إلى بني أمية.

فقال لهم يهودي، أنا أستخرج لكم خطه.

قال أبو نوح، فبينما أنا في أيديهم إذ أتاني يهودي ببطاقة ومحبرة وقلم، فقال لي، اكتب إلى مولانا وأطلبه أن يعفو عنك واعتذر على نفسك واحتج لها، فإن مولانا كثير العفو. فوضع البطاقة وكل ما معه وجلس

ساعة، ثم خرج. فأخذت البطاقة والقلم وكتبت «بسم الله الرحمن الرحيم، سطراً واحداً في أولها، فألهمني الله، وذكّرني أمر البطاقة التي كتبت إلى بني أمية، فخفت أن يكونوا أخذوها وأرادوا استخراج خطي، قال، فقصصت ذلك السطر الأول الذي كتبته واستعملت كتابة خلاف الكتابة الأولى.

فلما كان بعد قليل، دخل إلّي اليهودي فأعطيت له الكتاب وحمله فرحاً مستبشراً، وظنّ أنه أدرك حاجته.

فلما وصل الكتاب إلى أبي تميم، جمع على نفسه الكتّاب والوراقين، فدفع إليهم كتاب أبي نوح، فقاسوه إلى الأول، فوجدوا حروفه كلها مخالفة لحروف الكتاب الأول، فاتّفقوا كلهم على أن الكتاب الأول ليس من خط أبي نوح، إلا رجلاً واحداً كان أحذقهم[9] في الخط، فقال أن الرجل الذي كتب الكتابين واحد، ولكنه بدّل الخط في الثاني.

فقالوا له، لو كان ما قلت صحيحاً، لوجدنا حرفاً واحداً قد اشتبه ولا يقدر على تبديل جميع الحروف، وإنما يقدر الكاتب على تبديل سطر واحد أو سطرين، أما البطاقة كلها فلا .

ثم ان أبا تميم بعث إلى أبي نوح، فجاءه في قيوده وزنانيره، فلما وصل إلى أبي تميم، وجده في قبة حمراء على سرير قوائمه من عظام الفيل، أحمر، وعليه ثياب حمراء، وعلى رأسه شاشية حمراء، وحول قبّته رجال بأيديهم الحراب. فلما نظر الشيخ أبو نوح إلى أمتعة أبي تميم كلها، وقد احمرّت، هاله ذلك وكاد يتيقّن بالموت، فدخل عليه وسلّم، وأطرق أبو تميم برأسه مليّاً ثم رفعه، فقال، يا سعيد، أحقاً كاتبتم فينا بني أمية؟

---

(9) في الأصل: أحرى.

قال أبو نوح، فقلت له يا سيدي، إن كان لا ترفع لي حجة ويقبل لي عذر، فمولانا فاعل ما أراد.

قال أبو تميم، بل ترفع لك حجة ويقبل لك عذر، فاحتج على نفسك واعتذر.

وكان أبو نوح فصيح اللسان، كثير البيان، فقال، كيف نكاتب بني أمية وقد علمت ما بيننا وبينهم، يوم الدار ويوم الجمل، ويم صفين، وهم الشجرة الملعونة التي ذكرها الله في القرآن؟

فلما سمع أبو تميم ذلك منه سرّه وتبسّم، وانطلق وجهه وسرّه ما ذكر في بني أمية.

قال، قال أبو نوح، فدفع إلّي الكتاب، فقال لي، أنت الذي كتبت هذا الكتاب؟

فحلفت له وقلت، والله ما هذا كتاب كتبته بيدي، واختلف من يمينه، فطائفة قالوا لم يحلف ولكنه جعل الميم زائدة. وقال بعضهم انه من البربر لا يفطن لذلك ولا يفهمه، قال أبو تميم: نعم! ما هذا بخطك؟ إلا إن غيّرته، يا سعيد. أرأيت لو صادفتني يوم باغاي، أكنت تتركني إلى غيرك؟

فقال له أبو نوح: لا أتركك إلى غيري. فقال لي، هذا هو أجمل ما قد أقررت به! فعلم أبو نوح أنه قد صدّقه في كل ما قال له.

ثم قال أبو تميم، يا سعيد، إن القيود التي برجلك إنما دخلت فيهما بالعلم ولا ينزعان إلا بالعلم.

فقال أبو نوح، عسى الله أن يجعل ذلك كفّارة لذنوبي. قال، فغضب أبو تميم عند ذلك وقال: فنحن إذاً لك مسيئون! عسى الله أن يجعله لك متصلاً بعذاب الآخرة.

قال أبو نوح، فلما عرفت الغضب في وجهه، قلت ليس في ذلك ما يثبت الإساءة لمولانا. ألا ترى أن الله جلّ ثناؤه يبتلي عبده المؤمن فيصبر، فيؤجر، وليس في ذلك ما يثبت للّه الإساءة.

قال أبو نوح، فرأيت فيه الانطلاق، وشفع في بلجين[10] ابن زيري بن مناد بن منكوس الصنهاجي، وكلّمه أن يحل وثاقي ويعفو عني.

فلما أجابه إلى ذلك، خرج أبو نوح، وأرسل له أبو تميم ثياباً نفيسة، وأمر أن ينزع عنه التي عليه والأطمار.

فلما وصلته رسله نزعوا ما عليه وحلّوا وثاقه ونحّوا عليه الأطمار والزنانير[11] وأرادوا أخذها، فأبى عليهم أبو نوح، فقال لهم: متاع مولانا كله حسن، فبلغه [أبو تميم] ذلك عني فزاد في تكريمي.

---

(10) بلكين (أو بلقين أو بلجين) بن زيري بن مناد، أبو الفتوح الذي سماه المعز العبيدي «يوسف»: تولى شؤون المغرب بعد رحيل العبيديين إلى مصر، وكان له في ولاية زيري، دور مهم في تثبيت سلطانهم، ولا سيما في المغرب الأقصى، كما قام الزيريون بنجد المهدية أثناء محاصرة أبي زيد الخارجي لها بالمواد الغذائية وغيرها. وفي أيامه ثار المغرب الأقصى وخلع طاعة الفاطميين وأعلن الولاء لخليفة قرطبة، فسار إليه بلكين وأعاده إلى حظيرة الولاء لخليفة مصر. وقد توفي بلكين في سنة 373 هـ.

راجع: العبر (155/6)؛ البيان (228/1 و239-318)؛ أعمال الاعلام (ص 26)؛ وفيات الأعيان (286/1-287)؛ وكذلك كتابنا، دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية.

(11) الطمر (ج أطمار) الثوب الخلق؛ وفي لسان العرب (51/2-52). (والزنارة) هو «ما على وسط المجوسي والنصراني». والزنير لغة منه. ومن ذلك قول الشاعر:

نحزم فوق الثوب بالزنير ... تقسم استيا لها بنير

قال، قال أبو نوح، وكان يرسل إليّ مرة فمرة. ثم انه أرسل إليّ ذات مرة فأتيته، فدخلت عليه وسلّمت، فوقفت بين يديه، فسألني عن أبي خزر ــ رضي الله عنه ــ وقال: أين صاحبك، يغلي، فقلت له، لا أدري.

فقال لي، لو كان صاحبك بغانة لجلبته دراهمنا. قال فقال لي، اتخشى أمره؟ فقلت إن كان السلطان أعطى الأمان للناس في بلادهم، فلا نخشى أمره، فإن لم يعطهم الأمان، فإنه يخشى أمره، فرآني نصحته، فبعث في أقاليم الوهبية كلها بالأمان ولا يهيج أحد منهم.

وحدّث أبو الربيع، سليمان بن يخلف ــ رضي الله عنه ــ عن أبي يعقوب بن يوسف بن نفاث ــ رضي الله عنه ــ أنه قال: إن أهل الدعوة في أمانه إلى يومنا هذا. وحدّث إبراهيم بن إبراهيم أن أبا نوح ــ رضي الله عنه ــ دخل ذات مرة على أبي تميم، فأمر أبو تميم خازن بيوت أمواله أن يملأ كم الشيخ مالاً، دراهم ودنانير.

قال أبو نوح، فدخلت مع الخازن إلى بيت المال، فكان يدفع لي وأرخي كمّي، فلا يكاد يمتلىء كمّي فيقول الخازن لي: ألم يمتلىء كمّك؟ فقلت لم يمتلىء (ولكنه امتلأ) حتى كدت لا أنهض به. ثم قلت له ان كمّي قد امتلأ.

قال، فخرج أبو نوح ودخل الخازن إلى أبي تميم، وقد امتثل ما أمره به لأبي نوح. فقال له أبو تميم: أملأت كم أبي نوح سعيد؟ فقال له الخازن: نعم.

قال، فأمر أبو تميم رجلاً أن يخرج إلى باب القصر لينظر ما يفعل أبو نوح بالأموال.

فلما خرج أبو نوح إلى باب القصر، وجد الناس أفواجاً، فصار يدخل يده في كمّه فيملأها ويعطي يميناً وشمالاً، حتى لم يبق في كمّه إلا مقدار مقبض اليد، فرجع الرسول إلى أبي تميم، فأخبره خبر أبي نوح، فقال، إن الشيخ لمجنون، يريد أبا نوح، يدخل يده في كمّه، فيعطي المال جزافاً.

فقال له أبو تميم، كلا، ما هو بذلك، ولكنه منتحل للرئاسة، فكان أبو تميم يجمع بين يديه علماء الفرق ويتكلمون بين يديه وقوفاً ويتناظرون، فيحكم بينهم، فحسنت أحوال الشيخ أبي نوح ـ رضي الله عنه، لعلمه وفصاحته وبراعته وبلاغته وعلمه بفنون الرد على المخالفين. ولذلك قال فيه أبو تميم: «سعيد فتى مجادل»[12].

---

(12) الصفحات التالية (من الورقة 131 حتى الورقة 161 من مخطوطتنا) غير واردة في الترجمة الفرنسية.

مناظرات أبي نوح، رضي الله عنه بين يدي أبي تميم

وبلغنا أن أبا تميم كان يرسل إلى أبي نوح ـ رضي الله عنه ـ يناظر بين يديه المخالفين. وبلغنا أنه أرسل إليه ذات مرة، فقال له، يا سعيد، سل ما بدا لك من السؤال.

قال أبو نوح، فبدأت، فقلت: ما الدليل على أن لهذه الصنعة صانعاً؟

قال فلبث جلساؤه حيناً ساكتين، ثم أخذوا في الجواب، فقالوا أقاويل كثيرة، فما وافقوا فيها بجواب قاطع.

فقال لهم أبو تميم، أجيبوا ابن زنغيل من حيث يفهم، وذلك لأنه لم يرض بأجوبتهم.

قال أبو نوح، فرأيت في وجه أبي تميم إرادة الجواب وما أراد أن يجيب ـ ولم أسأله ـ من كثرة أدبه وحسن سيرته. فقلت إن رأى مولانا أن يتفضّل على رعيته بالجواب، فليفعل. فرأيت في وجهه تبسُّمًا وانطلاقاً، فقال يا سعيد، يقال لهذا السائل اشرح سؤالك لكي تستحق جواباً، وفي شرح سؤاله جواب لقوله، وقوله صنعة دليل على صانع.

قال أبو نوح ـ رضي الله عنه ـ فأخبرت بهذا الجواب شيخنا أبا خزر ـ رضي الله عنه ـ فتعجّب به وقال، هذا جواب قاطع.

وذلك أيضاً أنه أرسل إليه أبو تميم ذات مرة، قال، قال له أبو نوح، فقدمت عليه، فوجدته ورجل من المعتزلة واقف بين يديه، فأخذ في مسألة الأسماء فأنصتّ إليه وفرغت ذهني إلى كلامه حتى عثر عثرة نجا منها، بحمد الله، فقال ان أسماء الله تعالى متغايرة، كزيد وعمرو.

فأقبلت الله بالكلام، فقلت له، إلى من كلامك إليّ أو إلى مولانا؟

فقال له السلطان، كلامك إليه، فقلت له: أليس قد قلت زيد غير عمرو؟ قال، بلى! قال: فقلت له، أليس لهما مغير غيرهما، فجعل زيداً غير عمرو، فقال لي، نعم! فقلت له، وكذلك الله والرحمان، هذا غير هذا، ولهما مغير غيرهما، فجعل أحدهما غير الآخر.

قال، فقطع السلطان جوابه، فقال: هذا هو الكفر بعينه، فخرجنا.

ثم ان أبا تميم أطال البحث عن أبي خزر ــ رضي الله عنه ــ حتى علم أنه بجبل نفوسة، فأرسل أبو تميم [إليه] بالأمان، وكان قبل يكاتب نفوسة في أمره، ويراسلهم في شأنه.

فلما سمع أبو خزر ــ رضي الله عنه ــ بالأمان، خرج من جبل نفوسة متوجّهاً إلى أبي تميم بالقيروان. وكان القائم على شأن أبي خزر ــ رضي الله عنه ــ والحافظ له، أبو زكرياء بن أبي عبد الله بن أبي عمر بن أبي منصور الياس، وأبو زكرياء إذ ذاك حين خدمته لأبي خزر، رضي الله عنه (. . .).

وحدّث غير واحد من أصحابنا أن أبا نوح قال، أرسل إليّ أبو تميم وقال لي، سر إلى صاحبك، فإنه قد وصل إلى قابس وما كنت قبل شعرت بموضعه، حتى قال لي، سر إليه.

قال أبو نوح، فطلبت إليه أن يرسل معي ناساً من مزاتة، فأرسل معي ثمانين فارساً.

فلما خرجنا عن السلطان، طعن فينا بعض جلساء السلطان، وقالوا للسلطان ان أبا نوح حين أصاب ثمانين فارساً، [يستطيع أن] يمنع بهم أبا خزر، إن أراد ذلك.

قال أبو نوح، فأرسل وراءنا ورجعنا، واستردّ كل ما كان معي إلا القليل.

ثم ان أبا نوح مضى متوجّهاً إلى أبي خزر ــ رضي الله عنه ــ بقابس.

فلما وصل إلى المدينة، وجد بها الشيخ أبا خزر ــ رضي الله عنه ــ فالتقيا وتصافحا، وهما يبكيان. قال له أبو نوح ما الذي جاء بك يا شيخ؟ أما تخاف على نفسك؟

فقال أبو خزر ــ رضي الله عنه ــ ما بين قدومي وقدومك إلا يسير. وقد علمت أن أبا تميم لا ينقض العهد ولا ينكث الميثاق. فجئت حين أعطاني الأمان، فسارا ومن معهما إلى القيروان، إلى أبي تميم.

فلما دخل عليه الشيخ أبو خزر ــ رضي الله عنه ــ رحّب به وأكرمه وتلطّف به وعظّم شأنه (عنده) وجعل له قدراً وجاهاً ومنزلة عظيمة. وكان يقعد معه على سريره، وغيره من الناس وقوف بين يديه لا يصيبون القعود.

ثم أن أبا تميم وافته رسله من مصر، وقد أخذها له عامله[1] وأراد

---

(1) وهو جوهر بن عبد الله الرومي، قائد العبيديين الذي دوخ المغرب وفتح لهم مصر في سنة 358 هـ. وبنى القاهرة وظل حاكمًا البلاد حتى حل بها المعز، عرف جوهر بالشجاعة والحنكة السياسية كما اشتهر بالفضل والإحسان، توفي هذا القائد في سنة 381 هـ.

راجع: وفيات الأعيان (380-375/1)؛ النجوم الزاهرة (28/4 وما يليها)؛ معجم البلدان (19/7)؛ ابن عساكر (416).

التوجه إليها بأهله وعياله وبيوت أمواله، وكانت مهمته أن يسير بالشيخين لخوفه من ثورتهما وخلافهما له ولم يرد أن يفارقهما، وكلّمهما في المسير معه إلى مصر، فقال له الشيخ أبو خزر ــ رضي الله عنه ــ وكيف بالقعود بعدك؟

وأما أبو نوح، فكره المسير معه.

وكان عند أبي تميم يهودي، وكان يعرف فضل أبي نوح وتعظيم قدره ويجري في مراده، فأعلمه أبو نوح أنه كره المسير إلى مصر.

فقال له اليهودي، خذ نخالة الشعير، فانقعها في الماء حتى الصباح، واشرب من مائها واغسل وجهك منها، ففعل أبو نوح ذلك، فاصفرّ وجهه، فتفقّده أبو تميم وسأل عنه وقيل له انه مريض، وجيء به فرآه مصفرّ الوجه، فظنّ أنه مريض، ورجع أبو نوح وراءه، ومكث قليلاً ولم يرسل إليه أبو تميم، فتوجّه نحو وارجلان، وسنذكر ذلك في موضعه إن شاء الله، بعد فراغنا من أحاديث أبي خزر، رضي الله عنه.

وبلغنا أن أبا تميم لما خرج من القيروان متوجّهاً إلى مصر وعزم على المسير مع أبي خزر ــ رضي الله عنه ــ وغفر له وللمسلمين أجمعين، آمين يا رب العالمين. وأنشأ (أبو خزر) يقول:

عليكم سلام الله إني مسافر	وما أدري بعد السفر إن كنت راجع
عليكم سلام الله في كل ساعة	سلام كثير دائم متتابع
وإني إذا ما هجت ليلاً بذكركم	أبيت حزيناً والنجوم طوالع
أحب لقا الإخوان في كل ساعة	فإن لقا الإخوان فيه نوافع
فيا رب فاجمع بيننا بسلامة	فإنك أنت للمشتّت جامع
وإلا فصبّرني على طول غربتي	فأنت لمن يدعوك يا رب سامع

أجب دعوتي يا ذا الجلال فإنني دعـوتك مضـطرّاً إليك وطـامـع

ألا ليت شعري عن غزال تركته إذا ما أتاه مصرعي كيف يصنع

أيلبس أثـواب السـواد مجــدداً على مالك للبعل أم فيه مطمع

ثم ان أبا تميم استخلف على أهل مملكته من أهل افريقية بلجين بن زيري بن مناد بن منكوس الصنهاجي، وأوصاه بوصاياه وقال له اشفني من أولاد المجوس، زناتة ومزاتة، وقال له إني تركت لك في افريقية مائة ألف منزل، فاجعل على كل منزل فارساً تكتفي به لمحاربته. فسار أبو تميم متوجّهاً إلى مصر، ومعه الشيخ أبو خزر ــ رضي الله عنه ــ.

فلما وصل الشيخ إلى لماية، أحسنوا القيام به وعظّموا درجته وقاموا بحوائجه وساءهم مسيره مع المسودة، فعند ذلك قال أبو خزر: «لماية أهل الدعوة».

وبلغنا أن أبا زكرياء فيصل بن أبي مسور[2] ــ رضي الله عنهما ــ خرج من جربة حين سمع بمسير الشيخ وتلقاه ببعض الطريق وسأله عن ثلاث مسائل.

وكان أبو زكرياء يحدّث بذلك ويقول، سألته فلم يجبني فيها إلا بما أحب.

ثم توجه أبو تميم بأهله وعياله وأهل مملكته وبيوت أمواله، يريد مصر. وكان أصحاب أبي تميم يطعنون في أبي خزر ــ رضي الله عنه ــ عند أبي تميم، لما رأوا من تعظيمه إياه وتفضيله عليهم.

---

(2) راجع اخباره في سير أبي الربيع الوسياني (مخطوطتي المحققة ورقة 24)؛ طبقات الدرجيني (1/67-168) الذي نقل معظم روايته عن أبي زكرياء. سير الشماخي (ص 371-372).

وبلغنا أنه سار ذات مرة في مركب من مراكبه، ومعه أبو خزر، فتعرّض له زرع، فشقّه أبو تميم وأصحابه، وعدل عنه أبو خزر ــ رضي الله عنه ــ ناحية، فتكلم أصحاب أبي تميم إلى أبي تميم في ذلك وقالوا له: عدل عن طريقك ولم يرض باتّباعك! فغضب عليه أبو تميم، وقال له: «لست ترضى بطريقنا يا أبا يغلى؟».

فقال له أبو خزر ــ رضي الله عنه ــ ألم تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «إذا غابت الثريا، فلا يدخل الزرع إلا ساقيه، أو واقيه، أو ناقيه: فأنا لست بساقيه ولا واقيه ولا ناقيه. وأما أنت، فواقيه».

قال، فتعجّب أبو تميم من بديهته وعلمه، وأعجبته فراسته وحسن جوابه.

قال أبو تميم لأصحابه: ألم أقل لكم انكم لا تقدرون ليغلى على شيء. فاعذر إليهم ألاّ يتكلموا فيه عنده بعد ذلك.

ثم ان أبا تميم وصل إلى مصر وتسامعت علماء مصر وفقهاؤها بأمر أبي خزر ــ رضي الله عنه ــ وبلغهم أن أبا تميم أتاهم بعالم من أرض المغرب، فأرادوا امتحانه [ومعرفة] مبلغ علمه، ولكن تخوّفوا من معارضته. واتّفقوا أن يصنعوا طعاماً ويدعوا إليه أبا خزر ــ رضي الله عنه ــ.

فإذا حضر الطعام أخذوا في الأكل، فمن أكل قليلاً رفع يده، فإن رفع الشيخ يده معهم قبل أن يقضي حاجته، علموا أنهم يظفرون به، وإن لم يشتغل بهم وأخذ في الأكل حتى يقضي حاجته، علموا أنهم لا يقدرون على شيء.

ثم انهم أحضروا الطعام وأحضروا الشيخ أبا خزر ــ رضي الله

عنه ــ وأخذوا في الأكل، فمن أكل قليلاً رفع يده، فتأخر الشيخ ــ رضي الله عنه ــ بعدهم حتى قضى حاجته، فمسح يده، فقالوا: ليس لنا طاقة بالشيخ، وعلموا أنهم لا يقدرون على شيء، فتركوا معارضته.

وبلغنا أن رجلاً من أهل تجديت، يقال له أبو سليمان، اصطحب مع الشيخ أبي خزر ــ رضي الله عنه ــ إلى مصر، وكان يحدّث ويقول: اصطحبت مع الشيخ أبي خزر ــ رضي الله عنه ــ ولم نحمل عنه إلا مسألة واحدة وهي: «إن المسلم من بني آدم أفضل عند الله من الملائكة».

ثم إن أبا تميم اقطع أبا خزر، رضي الله عنه، داراً وعقاراً وحسنت أحوال الشيخ عنده.

وبلغنا أن أبا خزر، رضي الله عنه، قال: وما همني إلا ما مضيت به لأهل الدعوة من مسائل بالرخص، ولكن من عمل بهذه الآية فأنا ضامن له الجنة، قول الله: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾.

وبلغنا عنه أنه قال: لو أصبت من فتيان أهل الدعوة عشرين فتى يتعلمون، لكفيتهم مؤنة العيش من المأكل والملبس حتى الكراء الذي يكرون به، فينالون من العلم مرادهم.

وحدث أبو الربيع، سليمان بن يخلف، عن أبي عبد الله محمد بن بكر، عن أبي نوح، سعيد بن زنغيل، ــ رضي الله عنهم ــ أنه قال: وقد ذكر أبا خزر رضي الله عنه، فقال: ما أورعه! ما يسمع بشيء من الفضائل قط إلا علمه. وكانت عادته، إذا صلى بالناس، صلاة الصبح يستفتح

بالقرآن ويتنحى ناحية فيقبل على الدعاء والتضرع إلى الله تعالى حتى تطلع الشمس. وكان جامعاً لخصال الخير والعلم والحلم والفراسة.

وبلغنا عنه حين كان بأرض المغرب أن بني يكون وبني واسين التقوا فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى بلغت الهزيمة إلى حي بني واسين، وأبو خزر، ـ رضي الله عنه ـ على فرس له واقفاً. ثم انه نظر إلى الغاية، زوج أبي القاسم، رضي الله عنه، وقد أدركتها السلابة وأخذوا في نزع ثيابها، فرمى بفرسه فيهم وهزمهم وحده، وقتل منهم عدة وانهزموا واتبعهم بنو واسين.

فلما كان بالغد أتاهم أبو خزر، رضي الله عنه، ليصلح بينهم وبين اخوتهم، فلم يزل حتى أصلح ما بينهم، فلم يكترث بما فعل بهم بالأمس.

وبلغنا عنه أنه نظر إلى هيئة تلميذ قد أمسك لوحاً، فخاله من أهل الدعوة، فتبعه ووجده نكارياً. فرجع عنه.

ثم ان جماعة من التلاميذ جازت عليه، فقال لهم: انا لنقنع في غيركم بسببكم لأنهم قالوا، من غيب وجهه عن أخيه المسلم، فهو هالك.

وبلغنا عنه أنه أعطى بطاقة لأبي نوح، سعيد بن زنغيل، رضي الله عنه، يكتبها إلى بعض أمراء المسودة، وكان الشيخ يملي عليه ويدعو للأمير بالدعاء الحسن الذي لا يستحقه إلا المسلم والإمام العدل، فقال له أبو نوح، رضي الله عنه: أتفعل هذا، يا شيخ، للرجل الكافر؟

فقال له الشيخ: إنا كنا معهم كوناً لو قلنا لهم، لكم الدنيا والآخرة، لوسعنا ذلك.

وحدث غير واحد من أصحابنا أن أبا تميم، لما مات ولي من بعده ابنه وصلت الضيعة إلى الشيخ أبي خزر، رضي الله عنه، حتى قدم رجل

من المعتزلة مصر من بلاد المشرق يطلب المعارضة والمناظرة في الفرق، فكل من خرج إليه من علماء مصر ليناظره، غلبه المعتزلي، فشق ذلك على أهل مصر وشكوا ذلك إلى السلطان، فجمع أصحابه ووزراءه وأهل مشورته، فاستشارهم في أمر المعتزلي، فقال له بعض من أدرك أباه، أبا تميم، إن هناك شيخاً جاء به أبوك من أرض المغرب يكرمه ويصفه بالعلم ويعظم منزلته ويرفع درجته، ولا نظن أحداً يقدر على ا لمعتزلي إلا هو، يقال له يغلى: فلو بعثت إليه ليخرج إليه فيناظره.

قال، فبعث السلطان في طلب أبي خزر، رضي الله عنه، ليخرج إلى المعتزلي، فلما وصل الرسول إلى أبي خزر، رضي الله عنه، أخبره بأمر السلطان. فقال أبو خزر: ليس لي لباس أحضر به المجالس، ولم يكن معي ما أركبه.

فرجع الرسول إلى السلطان، فأخبره بقول الشيخ، فبعث إليه السلطان بغلة يركبها ولباساً يلبسه.

فلما وصلت البغلة واللباس إلى الشيخ، لبس الثياب وركب البغلة.

وخرج المعتزلي، فلما وصل إليه، وجده في قبة قد نصبها في الفسطاط للمناظرة، فاستأذن عليه الشيخ، فأذن له، فدخل وسلم، وسأله أبو خزر عن أحواله وفيما يمشي فيه؟ فقال المعتزلي: في المناظرة.

ثم إنهما تناظرا، فكل باب من أبواب العلوم ناظره فيه أبو خزر، رضي الله عنه، غلبه فيه. فتعجب المعتزلي فقال لأبي خزر، أين تعلمت؟

فقال له أبوخزر، في بلاد الشيح والحلفا. فقال له المعتزلي: كذبت حاشا لبلاد الشيح أن يتعلم فيها مثلك.

وروي عن أبي سليمان المذكور الذي اصطحب الشيخ إلى مصر،

أنه قال: الحمد لله، ما دخلت معه باباً من أبواب العلوم إلا غلبته فيه، وقد يعلم الإنسان غالبه.

ونظر أبو سليمان أيضاً إلى الشيخ أبي خزر، ــ رضي الله عنه ــ يقرأ مصحفاً، فقال له: يا شيخ، أراك تقرأ في المصحف والكتب حاضرة. فقال له الشيخ: إنما ينظر في الكتب ويقرأ فيها من يستفيد منها. وأما من لا يستفيد منها، فأفضل له قراءة المصحف.

وبلغنا أن أبا خزر، رضي الله عنه، صلى بالناس، فوقع الصرد على رأسه من طول سكونه ووقاره في الصلاة، فأحس به من كان خلفه من الناس، فضحكوا، فانتقضت عليهم الصلاة، ومضى هو في صلاته حتى أتمها.

وكان الشيخ أبو القاسم، هو الذي يتقدم للناس في الصلاة. فلما كان ذات يوم أقيمت الصلاة، فقدوا الشيخ أبا القاسم، فتقدم أبو خزر.

فلما تقدم، أحس بأبي القاسم قد جاء، فتأخر وراءه، وقال له، تقدم يا شيخ، فتقدم الشيخ أبو القاسم، رضي الله عنه، فصلى بالناس.

وأما أبو الربيع، سعيد بن زنغيل، رضي الله عنه، فلما هرب من أبي تميم، توجه نحو وارجلان هارباً بظعائنه واهله مستخفياً.

فلما وصل إلى البركات التي يقال لها تيرسين، أرسل إلى الشيخ أبي صالح جنون بن يمريان، فرد إليه الرسول، وقال: لا تخف، نجوت من القوم الظالمين.

فلما انتهى أبو نوح ــ رضي الله عنه ــ إلى وارجلان، أكرمه أهله وحفظوه وعظموا درجته وأحسنوا القيام به، فملأ له الشيخ صالح جنون، رضي الله عنه، بيتاً إلى السقف بالتمر، وأجرى عليه مائدة بكرة وأخرى عشية.

وبلغنا أنه قعد معه ذات يوم وقال له أبو صالح، رضي الله عنه: اجعل يدك في جيبي، فإن أصبت شيئاً فخذه واغسل به ثيابك.

فجعل أبو نوح، رضي الله عنه، يده في جيبه، فوجد فيه صرة وفكها، فوجد فيها سبعين ديناراً.

فعند ذلك قال أبو نوح: من كان له أخ مثل جنون ابن يمريان لا يعدم شيئاً.

وكانت جموع أهل وارجلان تجتمع إليه في مسجد جنون بن يمريان، فسأله ذات مرة رجل من أغنيائهم، فقال له: أخبرنا يا أبا نوح بكل ما علمت من علوم الكلام الليلة.

فقال له أبو نوح: فكيف أخبركم بما أكلت في تعلمه أقفزة ملح في ليلة واحدة.

فمكث أبو نوح في ورجلان زمناً حسن الحال، ثم أراد الرجوع إلى بلاده وأخذ في أهبة السفر، فقال الشيخ أبو صالح جنون: اقعد في وارجلان وأقاسمك جميع ما ملكت، وكان الشيخ جنون ذا مال كثير في وارجلان فأبى عليه أبو نوح.

قال، فتوجه إلى افريقية، فلما وصلها، وجد البلاد قد تغيرت والصدور قد تنكرت.

وقال له بعض أصحابه قبل ذلك: ما الذي ردك، يا شيخ وأخرجك من وارجلان، وقد أحسنوا القيام بأمورك وقاموا بحوائجك؟ فقال له أبو نوح: الإخوان والاصحاب. وكان أبو نوح، رضي الله عنه، تارة بإفريقية، وتارة بقسطالية.

وبلغنا أن مقدم بني درجين، حنين بن ويحبتين[3] ممن يغدون إلى المنصور بن بلجين بن زيري، وكان عنده بمكان مكين، فتوجه إليه ذات مرة. فلما رجع من عنده وقد حباه وأكرمه وأعطاه، والشيخ أبو نوح، رضي الله عنه، وتلاميذه بقنطرارة. فسمع أبو نوح، ــ رضي الله عنه ــ برجوعه من عند السلطان، وخرج إليه أبو نوح بمن معه ومن تبعه من أهل المنزل ليتلقاه.

فلما انفصلوا عن المدينة، نظروا إلى جماعة سبقتهم، فإذا هم جماعة النكار.

فلما رآهم أبو نوح، رضي الله عنه، قد سبقوه وأصحابه، أمرهم بالقعود، وقال لهم دعوه، فإن سلم عليهم حنين وصافحهم قبلنا هاجرناه.

فلما قربت النكار من حنين وقد غشيهم، انصرف عنهم بفرسه ناحية، وأشار عليهم بالسلام بإصبعه وتركهم ومضى نحو الشيخ أبي نوح، رضي الله عنه، وجماعته.

فلما رأى أبو نوح، رضي الله عنه، ما فعل بجماعة النكار، قال لأصحابه: قوموا بنا لنصافحه، فقاموا.

فلما اقترب منهم، نزل عن فرسه ومشى إليهم.

وحدث أبو يعقوب، يوسف بن نفاث، ــ رضي الله عنه ــ أنه قال: كأني أنظر إلى حنين يسعى إلى الشيخ وأصحابه لابساً كساءة من خز وأشبوره يطعن كساءته حتى صافح الشيخ أبا نوح ومن معه، فاهتز أبو نوح لما فعل حنين فدعا له، وفي ولده بركة تلك الدعوة إلى يومنا هذا، فقال لهم حنين: ما همني غيركم وما كنت لكم عليه من أموركم لو مت في سفري هذا.

(3) كذا في الأصل. وفي طبقات الدرجيني: حنين بن وريغول.

وبلغنا أن أبا نوح أرسل إليه المنصور بن بلجين أن يسير إليه، فلما وصلت رسل المنصور إليه، توجه نحو دار حنين، وذلك عند الهاجرة ليستشيره في المسير إليه، إن خاف عليه منه أم لا.

فقال له حنين: إن أردت أن تمضي فإني لا أخاف عليك، وإن أردت أن تقعد، فإنا نمنعك ونخاف عليك. قال فدعا له بخير، ومضى أبو نوح، رضي الله عنه، متوجهاً إلى القيروان.

فلما وصلها، استأذنوا له على السلطان، فأذن له فدخل وسلم عليه وأكرمه المنصور وتلطف به وقربه وفضله على كثير من أصحابه.

وبلغنا عن المنصور أنه قال: إن رمحي لوهبي وإن فرسي لوهبي.

وكان أبو نوح، كما تقدم ذكره، عالماً بفنون المناظرات والرد على جميع أصحاب المقالات، فاجتمع ذات مرة مع أبي حمو بين يدي المنصور، فتناظرا، فبداه أبو نوح بالسؤال.

قال، قال أبو نوح: فقلت له: ما علامة الصنعة. قال: فقال الحدث، والحركة، والسكون، والانتقال، والزوال.

قال، فقلت له: كل محدث مخلوق. فقال وكابر على نفسه: كل مخلوق محدث وليس كل محدث مخلوق.

قال، فقلت له: الحدث على ضربين: محدث مخلوق ومحدث غير مخلوق. فيلزمك أن يكون القديم على ضربين:

خالق وغير خالق.
قال، فقال عند ذلك، بل القديم كله خالق.
قال، فقلت له: وكذلك المحدث، كله مخلوق.
قال: بل كل قديم خالق، وكل محدث مخلوق.

قال، فقلت: فالكفر إذا مخلوق، لأنه محدث.

قال، وهو جواب مضطرب. الكفر مخلوق لي.

قال، فقلت له: إذا كان الكفر مخلوقاً لك، فينبغي على هذا العيار والوزن، أن يكون مربوباً لك، ومأهولاً لك. فأنت، على هذا القياس، إله فعلك وربه.

قال، فقال، وهو مستخفي مضطرب: بل الكفر مخلوق لي، وليس يجب، إذا كان مخلوقاً لي، أن يكون مربوباً لي.

قال، فقلت له: ويلزمك، على هذا القياس أن يكون مخلوقاً لله، غير مربوب له. فإن الله خالق لما خلق من الأشياء، وليس بربها ولا الاهها.

قال، فقال لي المنصور: فما الذي يقول لك هذا الشيخ؟

قال، فقلت له: ياسيدي، يقول إن له خلقاً، ولله، عز وجل، خلق. فالله منفرد بخلقه.

فقال له المنصور، لقد جعلت لله شريكاً، ياشيخ، إذ قلت إنك تخلق، والله يخلق. فهذا هو الشرك بعينه!

وأنكر عليه قوله هذا، غاية الإنكار وقبحه عليه غاية التقبيح.

ثم إن أبانوح، عظمت درجته عند المنصور بن بلجين، فأجازه بجائزة سنية وأكرمه وأمره بالرجوع إلى أهله.

وبلغنا أن أبانوح، رضي الله عنه، ناظر ذات مرة يحيى الأعرج النكاري، وكان شيخاً من شيوخ النكار، وعالماً من علمائهم، فقال له أبو

نوح، أسألك في حجة السمع. أخبرني عن رجل مشرك، دعاه رجل من المسلمين إلى دينه، فأخذ يعلمه التوحيد، وهو يتبعه حرفاً بعد حرف، فما منزلته إلى أن يتم التوحيد؟ أهو على حالته الأولى من الشرك، أم مسلم. قال فقلت له: إن قلت مسلم فإذا، يسلم الناس ببعض التوحيد دون بعض. وإن قلت إنه مشرك، فبماذا أشرك بالذي سمع من التوحيد، أم بالذي لم يسمع منه؟

فوقف، فقال: لا أعلم.

قال، فقلت له: لا تستحي ولا تحشم، ولكنك بلغت مبلغاً لم تقف إلا في موضع وقف فيه عالمك وفقيهك، عبد الله بن يزيد. ولو وقفت دون ذلك أمكنك.

وبلغنا أن الشيخ كلمه بعض تلامذته، فقالوا له، أرأيت ان قال يحيى، إنما أشرك بالذي لم يسمع؟ قال لهم: فإن قال إنه أشرك بالذي لم يسمع، فهو الرجوع إلى قولنا: حجة الله تقوم بسماع وبغير سماع. وهذا قد قامت عليه الحجة بغير سماع.

وإن قال، إنما أشرك بالذي سمع، قال، فيقال له، إسرار التوحيد خير من إظهاره. ويلزمه أيضاً أن يكون ترك التوحيد إيماناً ويكون فعله كفراً.

وبلغنا أن رجلاً من أهل الدعوة ناظر رجلاً من النكار بمدينة توزر[4] فجرى بينهما كلام، فقال أحدهما لصاحبه: يا حمار، وقال الآخر، يا ثور، فخرجا من المدينة مغضبين، فشكا النكاري إلى النكار ما أصابه من الوهبي، واشتكى الوهبي إلى الوهبية ما أصابه وما دهاه، وأبو نوح بتوزر.

---

(4) راجع وصف الجغرافيين العرب في مختلف العصور لمدينة توزر في كتابنا، المدن المغربية في الأدب الجغرافي العربي.

ثم ان الوهبية والنكار اجتمعوا بفحص توزر، فكان بينهم قتال شديد وأسرع القتال في النكار واستحر فيهم الموت، فانهزموا وتبعهم الوهبية ليقتلوهم إلى تيقيوس، ولحق رجل من الوهبية يحيى الأعرج في الهزيمة، وكان يحيى ذميم الصورة، أشبه شيء باليهود.

فلما غشي الوهبي يحيى، قال له يحيى: لا تقتلني، فإني يهودي.

فقال له الرجل الوهبي، فكيف اقتلك موحداً وأتركك يهودياً! فقتله.

وبلغنا أن أبا جعفر أحمد بن خيران[5] ـ رضي الله عنه ـ أدرك رجلاً من النكار صريعاً في الهزيمة فأمسك عنه ولم يقتله، فقيل له بعد ذلك، لم لم تقتله، يا أبا جعفر؟

قال، خفت أن تقول الوهبية: هذا هو الذي قتل الرجل. وكان صاحب مجهود وله روايات نفيسة كثيرة.

ثم ان الوهبية ائتمرت في اتباع النكار وحصارهم في تيقيوس فأبى عليهم الشيخ أبو نوح، رضي الله عنه، وقال لهم: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما أديل على قوم مرتين في يوم واحد قط». فأبت العامة إلا اتباع النكار وحصارهم لما أراد الله.

فلما وصلوا تيقيوس، حاصروا من بها من النكار، ورجعت النكار بعضها إلى بعض، فخرجوا إليهم وقاتلوهم، قتال رجل واحد، وانهزمت

---

(5) راجع ترجمته في سير الشماخي (ص 398). وقد خصص له أبو الربيع الوسياني الذي يسميه أبا جعفر أحمد بن خيران الحامي، عدة صفحات في ترجمته، وقال عنه انه كان «رجلاً سخياً مجتهداً في العبادة». النسخة الخطية المحققة من سير شيوخ المغرب (ورقة 11-15).

الوهبية إلى مدينة توزر، وكان أبو نوح من ساقة العسكر يزود ويحمي عن الوهبية حتى غشيه النكار. فلما اضطروه، حملوا عليه، فحال بينهم وبينه عزيز بن عيسى، فحمل عليهم وفرقهم، وسلم الله الشيخ (أبا نوح)، فكان يكر فيهم مرة بعد أخرى، حتى أيسوا من الشيخ أبي نوح، وكان يقول بعد ذلك عزيز، أنا خير من أخي صابر. فقد وقعت على الشيخ أبي نوح ودفعت عنه النكار، وفر أخي. وكان مثل ليقة صوف طار بها الريح، فر عند الهزيمة وترك أبا نوح، ولولا أنا لقتلته النكار..

وبلغنا أن أبا اسماعيل إبراهيم بن بلال[6] المعروف بالبصير، كان يومئذ ممن يبطىء الناس على القتال، ويقول: أيها الناس، احذروا القتال!

ثم ان أبا نوح، رضي الله عنه، وصل بعد ذلك إلى قنطرارة فتمارض فيها واضطجع، فدخل عليه أبو يعقوب، يوسف بن نفاث، رضي الله عنه، وسأله عن أحواله، فقال له أبو نوح، رضي الله عنه: أحسبت أني مريض؟ بل إنما اضطجعت هنا بهم بعض أهل الدعوة وكان ظني أن عبيد أهل الدعوة وإماءهم يقاتلون النكار (ولو) بالخزف، فضلاً عن غيرهم، فكيف يقاتلوننا ويصيرون لنا انداداً.

وبلغنا أن طائفة من مزاتة قدمت على أبي نوح، رضي الله عنه، يستشيرونه في أمر المسجد (الذي) أرادوا أن يبنوه.

فقال لهم أبو نوح: إذا قوم (أرادوا) أن يبنوا مسجداً، فليتفق خيار أهل البلد على موضع معلوم يصلح لبنيان المسجد، فإذا اتفق أهل الخير والصلاح منهم، عرضوا ذلك على العامة من أهل البلد. فإن اتفقوا، فليشاوروا جيرانهم، فإن أنعموا لهم بذلك، أرسلوا إلى من ينظر إليه من أهل الدعوة فيستشيرونه، فإن اتفقوا، فليبنوه، بعد ذلك، إن شاؤوا.

---

(6) ترجم له الشماخي في السير باسم أبوإسماعيل بن ملال، ولعلها أن تكون غلطة مطبعية (راجع: السير، ص 403).

وحدث من أثق به أن الشيخ أبا نوح، أخذه بعض أمراء توزر فحبسه. وذلك أن أبا نوح عظمت منزلته وعلت رتبته فكبر في أعين الوهبية وعلا ذكره فيهم واشتهر أمره، فحبسه بعض أمراء توزر طمعاً فيما يعطى عنه ورجاء لما ينال على يديه، وسلاطينها إذ ذاك صنهاجة.

قال، فمكث الشيخ أبو نوح ما شاء الله في الحبس، حتى قدمت فرقة من أريغ إلى قسطالية للمير[7] فيها (في) بني تكسنيت و (فيهم) رجل واحد من أهل الدعوة يقال له يوسف بن توجينت.

فلما وصلوا إلى نفطة، سمع الشيخ بمجيء الرفقة إلى قسطالية، فسأل عمن بها من أهل الدعوة، فقيل له، رجل واحد يقال له، يوسف بن توجينت.

قال، فأرسل الشيخ إليه فجاءه فسأله أبو النوح عن جمال تباع، فذكر له جمال أصحابه من بني تكسنيت، ثمانية عشر جملاً.

فساومهم يوسف بن توجينت عند أصحابهم، فأوقفهم بعشرين ديناراً لكل واحد منهم. فجاء أعوان الأمير على الخيل، فوجدوا الجمال في الفندق، فحلوا لكل واحد منهم رسنه من رأسه، وجلبوها بغير موافقة أصحابها، فتبعهم أصحاب الجمال، ومعهم يوسف، وهم يقولون: ماذا فعلت بنا، يا يوسف؟ والأعوان يطردون الجمال بالخيل، يقصدون بها نحو الأمير، بتوزر، فنظروا فإذا واحد من الجمال أعرج، فردوه إلى أصحابه، فاستبشروا به وسروا لاجل ما يصلون به إلى بلادهم.

ثم ان أبا نوح قدم إلى قنطرارة بعد ذلك، فقصده يوسف فوجده في

(7) في الأصل: للامير، وهو تحريف.

بيته والمصباح يضيء، مع جماعة من الناس، فقال له أبو نوح: يا يوسف، أردت الوصول إلى أهل الدعوة. فأجابه يوسف إلى ذلك، وكانت معه بكرة جاء بها للأمير، فعمد يوسف إلى البسط فعمل منه حزمتين، وهيّأها لركوب الشيخ على البكرة وبسط عليها بساطاً يتكىء عليه أبو نوح، فركب فعاد به إلى بعض الطريق، قال له يوسف: ما أدري ما أسألك عنه، فأخبرني بشيء.

فقال له أبو نوح: حب للناس ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك.

(فقال يوسف): ظننت أنه لم يخبرني بشيء، فإذا هو لم يترك شيئاً إلا اخبرني به.

وسارا حتى وصلا أسوف، (وادي سوف) فخرج إليهما الناس يلتقونهم فرحين مسرورين بمقدمهما وهم يعلمون ما نزل به، فصاروا يناولون له، وكل بمقدرته، ويدفعون إليه الأموال من الحيوان والصامت وما تيسر لهم. فجاءه رجل بدينار فدفعه إليه، فقيل له: أتعرفه؟ قال: لا. فقيل له: نكاري. فقال ردوه، فردوه، فقال له: خذ دينارك.

قال الرجل: لم؟ قال له أبو نوح: طبعت هذه القلوب على حب من أحسن إليها وعلى بغض من أساء إليها، فلا أريد أن أحبك. فرده له، وخرج من بني أسوف قاصداً بني ينجاسن.

فلما وصل إليهم، قال له يوسف: إني أردت أن أصل إلى أهلي. فقال له أبو نوح: ائت أهلك، ثم تأتيني بأصحاب الجمال.

وذهب إلى أهله ثم أتى بأصحاب الجمال، فأوفاهم أموالهم، والحمد لله رب العالمين.

وبلغنا أن الشيخ أبا نوح، رضي الله عنه، حين كان بوارجلان متربياً

في بلاد النعمة، ومتنعمًا بطبيخ الملوك، اجتمع أهل وارجلان، فطلبوا امرأة تحسن صنع طعامه، فلم يجدوا، إلا امرأة واحدة من بني جعفر، وكانت تقوم بطعامه وتحسن عمله وتصلحه له، وكان الشيخ يدعو لها بالبركة فنفذت فيها دعوة الشيخ.

وبلغنا (أنها) حين ماتت أحاط بها من ذريتها سبعون نسمة.

وحدث بعض أصحابنا أن أبا نوح، سعيد، رضي الله عنه، سأله أبو عبد الله محمد بن بكر، ــ رضي الله عنهما ــ بمحراب مسجد قنطرارة عن ثلاث مسائل:

قال أخبرني عن طفل رجل مسلم إذا أبلغ الحلم، ما الحكم فيه؟ قال الشيخ: إن أنست منه خيراً فجدد له الاستغفار. وإن لم تأنس منه رشداً ولا خيراً، فأمسك عن ولايته.

فقال له أبو عبد الله، أليس يلزمنا معارضة النكار في الحارث وعبد الجبار، إذ قلنا بالامضاء على ولايتهما، وقالوا بالوقوف فيهما.

فقال له الشيخ: لا يلزمنا معارضة النكار في ذلك لأننا نقول إنما كانت ولايتنا إياهم، بولايتنا لآبائهم. فإذا بلغوا رجعوا إلى أفعالهم، وزال عنهم حكم آبائهم. وتوقفنا فيهم إذ صاروا إلى حكم أنفسهم بعد إذ لم يكن لهم إلا حكم آبائهم.

وأما النكار، فقد أزالوا المعنى الذي أثبتوا له من الولاية، ولم يثبتوا ضد ما أزالوا، وهو البراءة، فلا يلزمنا معارضتهم في شيء.

والثانية، سأله عن معنى الرواية التي يؤثرها أهل التشبيه، عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قالوا لم تمتلىء جهنم حتى يضع الجبار قدمه، فتنزوي من نواحيها، وتقول: «قطني، قطني».

فقال الشيخ: إن كانت الرواية صحيحة، فلها مخرج ومعنى قدمه ما قدم لها من أهل الشقاوة. قال الله تبارك وتعالى: ﴿وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾. وليس يريد «قدم»، الجارحة.

والثالثة سأله عن الورود الذي تقوم به الحجة، فقال له: كما تفهم قول من قال لك، قم فادخل وكل.

وحدث عن رحيل المزاتية عن عدة من أصحابنا أنها قالت: قال أبو نوح، رضي الله عنه: إن عشت قليلاً يا رحيل، ستدركين زماناً (فيه) أقوام يتبعون الطريق حتى يلتف لهم في ألف من بنات الطريق، الفضة في ألسنتهم والنحاس في قلوبهم، وإنما يسمعون بالأضراس. أقوام يأخذون المتروك من العلم. وزيد عن غير رحيل: قوم إن أسديت لهم خيراً يصبحوك، وإن منعتهم بهروك.

قال أبو نوح: إن شر ما خلق الله الكفر والفقر. وحدث عن غير واحد من أصحابنا، أن أبا نوح، رضي الله عنه، رجع إلى وارجلان ثانية، بعد موت أبي صالح، جنون بن يمريان، رضي الله عنه، فلما وصل إلى ورجلان، وجد أحوال أهله قد تغيرت فمكث فيها ما شاء الله فجمع من ينظر إليه من وجوه أهل ورجلان، فقال لهم: إني قد رأيت فيكم ثلاث خصال، كلها غير مرضية.

أما الأولى، فنكاح السر فيكم فاش. فإذا مر أحدكم برجل وامرأة مجتمعين في موضع التهمة وزجرهما ونهاهما عن الاجتماع في موضع التهمة، قالا له: إنا قد تناكحنا، فكاد يظهر فيكم الفحشاء.

والثانية، إن أحدكم يطلق عبيده ولا يعولهم ويأمرهم بطلب معاشهم فيطلقون في أموال الناس من جرائد النخل والليف والكرانف، وغير ذلك، فيكاد أحدكم أن يكون سارقاً، وهو في المحراب قاعد.

والثالثة، إنكم أظهرتم بينكم التفرقة: فطائفة يقولون، مسجدنا ومسجدكم، وطائفة يقولون: حصيرنا وحصيركم، ويهودنا ويهودكم.

فاجتمعوا ليردوا له الجواب، فتباطأوا في رد الجواب، فلما استبطأهم الشيخ استرابهم، فما بات تلك الليلة إلا عند حمو بن اللؤلؤ في تين بامطوس.

وبلغنا أنه توجه من تين بامطوس(8) يريد ينجوسا، ومعه حمو بن اللؤلؤ، ومعه ابنه أبو عبد الله، ومع أبي عبد الله ابنه عبد الله، متتابعين على الطريق.

ولما حضر وقت الصلاة، نادى عبد الله أباه، فقال له، إن وقت الصلاة قد حضر، فتقدم أبو عبد الله إلى أبيه حمو، فقال له: الصلاة يا أبتاه. فقال له حمو: اسكت إنا قد كفينا المؤونة.

قال، فمشوا قليلاً، ففعلوا ذلك مراراً، وفي كل مرة. يقول لهم حمو: كفينا المؤونة، حتى وصلوا إلى المصلى الذي خلف ينجوسا، خرج الشيخ من الطريق وأناخ إلى المصلى، ونزل حمو، فأقام الشيخ أبو نوح الصلاة، فتقدم، فصلى بهم.

وبلغنا أن الشيخ أبا نوح، رضي الله عنه، توجه إلى زويلة ومعه عبد الله بن زرزتين الوسياني(9) رضي الله عنه، ودخل الشيخ عند ابن

---

(8) كذا في الأصل. وفي طبقات الدرجيني: تينماطوس.

(9) ترجم له الشماخي في السير (ص 394)، مع أبي محمد عبد الله بن سورديسن وميمون بن حمودي بن زورزتين الوسيانيين، نقلاً عن الدرجيني الذي يصنفهم ضمن علماء الطبقة التاسعة (سنة 450-500 هـ). وقال عنهم انهم «علماء زمانهم وفخر لإخوانهم... درسوا علوم النظر واتقنوها ودوّنوها».

راجع: الطبقات (2/395-399).

خطاب بزويلة، فقربه وتلطف به وأكرمه، ووجد عنده رجلاً من اليهود، يقال له حلي، فقال له أبو نوح: أسألك يا يهودي، عن ثلاث مسائل، فإن أجبت عنهن فأنت حلي، وإن لم تجب عنهن، فأنت جلي.

فسأله عن رجل ضرب عنقه حياً فأبانها، متى قتل نفسه، في حال حياته، أو في حال موته؟ وعن الكائن في السفينة إلى متى يطلب الراحة، والسكون لا يمكن له على حال؟ وعن رجل رمى رجلاً بسهم، فمات الرامي، قبل أن يموت المرمي، متى قتله (حياً أو ميتاً)؟.

قال فبهت اليهودي وتحير، فما نطق بجواب. قال، فقال لي ابن خطاب: هات بجوابهن. فقلت له: أما الذي ضرب عنقه فأبانها، إنما قتل نفسه في حال الموت بما فعل في حال الحياة. وأما الكائن في السفينة، فإنه لا يخلو من الحركة، حركة اكتسبها بنفسه، وحركة السفينة، وهي اضطرار، وذلك إنما يطلب الراحة إذا كانت مجتمعة إلى حركة الاضطراب ويكف عن حركة نفسه حتى يتبعه ذلك، فيطلب الراحة إلى اجتماع الحركتين، فيقصد إلى حركة نفسه. وأما الرامي الذي قتل المرمي، فإنما قتله في حال الموت، بما فعل في حال الحياة.

وبلغنا أن أبا نوح، رضي الله عنه، قال: يعلم الله ويطلع أن هذا الدين حق عند الله أنيِّ خاصمت به عند أبي تميم، وبين يدي ابن خطاب بزويلة، وعند المنصور ابن بلجين، بالقيروان، ولم يبق دين إلا غلبه هذا الدين وأوقع التراب على رأسه، إلا من أبطأ به عمله.

وبلغنا عن الشيخ أبي نوح، رضي الله عنه، أيضاً، أنه قال: كل معروف أسداه أحدكم إلى أقاربه (. . .) فإن خلفته من وراء عتبة داره يريد تعجيل الخلفة له[10].

---

(10) كذا في الأصل. ويلاحظ في الجملة اضطراب المعنى.

وبلغنا أن أبا محمد ويسلان بن أبي صالح، رضي الله عنهما، سئل ذات مرة عن رجلي انسان إن كان يطهره المسح.

قال: جسد ابن آدم كله يطهره المسح، إلا الفروج والرجلين، إلا إن كان رجلي أبي نوح، سعيد بن زنغيل ومن كان مثله.

قال ولقد رأيته يوماً نزع رجله من الخف ونحى عنهما اللفائف ويغسلهما كمثل البيضة وفيهما أثر القيود التي قيده بها أبو تميم.

وبلغنا أن أبا نوح، رضي الله عنه، سمع برجل عالم أقبل من المشرق، وكان يأتيه، فأتاه ذات مرة فبدأه أبو نوح، ـ رضي الله عنه ـ بالسؤال، فقال: ما تقول في يعسوب الضلالة، فقال له الرجل: الأدب، الأدب، يا أبا نوح!

تسلم وتجلس وتسأل عن الحال، وبعد ذلك اسأل عن يعسوب الضلالة. ثم قال الرجل: أما يعسوب الضلالة فهو إبليس. ويعسوب كل شيء، أوله وقائده.

وبلغنا أن الشيخ أبا نوح خرج من قنطرارة ومعه المعز ابن فضالة والشيخ راكب على بغلته، والمعز ماش على رجليه، فأمعنا في السير. فلما وصلا إلى أسوف، نزل الشيخ عن بغلته، فصار الشيخ يئن ويقول: ما في عظمي من مفصل إلا وهو يوجعني. فقال له المعز: أما أنا يا شيخ، فما بي وجع ولا أحسه.

فقال له الشيخ: فإذا كنت هكذا، فإن لله عليك أن تحج من قوتك.

قال، فأخذت تلك الكلمة بمسامع المعز، فرجع إلى الله وتاب وباع أملاكه وماله، وأعطى لامرأته صداقها، فأنفذ وصيته.

وبلغنا أنه أنفذها ثلاث مرات ورقي ربوة (. . .)[11] ثم سار إلى الحج، فرجع فصار يختلف إلى مجالس الذكر حتى مات. ولذلك قالوا: من أراد أن يتوب، فليتب توبة المعز بن فضالة.

---

(11) في الأصل كلمة غير مفهومة: وتحرى للموت.

أخبار أبي مسور
سيجا بن يوجين اليهراساني
رضي الله عنه[1]

كان أول من اشتهر بالعلم من بين يهراسن، وكان تعلمه بجبل نفوسة، وانما أخذ العلم عن أبي معروف وأبي زكرياء يحيى بن يونس السدراتي. وفي ابتداء تعلمه لم يكن بيده مال، وكان فقيراً[2] وربما أخذ شعيراً فيعطيه لمن يقليه له من الصبيان. فإن لم يجد من يقليه له، وضعه في طرف ثوبه فيرشه بالماء حتى يبتل، فيقتات به. وكان يتنحى الى جربة فيأكل فيها شعيره وقد استمر ذلك برهة من الدهر لم يفطن به أحد فإذا جاء إلى مجلس المشائخ يقعد في طرف الحلقة. فإذا صار أهل الحلقة يقومون يتقدم إلى الإمام حتى لا يبقى أحد بين يديه، فيقعد بين يدي الشيخ، فيسأله ما دام قاعداً.

وكان حاله كذلك إلى أن قعد ذات يوم في المجلس. فلما أراد الشيخ

---

(1) ترجم له الدرجيني باسم أبي مسور بن وجين اليراسني، بعد أبي خزر وأبي نوح، وقال عنه انه أول من اشتهر من بني يراسن بالعلوم، وكان تعلمه بجبل نفوسة. ويلاحظ أن معظم مادة الدرجيني في هذه الترجمة، منقول عن أبي زكرياء حرفياً في كثير من الحالات.

راجع: الطبقات (157/1 وما يليها). وكذلك فهرست الجزء الثاني؛ الشماخي (ص 230-232)؛ وكذلك تسمية شيوخ نفوسة (ص 21/ تعليق 15/ ص 37).

(2) كذا في الأصل: الأولى قراءة: مقتراً.

القيام، قام أبو مسور، فانحل العقد فانصب الشعير من طرف ثوبه على الحصير.

قال الشيخ، انكم معشر نفوسة لا ترفعون إلا من رفعه الله.

قال، فابتدرت المشائخ فردوه إلى رجل منهم يحسن القيام به ويتكفل بأموره، فحسن حال أبي مسور وتفرغ لطلبه وعزمه حتى أدرك من العلم ما قدره الله له.

فلما أراد المسير إلى أهله، اجتهد في الكتب يكتبها، فنظر إليه رجل فقال له، انها تجارة بائرة، يا سيجا.

ثم انه تزوج في جبل نفوسة (من زوجته) التي ولدت له ابنه أبا زكرياء، فيصل بن أبي مسور. وكان سبب تزوجه لتلك المرأة، أن شيخاً من شيوخ نفوسة بعث أبا مسور إليها ليخطبها عليه، فأتاها أبو مسور وذكر ذلك، فأشارت إليه هو أنها تريد تزوجه دون الذي أرسله.

فلما أحس ذلك أبو مسور، رجع إلى صاحبه، فقال له، انظر من ترسله غيري. فقال له الشيخ، لعلها تريدك قال، فمضى الشيخ إلى المرأة فخطبها لأبي مسور فتزوجها وتقدم بها إلى جزيرة جربة.

وقد كانت جربة إذ ذاك، على مذهب خلف بن السمح، إلاّ نفراً يسيراً، فدعاهم أبو مسور إلى دعوة الإسلام، فأجابه بعضهم.

وكان رجل من زواغة يقال له خلف بن أحمد، على مذهب النكار، يدعوهم إليه، فمن لم يجب أبا مسور، أجاب خلف بن أحمد. وكان ذا مال كثير سخياً يمضي باحمال الدقيق يطعم الناس لكي يرجعوا إلى مذهبه، فلم يبق في الجزيرة على مذهب خلف بن السمح أحد.

فأقام أبو مسور بجزيرة جربة وبنا بها المسجد المعروف اليوم بالمسجد الكبير لبني يهراسن ولم يتممه، فأتمه من بعده ابنه أبوزكرياء، فيصل بن أبي مسور، رضي الله عنهما.

وحدث أبو الربيع، سليمان بن يخلف، عن أبي عبد الله، محمد بن بكر[3] ـ رضي الله عنهما ـ، عن الشيخ أبي نوح، سعيد بن زنغيل، ـ رضي الله عنه ـ (أنه كان) إذا سئل عن المشهور الذي تجوز ولايته لمن يتولاه بغير شهادة الأمناء إلا بشهرته وخبر العامة، يقول، مثل أبي خزر في إفريقية، وأبي مسور في جربة، وأبي صالح، جنون بن يمريان في وارجلان ـ رضي الله عنهم ـ. ولأبي مسور ـ رضي الله عنه ـ ولد يقال له أبوزكرياء فيصل ـ رضي الله عنهما ـ فقد حوى من المآثر والمناقب والفضائل والمراتب ما لم يبلغنا عن أحد من أهل عصره.

وبلغنا عن ثلاثة من المشائخ تكلموا فيه، كل واحد منهم كلمة. قال أحدهم، وهو أبو محمد، عبد الله ابن مانوج[4] ـ رضي الله عنه: لو كان الوحي ينزل في هذا الزمان على أحد، لاستحق أبوزكرياء أن ينزل عليه.

وقال الآخر، وهو أبو عمران، موسى بن زكرياء ـ رضي الله عنه ـ لو كانت امامة المسلمين (قائمة) في هذا الزمان، لاستحقها أبو زكرياء.

وقال الثالث، وهو أبو عبد الله محمد بن بكر ـ رضي الله عنه ـ لو مسكت خصال الخير والبر كلها بيدك، فطلبت أن تزيده منها خصلة واحدة

---

(3) راجع ترجمته في طبقات الدرجيني (377/2) وفي سير الشماخي (ص 384). ترجم له أبو الربيع الوسياني ترجمة طويلة في سير مشائخ المغرب. النسخة المحققة (ورقة 28 و 44).

(4) راجع ترجمته في سير الشماخي (ص 396)، وترجم له أبو الربيع الوسياني في سير مشائخ المغرب ترجمة وافية تقع في عدة صفحات، النسخة الخطية المحققة (ورقة 2-8).

ليست فيه، لما وجدتها. وهؤلاء المشائخ تكلموا على افتراق الأمكنة وبعد المواضع.

وكان أبو مسور ــ رضي الله عنه ــ أسن من أبي صالح بعشر سنين، وأبو صالح أسن من أبي زكرياء بعشر سنين.

وكان تعليم أبي زكرياء ــ رضي الله عنه ــ بافريقية عند الشيخ أبي خزر ــ رضي الله عنه.

وحدث غير واحد من أصحابنا أن أبا زكرياء أرسله أبوه الى نفزاوة ليمتار له التمر من بني يزمرتن في سنة ممحلة[5] ذات جدب وقحط.

قال، فتوجه أبو زكرياء إلى نفزاوة[6] فلما وصلها اجتمع أهلها من بني يزمرتن ومن بها من أهل الدعوة، فعبوا للشيخ أحماله وأوقروها تمراً، فأنفذها أبو زكرياء ــ رضي الله عنه ــ إلى أبيه وأنفذ أيضاً ما جاء به من الدنانير التي أرسله بها أبوه (لشراء) التمر، ثم عمد إلى عمامته، فنزعها وباعها وأمسك ثمنها لحوائجه.

وتوجه نحو الشيخ أبي خزر ــ رضي الله عنه ــ فمكث عنده ما شاء الله. فلما ذكر الشيخ أبو خزر الطلب بحق الشيخ أبي القاسم ــ رضي الله عنه ــ والقيام بثأره، كر أبو زكرياء راجعاً إلى جربة، لينزع تبعاته ويودع أهله ويستأذن أباه، أبا مسور ــ رضي الله عنه.

فلما وصلها ونزع تبعاته وودع من أراد توديعه واستأذن أباه، فأذن له، وطلبه من قبله (إعفاءه) من جميع حقوقه، فقال له: أحللتك من جميع

---

(5) في الأصل: محيلة.

(6) راجع وصف الجغرافيين العرب في مختلف العصور لنفزاوة في كتابنا، المدن المغربية في الأدب الجغرافي العربي.

حقوقي عليك، إلا ما فعلت حين رددت الدنانير من نفزاوة ولم تكن حبستها لحوائجك.

قال، فخرج أبو زكرياء من جربة يريد أبا خزر ــ رضي الله عنه ــ فلما كان ببعض الطريق، سمع بخبر الشيخ أبي خزر ــ رضي الله عنه وأصحابه وما كان أصابهم من الهزيمة، فرجع.

وبلغنا أن عامل المسودة جعل على بني يهراسن من الخراج شيئاً، فقال له أبو زكرياء أقل من ذلك، فجعله عليهم العامل. وبعد (ذلك) فكر الشيخ فيما فعل، فأنفق مثل ذلك على الفقراء.

وبلغنا عن العامل أيضاً أنه أخذ رجلاً من الحضر في جزيرة جربة، فشفع فيه أبو زكرياء ــ رضي الله عنه ــ فشفعه وتركه.

ثم ان الحضري بعث الى الشيخ قميصاً مستعملاً، فأبى الشيخ أخذه. فقال له الحضري، يا شيخ أعطني ما اشتريت به ولا أترك لك إلا قيمة الخياطة، فاني خيطته بيدي، فأبى أخذه.

وبلغنا عن أبي زكرياء أنه قال: إذا قحطت الأرض تنال الجنة بقبضة من طعام. وإذا قحط الإسلام، تنال الجنة بكلمة حق تقال. وقحط الإسلام أشد من قحط الطعام، وقد اجتمعا كلاهما في زماننا هذا.

وبلغنا عن أبي زكرياء أنه قال، ما علمنا كيف نتكلم ولا كيف نسكت، مع ما بلغه من العلم والحلم والصبر في أمور الدين. وقد قالوا لو أن أحداً يوضع من حِكَمِهِ وَمَنْطِقِهِ دواوين، لكان هو أبو زكرياء ــ رضي الله عنه.

وحدث أبو زكرياء يحيى ابن أبي زكرياء[7] ــ رضي الله عنه ــ قال،

(7) راجع ترجمة وافية له في طبقات الدرجيني (448/2 وما يليها)؛ وفي سير الشماخي (ص 427 و 437).

اجتمع أبوزكرياء مع شيخ من شيوخ النكار من ملأ من زواغة[8] وفيه الوهبية والنكار، فجرى بينهم كلام إلى أن قال له النكار، يا أبا زكرياء، نحن وأنتم، كلنا نكار (ف) إنا قد أنكرنا على علي بن أبي طالب ما فعل من التحكيم. (وقد) أراد النكاري أن يلبس على الضعفاء بذلك (متى) وقع في مسامع العامة، فإن سكت أبوزكرياء ولم ينقم عليه، لزم الفريقين اسم النكار، ففطن به الشيخ وعلم أنه من بعض مكائدهم.

فقال له أبوزكرياء (أما أنا) فلست بنكار، فأفحمه وخيب الله كيد النكار، فتعجب الناس من فراسة الشيخ أبي محمد وبديهته، حتى قال قائل من زواغة: فلان يحتال على أبي زكرياء وأبو زكرياء قائم على نفسه.

وبلغنا أن أبا محمد كموس[9] مرض في آخر عمره، فطاف به الشيطان وأخطر له بالبال: كيف ربه ومن أي شيء (خلق)، حتى كاد الشيخ أبو محمد يهلك.

فقال لأبي القاسم يونس بن أبي زكرياء[10] ــ رضي الله عنه ــ

---

(8) تقع مدينة زاوغة غربي طرابلس وتبعد عنها بحوالي خمسين كيلومتراً، على شاطىء البحر. وزاوغة هي التي تحمل اليوم اسم صبراتة، وقد كانت زواغة قاعدة للبادية التي تمتد من السهل المنبسط بين البحر والجبل والذي اشتهر بثروته الزراعية والحيوانية، وفي زواغة نشأ عدد من علماء الإباضية: وفي مقدمتهم أبو الخطاب ووسيل بن ستتين وأبو موسى عيسى بن السمح ويزيد بن يخلف.

راجع: عن زاوغة الادريسي (ص 113)؛ البكري (الفهرست).

(9) ترجم له الشماخي في السير باسم أبي محمد كاموس الزواغي، وقد أورد ما ذكر أبوزكرياء عنه.

راجع: السير (ص 470-471).

(10) ترجم له الشماخي في السير باسم أبي القاسم يونس بن أبي الحسن. راجع السير (ص 419)، وصنفه الدرجيني ضمن علماء الطبقة التاسعة وترجم له مع أبي يحيى زكرياء.

راجع: الطبقات (2/393-395).

ائتني، بأبيك، يا يونس، وعجل علي! فان الشيطان كاد يهلكني على ضعفي وكبري، وأولع بي في آخر عمري.

قال، فأسرع أبو القاسم السير إلى أبيه، فأخبره بخبر أبي محمد، فأقبل إليه أبو زكرياء مسرعاً، تارة يمشي وتارة يسعى ويتوكأ أحياناً على ابنه حتى قدم عليه، فقال له أبو محمد، علم إلي حبيبي، فان الشيطان مولع بي ويخيل إلي أن أكيف ربي ويخطر لي بالبال ما أخاف أن يهلكني. فقال له أبو زكرياء ــ رضي الله عنه ــ اعلم أن كل ما يخطر ببالك، أو يتمثل في وهمك أو يخطر بقلبك ويتلقاه ذهنك (هو) من خلق الله، ولا يخطر بالبال إلا ما ادركته الحواس، أو ما يشبه بما أدركته الحواس. فالله يتعالى عن شبه الأشياء. وقد قيل في بعض الآثار، ان نفي هذه الخواطر عن الله تعالى، محض التوحيد.

فقال له أبو محمد، فرجت علي آجرك الله، يا أبا زكرياء. وبلغنا أن أبا محمد استخرج لأبي زكرياء شيئاً من لحم الغنم مطبوخاً بالبارحة من يومه ذلك في آخر النهار، فقال أبو محمد لأبي زكرياء، كل، وألح عليه، وكان أبو زكرياء صائمًا ولم يرد أن يفطر، في آخر النهار. فقال له أبو زكرياء، يا شيخ، إني صائم، ولست آكل، وقد مضى جل النهار، فألح عليه أبو محمد، فأخذ منه أبو زكرياء فأكل لموافقة نفس الشيخ، فأدخل عليه السرور.

وكان أبو زكرياء ــ رضي الله عنه ــ (يشكو) من مرض يهيجه عليه أكل لحم العنز واللحم المطبوخ الذي بات. فلما أكله تطييباً لنفس الشيخ، أبرأه الله من ذلك المرض ولم يره بعد ذلك.

وبلغنا عنه أنه رأى في منامه أن واقفاً وقف عليه، وقال له ان موافقتك لمراد الشيخ أبي محمد، وطيب نفسه، وادخال السرور عليه، أفضل من عبادة سنة.

(وبعد ذلك) كان أبوزكرياء يأكل لحم العنز ولا يضره، و(كذلك) اللحم المطبوخ الذي بات، و(قد) استراح من علته.

وسئل أبومحمد في آخر عمره عن أحواله، فتلا هذه الآية: ﴿ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون﴾.

وبلغنا أن امرأة سائلة وقفت إلى أبي زكرياء ــ رضي الله عنه ــ تسأله شيئاً من الزيت تدهن به رأسها، وقد أخذ بها الشعث، فأخذ طنجرة ليجعل لها فيها الزيت ففك عن الخابية، فرآها تنظر إلى ما أعطاه الله من السعة وكثرة ما عنده، فصار يصب في الطنجرة وعيناه تهملان دموعاً، وهو يقول: بالله، ليس بيننا وبينك نسب تعطينا دون غيرنا، ولكن برحمتك يا أرحم الراحمين.

وحدث أبوالربيع، سليمان بن يخلف ــ رضي الله عنه ــ أن أبا زكرياء ــ رضي الله عنه ــ خرج في بعض حوائجه فجاز على منزل موسى بن الارث[11] في وقت، فوجده لم يكن به، فخرجت إليه امرأة موسى، ولم تكن تعرفه، فقالت من أنت؟ فقال أنا ضيف. فقالت له، ما اسمك؟ فقال لها فيصل. فقالت له: الأضياف على منازل. منهم المقربون باللحم، ومنهم بالأدام، ومنهم من لا يجعل له الأدام.

فقال لها أبوزكرياء، اجعليني بالأوسط، صاحب الأدام، ثم انها أضافته بالزيت.

فخرج أبوزكرياء، وجاء بعلها، موسى بن الارث، فأخبرته خبره، فقال لها زوجها: ويحك! ذلك أبوزكرياء.

---

(11) كذا في الأصل. وفي طبقات الدرجيني: موسى بن الارب.

وبلغنا أن أبا زكرياء ـ رضي الله عنه ـ استودع عنده رجل من الحضر وديعة ـ وهو من أهل سفاقس ـ دنانير، فأبى أن يضعها عنده، فألح عليه الحضري ورغب في ذلك، فأنعم له، وطلب أن يعطيها له، فأعطاها له. فخرج السفاقسي ومضى لسبيله.

فلما حان وقت الزكاة، أخرج عليها الزكاة من ماله، وكان ذلك زمناً، فطالت غيبة السفاقسي، صاحب المال عنه، فأطال الشيخ البحث عن أخباره، فسمع بالمجاعة من بلد الحضري، وهو سفاقس، وكان ذلك في حين يتعذر فيه ركوب البحر، فركب أبوزكرياء، ومضى بالوديعة متوجهاً الى سفاقس(12) فطيب الله البحر.

فلما خرج من البحر إلى مدينة سفاقس، سأل عن الرجل فأخبر بداره، فاستأذن عليه، فوجده (وقد ألَم) به الجوع، فخرج إلى السوق، فاستسلف من أهل السوق حوالي أربعة دنانير، فاشترى له بها طعاماً، فرآه على شفا الهلاك، فصار يطعمه حتى أنقذه من التهلكة.

فلما أفاق مما به، وتفتحت عيناه، قال (له) (للشيخ أبي زكرياء) ـ رضي الله عنه ـ ما أقدمك، يا شيخ؟

قال، قدمت لي وديعتك، ها هي، هذه، خذها. قال فطالبه السفاقسي أن يقاسمه فيها، فأبى أبوزكرياء ـ رضي الله عنه ـ ورجع إلى جربة، وقال، لو سنح بخاطري قبل دفعي الزكاة، لدفعتها منها.

وكان الشيخ أبوزكرياء ـ رضي الله عنه ـ حين وجه ابنيه، زكرياء ويوسف، وابن اخته، أبا بكر بن يحيى واخوته ـ رضي الله عنهم ـ إلى أبي عبد الله، محمد بن بكر ـ رضي الله عنه ـ رد أبوزكرياء ابن أخته،

---

(12) راجع وصف الجغرافيين العرب في مختلف العهود لمدينة سفاقس في كتابنا، المدن المغربية في الأدب الجغرافي العربي.

سعيد بن يحيى، أخا أبي بكر بن يحيى، وكان يخدمه ويقوم عليه ويستفيد منه.

وقال أبوزكرياء، ان سعيداً لا يبادلهم، يريد ابنيه وابن أخته أبا بكر، في مسيرهم إلى أبي عبد الله، محمد ابن بكر ــ رضي الله عنه ــ (فرأى) قعود سعيد عنده.

وكان أبوزكرياء (قد) تعود الصلاة في موضع معلوم، فإذا طلع الفجر، نظروا إلى الموضع الذي يصلي فيه، فإذا هو قد ابتل بالدموع، كأنما توضأ فيه أحد من الناس.

وبلغنا أن الليلة التي مات فيها أبوزكرياء ــ رضي الله عنه ــ وهي في رمضان، وكان ابنه زكرياء قدام الناس في قيام رمضان، فسمعوا صوت أمه وهي تقول: مات سيدي، أبوزكرياء، فبهت الناس وتحيروا، وذهب كل منهم في وجهته فانتقضت عليهم الصلاة، إلا زكرياء ابنه، فإنه أقبل على صلاته حتى أتمها.

وبلغنا أن عامل المسودة، سأل عن أبي زكرياء، فقيل له مات، فقال: امضوا بي إلى قبره، فمضوا به إلى قبره، فقال، عاش حميداً، ومات فقيداً. اللهم اخلف على جربة بعده. وقال أيضاً، مات امرؤ علم أنه سيموت.

وحدث زكرياء ابنه، فقال، انه ما مثل أبي زكرياء في آخر عمره، إلا كمثل دابة مثقلة، رأت موضعاً تحط فيه ثقلها، فأسرعت إليه. وقال أيضاً: ما مثل موضع يركع فيه أبو زكرياء إلا كموضع توضأ فيه إنسان.

وبلغنا أن زكرياء وأخاه يونس ــ رضي الله عنهما ــ توجها إلى الحج، فلما كانا ببعض الطريق، وقد أضر بهما السير، وأنهكهما السفر، نام زكرياء وتخلف عن الرفقة.

فلما انتبه من منامه، دعا الله بهذا الدعاء، فقال:

«يا صاحب كل غريب، ويا مؤنس كل وحيد، ويا قريباً غير بعيد، اجعل لي من سفري هذا فرجاً ومخرجاً»، فرفع رأسه ونظر أمامه إلى عمود من نور ساطع في الهواء، فتيممه ومشى حتى وصل إلى الرفقة، فوجد أصحابه متحيرين من أجله.

وبلغنا أنهم رقدوا ذات ليلة في طريقهم ذلك وقد استل زكرياء سيوفهم، إذ غشيهم بعض السلابة، فانتهبوهم، فصاح يونس إلى أخيه: أعطني السيف يأخي مرتين، فمد أبو القاسم يده بحيال رجلي أخيه زكرياء، فأمكنه الله من قائم السيف، فضرب به واحداً (من السلابة) فقده نصفين، فلم يجاوزه واحد منهم.

وبلغنا أن أبا يونس ــ رضي الله عنه ــ نام ذات ليلة بطريقهم ذلك، إذ تنبه، وقد جاوزتهم الرفقة. ثم ان جماعة من أهل الرفقة مضوا عنه قليلاً، فرقدوا. فلما انتبهوا، أخذوا في أثر الرفقة، حتى مر بهم أبو القاسم يونس، وكان يقطعهم فوجاً فوجاً، وقد طال مكثهم خلف الرفقة، فجاز برجل قد أدركه العيا خلف الرفقة وتورمت قدماه وانتفخت رجلاه، ومعه صرة دنانير.

فلما نظر إلى الشيخ، أعجبته هيئته، فقال له، ان معي صرة دنانير وقد أشرفت على الهلاك فدونكها فخذها، فأنت أولى بها من غيرك، فأبى الشيخ أخذها، فألح عليه الرجل. فقال له، خذها، فأنت أولى بها من غيرك من هؤلاء الصامدة (؟) فأخذها منه، وتوجه نحو الرفقة حتى وصلها، فخلف الرجل خلفه. ثم ان أهل الرفقة نزلوا وأخذوا الرجل في أثرهم، تارة يمشي وتارة يستريح. فبات فيها واستراح.

فلما كان الغد، ارتحل المسافرون وارتحل معهم، ووجد من نفسه قوة

وتذكرت نفسه صرته، فصار ينظر في وجوه الرجال ويتكشف عن خبر صرته بين المسافرين، ويسأل ويبحث وينظر. فنظر إليه الشيخ أبي القاسم ـ رضي الله عنه ـ وقد تغير وجهه، فقال له، ما الذي أصابك؟ فقال الرجل، قصتي كذا وكذا. فقال له أبو القاسم، أعطيتها له أو أخذها منك بغضب؟ فقال الرجل، بل أعطيتها له.

فقال أبو القاسم، أتعقله؟ فقال له، لست أعقله، إلا أنه وسيم طويل مثلك. فقال له، أتعقل الصرة؟

فلما نظر إليها لم يتمالك، ودفعها إليه، فصاح وقال: والله ما هو إلا مسلم، والله ما هو إلا مسلم، فكررها مراراً، فصار يسعى في رجلان المسافرين، ويقول، هذا ما فعله! والله ما هو إلا مسلم!

أخبار الشيخ أبي عبد الله محمد بن بكر رضي الله عنه وقعوده في الحلقة[1]

وكان تعليمه على الشيخ أبي نوح، سعيد بن زنغل وعند أبي زكرياء فيصل بن أبي مسور، رحمهما الله.

وبلغنا أنه نظر إليه ذات يوم أبو نوح سعيد بن زنغيل ـ رضي الله عنه ـ فقال: إن كنت أفهم شيئاً، فإن هذا الفتى هو الذي يحيي دين الله.

فلما بلغ من العلم ما قدر الله له، ومات أبو نوح ـ رضي الله عنه ـ توجه نحو القيروان وتعلم بها النحو والعربية. فلما صدر عن القيروان، قعد للحلقة.

وسبب قعوده، حدث به أبو الربيع بن يخلف ـ رضي الله عنه ـ عن أبي يحيى، زكرياء بن أبي زكرياء ـ رضي الله عنه ـ. وذلك أن أبا زكرياء فيصل، أرسل ابنيه زكرياء ويونس وابن أخته، أبا بكر بن يحيى وغيرهم ممن خرج معهم إلى الشيخ أبي عبد الله، محمد بن بكر ـ رضي الله عنه ـ فقال لهم أبو زكرياء ـ رضي الله عنه ـ حين أرسلهم إليه: امضوا إليه. فإن أنتم وجدتموه، فكونوا معه، ولو في شغل دنياه، قال فخرجوا من جربة متوجهين نحوه، فلما وصلوا إلى جبال تمولست (وجدوا أن) ليس بها إذ ذاك

---

(1) هنا تنتهي الصفحات المحذوفة في الترجمة الفرنسية.

من أهل الدعوة أحد، وإنما تغيروا ورجعوا إلى أهل الدعوة إلا يصليتين، عم أبي الربيع، سليمان بن يخلف ــ رضي الله عنه.

قال أبو الربيع، سليمان بن يخلف ــ رضي الله عنه ــ قال زكرياء بن أبي زكرياء ــ رضي الله عنه ــ ان أهل تمولست قد تغيروا إذ ذاك، وليس بها إلا يصليتين، عمك، والنساء والأطفال، وأخذنا على جبالها، وعدلنا عنها، إلى أمدو، فسمع بها عمك، يصليتين، فلحقنا في أمدو فطلبنا أن نرجع إلى تمولست، فأبينا عليه، واستقصا علينا، فلم نجبه بالرجوع واعتذرنا له بالتعجيل وانا قد جاوزناها بعد.

فلما رآنا يصليتين كذلك، قال لنا، فأما إذا لم تفعلوا فاني راجع، وليس بها من أهل الدعوة إلا أنا، والنساء والأطفال، أرجع وآخذ بأيديهم.

فلما سمعنا منه (ذلك) أجبناه إلى الرجوع إلى تمولست. قال فسرنا معه، فلما وصلناها ومكثنا فيها ما شاء الله، وكان يصليتين يأتينا بالعشاء والغداء ومعه النساء والأطفال، فتقول النساء والأطفال: هذا دينكم وهؤلاء أهل دينكم، ثم إنا خرجنا من تمولست، فمضينا، فلم ندر أين نصادف الشيخ أبا عبد الله في البلاد.

فلما وصلنا إلى تيقيوس، التقينا مع الشيخ أبي عبد الله محمد بن بكر ــ رضي الله عنه ــ كما جاء من القيروان (حيث كان) يتعلم النحو والعربية، يريد المسير إلى أبي عمران، موسى ابن أبي زكرياء ــ رضي الله عنه ــ بتجديت، ليتعلم عنده الفقه. وكانوا قبل ذلك لا يدرون أين يصيبونه، ولا أين يطلبونه، فوفقهم الله.

وذكر أبو الربيع سليمان عن أبي يحيى، زكرياء ــ رضي الله عنهما ــ

قال، وما ظننت مصادفتنا له، لأننا لا نعرف موضعاً هو فيه، إلا بموافقتنا ليصليتين وإدخال السرور عليه وعلى النساء والأطفال.

ثم إنهم كلموا الشيخ أبا عبد الله أن يقعد لهم في الحلقة، فأبى لهم ذلك وامتنع ومكثوا يراودونه ما شاء الله، فأبا عليهم حتى كادوا أن ييئسوا منه.

وبلغنا أنهم قعدوا معه ذات مرة قدام مسجد المنية يراودونه ويطلبونه إذ خرج رجلان من تيقيوس، شيع أحدهما صاحبه، وهو يريد طريق الحامة.

فلما افترقا نادى أحدهما صاحبه وقال: اسمع يا فلان، قال، فالتفت إليه وقال: اجعلها لله! فمن جعلها لله فلا تضيع. فلما سمعوا تلك المقالة تفاءلوا بها وعطفه ذلك عليهم، فأجابهم، على شرط ألا يسأل ولا يجيب، حتى تمضي أربعة أشهر.

ومكثوا في تيقوس ما شاء الله، (وهو) لا يسأل ولا يجيب. وكان ذلك في السنة التي تحركت فيها زناتة مع صنهاجة من ناحية طرابلس[2] وهي تسمى (سنة) هزيمة الأبراج وكثرة الزلازل في الأرض، حتى (أصبح) لا يستقيم لهم شيء.

فقال لهم الشيخ: انا ههنا أناس رقاق القلوب، وأرجو أن ينجع فيهم الإسلام، وينبت فيهم الخير، فهل لكم أن تنتقلوا إليهم، وهم بنو مغراوة؟ فأجابوه إلى ذلك مسرورين مغتبطين.

فأرسل الشيخ إلى أبي القاسم بن ورقون الويلي، ومن معه، يعلمهم بقدومه إلى ناحيتهم وأن يهيئوا له غاراً يجتمع فيه التلاميذ للحلقة والعزم.

---

(2) راجع وصف الجغرافيين العرب لطرابلس في مختلف العصور.. في كتابنا، المدن المغربية في الأدب الجغرافي العربي.

فأخذ أبوالقاسم في حفر الغار، فحفره، فقدم الشيخ أبوعبد الله وتلاميذه.

وهذا هو السبب الذي قعدت عليه الحلقة.

ثم انه كان من عادته، إذا قعد للحلقة، إذا ختموا وأرادوا القيام أن يدعو الشيخ بواحد من تلاميذه فيقرأ عليه المواعظ قليلاً، فيقوم الشيخ.

وعند ذلك، انتقل إلى بني يسلى وانتقل معه تلاميذه وكانوا يكابدون مؤونة العيش لأنفسهم واجتهدوا غاية الاجتهاد في عزمهم.

وكان الشيخ يشتي في أريغ ويربع في البراري عند بني مصعب[3] وغيرهم وكانوا إذ ذاك واصلية، فرد بعضهم إلى الوهبية.

---

(3) وادي ميزاب. تقع منطقة ميزاب على مسافة 600 كيلومتر جنوب مدينة الجزائر، ويبلغ ارتفاعها على مستوى البحر 566 متراً. والمنطقة أراضي صحراوية لا تتلقى سوى أمطار قليلة، وفيها عدا ثروة متواضعة من النخيل، فهي لا تعرف الزراعة ولا تنتج أراضيها سوى الكلأ الضعيف. وهذه العوامل المناخية، وبعدها حتى عن مناطق العمران الصحراوية (يبعد وادي ميزاب عن عاصمة الأغواط التي كان يتبعها إدارياً بـ190 كيلومتر) وعدم وجود ما يغري الغازة بها أو يهيىء الظروف الملائمة للإقامة بها، هي التي راعاها الاباضيون الأوائل حينما قرروا الاستقرار في هذه الناحية، عقب جلائهم عن تيهرت ومطاردة العبيديين لرجال المذهب في أوائل القرن الرابع الهجري، وأغلبية سكان المنطقة (مثل سكان نفوسة وجربة) من البربر الذين ينتمون إلى مختلف بطون زناتة، وقد ظهر العمران في وادي ميزاب في مبدأ الأمر في شكل تجمع سكني في عدة جهات متفرقة وفي أحقاب مختلفة كما تشهد بذلك خرائب «بوكيا» و«ترشين» و«تلات ويزقن». وقرية الصوفة (أغرم نتلزضيت) وقرية «اولوال» في العطف و«بنورة» القديمة، وبقايا قرية «اتميزارت» (أغرام انوادي) بمليكة و«اغرم انياب السعد بغرادية».

وميزاب يتكون من سبع مدن صغيرة، خمس منها أنشئت على وادي ميزاب في فترات متقاربة منذ سنة 402هـ = 1012م وهو تاريخ تأسيس العطف، وفي سنة 474هـ، أسست غرادية والمنطقة ظلت تحتفظ باستقلال داخلي في مختلف العصور قبل الأتراك، وبعد قيام الحكم العثماني دخلت في اتفاقيات معهم في عهد عثمان باشا (1190هـ = 1785م).

وبلغنا أنه سأل رجل من بني مصعب، فقال له يا شيخ أي شيء من الغنم أعطي لصدقة مالي؟

فضرب له الشيخ مثلاً فقال: ما تقول فيمن أعطاك أربعين شاة ثم بعد ذلك سألك أن تعطيه شاة واحدة، أيها تعطي؟ قال الرجل أحسنها.

فقال له الشيخ، إن الله هو الذي أعطاك أربعين شاة، فأخرج للصدقة أحسنها.

وسأله رجل من بني مصعب عن رجل اختلط ماله بحرام كان عنده. أفيأكل من ماله شيئاً أم لا؟

فضرب له الشيخ مثلاً، فقال أرأيت جحراً رأيت فيه فاراً ويربوعاً دخلته حية، أكنت تدخل يدك لتخرج الفأر أو اليربوع؟ قال له، لا! مخافة الحية.

وبلغنا عنه أنه توجه إلى قسطالية، فأراد المسير منها إلى طرابلس، فاجتمع عليه كثير من الناس، فوقع في نفسه مخافة من ناحية المخالفين حتى قيل انه تا (. . .).

ثم انه استغفلهم، فأعطى لواحد من تلامذته بغلته فأخذ بها طريقاً، وأعطى للآخر سرجها فأخذ به طريقاً آخر، وأخذ الآخر بيده وفرقهم على الطرق واتعد معهم في موضع معين.

فلما ابتعدوا عن الناس، اجتمعوا فشدوا السرج على البغلة، فركب ولم يكن معهم يومئذ زاد غير أنهم، مرّوا برجل، فدفع لهم طابق شاة لحم فتزودوا به، فسار الشيخ وأصحابه. فلما وصلوا إلى قريب من تمولست، ولم يصلوها، وأبو الربيع، سليمان بن يخلف ــ رضي الله عنه ــ مقبل من

الحي، وهم في الربيع، في موضع يقال له ميركين[4] هـو ومحمد بن عيسى بن ابراهيم الهواري، متوجهاً إلى تمولست، فرأوا بغلة الشيخ فعقلاه فقصدا نحوه، فوجداه هو، فصافحاه هو ومن معه. وكان ممن معـه عيسى بن ابـراهيم المـذكـور أولاً وأبـو الـربيـع فجلبـوهم إلى الحي وصافحوهم. فقال عيسى بن ابراهيم لأبي الربيع، اجعل لمحمد سهمًا من الأجر. فقال له أبو الربيع، قد فعلت عنا. انه اراد ابنه. فقال له عيسى بن ابراهيم انما عنى لك محمد بن بكر.

فلما فرغوا من العشاء، جعلوا عليه المجلس في المسائل، قال الشيخ أبـو الربيـع، فقعدنـا حتى عيينا، فقمنـا، فدنت إليـه النسوة، وفيهن أم البخت، وأختها. وكانت أم البخت تدعي المسائـل وقراءة الكتب، فجعل عليه النسوان المجلس في المسائل والمواعظ، حتى طلع الفجر. فقالت أم البخت لأبي الربيع، وهي ابنة خاله: لأجل هذه الفوائد طالت غيبتك عنا، يا سليمان.

فجاءه بليس بن سندي، فصافح الشيخ، فسأل عنه أبو عبد الله محمد بن بكر ــ رضي الله عنه ــ فأخبر به، فقال الشيخ: هو صاحبنا قبل هذا. فقال له الشيخ، نعم، أنت في واد ونحن في واد.

ثم ان أبا الربيع وبليس المذكور، أراد أن يبشرا شيوخ لماية، فتوجها نحو لماية، يبشرانهم بقدوم الشيخ أبي عبد الله، محمد بن بكر ــ رضي الله عنه ــ فقال بليس لأبي الربيع حين سارا أن يبشرا لماية: اجعل لي سهمًا من الأجر في بشارتك للشيوخ، بقدوم الشيخ، وذلك من حسن أدبه وسياسته،

(4) يمكن أن تقرأ الكلمة في الأصل: هيركين.

فبشرهم أبو الربيع وبليس معه. فتهيأوا لمسير الشيخ إلى لماية وغيرهم. (وهناك) اجتمع عليهم الشيوخ، وفيهم عبد الله بن الأمير وأبو محمد وارسفلاس، وكان أبو محمد وارسفلاس عالماً كبيراً، فإذا سئل الشيخ أبو عبد الله بن بكر ــ رضي الله عنه ــ عن مسألة من الفقه، يردها إلى أبي محمد، عبد الله بن الأمير ــ رضي الله عنه.

وكان أبو محمد عبد الله قليل الجواب يتوقف في أكثر المسائل. فقال الشيخ أبو محمد وارسفلاس للشيخ أبي عبد الله محمد بن بكر ــ رضي الله عنه: أجب للناس، ليس لك عند أبي محمد عبد الله الجواب.

فمضى الشيخ، فلما دخل جربة، أسرع المسير حتى وصل إلى المسجد الكبير عند بني يهراسن، وصافحهم، ومكث ما مكث، فأراد الخروج، فقربت دابته للركوب، وابتدره الناس ليمسكوا له الركاب، وابتدره معهم أبو نوح، صالح بن صالح ليمسك ركابه، فأبى الناس عليه ذلك، فقال لهم الشيخ أبو عبد الله محمد بن بكر ــ رضي الله عنه ــ دعوه، فمسك له الركاب، فتمثل الشيخ أبو عبد الله، محمد بن بكر ــ رضي الله عنه ــ ببيتين من الشعر، فقال:

لله أيام الشباب وعصره	لو يستعار جديدهم فيعار
ما كان أقصر ليله ونهاره	وكذلك أيام الشباب قصار

ثم خرج الشيخ فجاز بتباحالت على الشيخ عمروس، فاستمسك به ليضيفه، فنزل عنده الشيخ أبو عبد الله، فذبح له عمروس خروفين كبيرين.

وبلغنا أن خروفاً منهما، أراد رجل أخذه، فتطاول الخروف فوقف على احدى رجليه، فكانت قامته كقامة الرجل. فلما ذبحوهما وطبخوهما، قدموا للشيخ اللحم منهما.

وحدث عن جابر بن عمار، قال كنت أختار للشيخ مطايبهما فنظر الشيخ إلى سمنهما، فقال: كيف يكون قلب من يأكل هذا من ماله، فكيف من مال غيره، ثم إن الشيخ كر راجعاً إلى أريغ.

وبلغنا عن عبد الله بن مانوج، ـ رضي الله عنه ـ، انه قال: عجباً لهذا النفوسي وأصحابه، كمثل الحواريين لعيسى بن مريم عليه السلام.

وبلغنا عن الشيخ أبي عبد الله، محمد بن بكر، ـ رضي الله عنه ـ، حين زار أهل ورجلان، ودخل على الشيخ أبي عبد الله، محمد السدراتي، ـ رضي الله عنه ـ، الذي ولاه أهل ورجلان أمورهم. فعندما كبر ولزم بيته، تنحى عن أمورهم، فقال لهم أبو عبد الله السدراتي، ـ رضي الله عنه ـ: يا محمد، تقولون خير الرعاة راع ساوى بين القوي والضعيف، فسكت الشيخ أبو عبد الله، محمد بن زكرياء، ـ رضي الله عنه ـ، ثم قال:

أليس يقولون، اصطحب الناس على المكروهات لئلا تفترقوا؟

فقال الشيخ أبو عبد الله، محمد بن بكر، ـ رضي الله عنه ـ، في أي ذلك، يا شيخ؟ في أمور الدين أم في أمور الدنيا؟.

فقال له أبو عبد الله محمد السدراتي، قد انتهى علمي إلى هنا. وما تقول أنت؟.

فقال له، إنما ذلك في أمور الدنيا، للنزول للمسافرين والارتحال وحسن المعاشرة وقلة الاختلاف، ومثل ذلك، وأما أمور الدين، فلو كان ذلك يسعها، ما فرق الأوائل أئمتهم حتى قتلوا، ولم يستهلك أهل

نَـهْرُوَان[5] أنفسهم في أمور مع القدرة (مثل) عبد الله بن يحيى الكندي والمختار ابن عوف[6] ـ رضي الله عنهم أجمعين.

ثم قال أبو عبد الله، محمد بن بكر، ـ رضي الله عنه ـ، يا شيخ، لا تطمئن إلى كثرة من يدخل عليك لئلا يقال عليك ما لا تقوله.

فقال له أبو عبد الله السدراتي: من أتاني زائراً، فأجره على الله، ومن قال علي ما لم أقله، فالله حسيبه.

وبلغنا عن الشيخ أبي عبد الله[7] محمد بن بكر، ـ رضي الله عنه ـ، انه ولد له أول مولود، فأراد الناس أن يولموا له، فأبى ذلك وامتنع عنه، فكلمته امرأة أبي القاسم، يونس بن ورجون الويليلي، فقالت له: ولو نحن، يا شيخ! أتجعلنا مثل غيرنا من الناس؟.

وانما قالت له ذلك، للذي بينه وبين الشيخ أبي القاسم من المودة والنصيحة.

فقال لها الشيخ: لا، لست أفعل، أصيب يدي فوق، فأردها إلى أسفل.

---

(5) كذا ضبطه ياقوت، وهي كورة واسعة بين بغداد وواسط، حدها الأعلى متصل ببغداد، وفيها عدة بلاد متوسطة. والنهروان أيضاً مدينة يشقها نهر النهروان بنصفين في وسطها، وصفها ابن حوقل بأنها مدينة صغيرة عامرة تبعد بأربعة فراسخ عن بغداد.
راجع: وصف النهروان في صورة الأرض لابن حوقل (ص 218-219)؛ معجم البلدان (324/5-327)، وفيها يتعلق بموقعة النهروان بين علي (ض) والخوارج. راجع تفاصيلها في الكامل لابن الأثير (334/3-346).

(6) سبقت الترجمة له. راجع أعلاه.

(7) راجع أخبار أبي عبد الله ويعقوب بن أبي القاسم في طبقات الدرجيني (377/2). وقد وصف الدرجيني أبا عبد الله الذي يصنفه ضمن علماء الطبقة التاسعة (سنة 450/500 هـ) بأنه وطود تطاولت دونه الأطواد والبحر الذي لا تقاس به الثماد.. بيت أهل المذهب، أسس قواعد السيرة، وله في كل فن تأليف كثير.

إنما أراد بذلك، قول الرسول، صلى الله عليه وسلم: «اليد العليا خير من اليد السفلى». وإنما ذلك في الإعطاء والصدقة. والشيخ يجعل لها وليس يريد ما يأتي من قبلها لئلا يصير مكافأة لما يجعل لها فيحرج.

وكان الشيخ قد أعطاه الله فراسة وبصيرة لا يكاد يسبق (تنبؤه) بشيء إلاّ كان.

وحدث يعقوب بن أبي القاسم، قال قعدت عند الشيخ ذات مرة بتين يسلى، إذ سمع بأخبار جماعة من بني درجين مقبلة إليه يزورونه، فسألنا عن شاة لحم بالشراء، فقلت لست أعلم عند أحد شاة إلاّ شاة واحدة عند عجوز في أجلو، فقال ان بتين يسلى يصيب رزقها(؟).

فقام ودخل العريش، فرقد هنيهة، ثم قال لي، قم يا يعقوب، انظر إلى ناحية القبلة.

قال، فقمت فنظرت، فلم أر شيئاً، فرجعت وقعدت هنيهة، فقال لي، قم فتطلع، فقمت فنظرت وقلت له أرى شخصاً.

فقال فانظر، هل كان معه شيء؟ فنظرت فقلت له، أرى معه شيئاً يخرج أحياناً من الطريق ويدخل أحياناً فتربصت له قليلاً، فقمت إليه، فوجدته رجلاً من بني ويليل ومعه شاة فدفعها للشيخ، فجاء جماعة من بني درجين، فذبحها لهم.

وحدث يعقوب بن أبي القاسم، قال، كنت ذات مرة عند الشيخ فقال لي، قم وأمر الرومي أن يزيد في غدائنا، قال فقمت وأمرته أن يزيد في غدائنا، فزاد فيه، فقعدت عنده ملياً، فقال لي، قم وانظر إلى ناحية الشمال، هل ترى شيئاً؟

قال فقمت فنظرت إلى بغلة عليها راكبها، فجئت إليه فأخبرته، فقعدت قليلاً، فرجعت، فوجدته هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن الخير، ـ رضي الله عنه ـ، فنزل عن بغلته فصار يشكلها، فأتى إلى الشيخ، فسلم عليه وناجاني الشيخ وأمرني أن آمر الرومي ليزيد في غدائنا، فنظر إليه الشيخ أبو عبد الله محمد بن الخير ـ رضي الله عنه ـ، فقال: كأني أعرف ما تقولان. اصبرا ها هنا شيء حاضر، فنزع خرجه، فاذا فيه طعام مطبوخ.

فقال الشيخ، قم إلى الرومي وقل له أن يترك لئلا يفسد الطعام.

وروى بعض أصحابنا أنه جاءته أضياف ولم يكن عنده ما يذبح لهم، وكانت غنمه في البراري، فقعدت قليلاً، فقال لمن عمه: انظر إن كان في العريش شيء.

قال فتطلع، فوجد في العريش كبشاً كبيراً، فأخذه فذبحه. فلما قدموا على رعاة غنمه، سألوهم عن (حال) الغنم، فقالوا، ما علينا من بأس سوى أن الكبش الكبير دارت عليه زوبعة الريح فتغيب ولم نعرف موضعه.

وحدث أبو الربيع، سليمان بن يخلف، ـ رضي الله عنه ـ، قال، كنت عند الشيخ ذات مرة (وكان) له عمال يعملون، فقدم إليهم يسيراً ليأكلوه، فقال لي الشيخ كل معهم، يا سليمان.

فأبيت. فقال لي إن من تطوع لحسن، فأردت أن أقول له: ولو فيما لا ينبغي؟ فسكتت.

فقال لي يا سليمان، إن ذلك مما لا ينبغي، فأخبرني عما أخفيته في نفسي، قبل أن أذكره.

وحدث غير واحد من أصحابنا أنه كانت عنده امرأة مهتمة بأمور التلامذة، كثيرة العناية بهم، في زمان الشيخ، فتزوجها واحد فتغيب عنها في ناحية طرابلس، في احياء زناتة، فاضر بها ذلك.

وبلغ الشيخ غيبة زوجها عنها واضراره بها، فبعث الشيخ رجلين، أحدهما (هو) علي بن يعقوب السيتني (والآخر هو) عمر بن يحيى الوليلي في شأنها. (فلما) استوثقا من عندها توجها نحو طرابلس.

فلما وصلا إلى الرجل خلصاها منه وكرا راجعين. ومضى علي بن يعقوب إلى نفوسة، ورجع عمرو بن يحيى إلى أريع.

ثم ان علي بن يعقوب لما وصل إلى جبل نفوسة، أخذ على تلك الناحية، فبات بقرية خاملة[8] الذكر في الجبل، فيها عجوز ذات علم يجتمع عليها أهل تلك القرية يستفتونها. وكان في بيت العجوز مصلى.

قال علي بن يعقوب فصليت فيه صلاة الصبح مع أهل المنزل، فتفرق الناس وبقيت وحدي وقعدت في موضع أقرأ فيه من القرآن ما تيسر إلى أن غلبني النوم، فنبهتني قراءة (ولكني) لا أرى شخصاً قارئاً بها قبل طلوع الشمس، فحسست حس تحريك ثياب جديدة، ففزعت، فتكلم لي، فقال: لا تفزع، أنا رجل من الجن، فسألته عن الأخبار، فأخبرني بكثير مما سألته عنه، وسألني فيم أمشي، فأخبرته بخبر الشيخ والمرأة وزوجها. فسألني، فقال، كيف ولايتكم لنا وولايتنا لكم، فرددت إليه المسألة. فقال أما ولايتنا لكم، فبالأشخاص، وأما ولايتكم لنا، فبالجملة. فسمعت العجوز، فقالت متعجبة: سبحان الله، سبحان الله!.

ثم إني اشتكيت إليه أمر الخوف في الطريق، فقال لي: تعلم هذه

(8) في الأصل: خالية.

الآية: ﴿قولوا آمَنَّا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل﴾، الآية كلها، فأخذ يعلمني إياها، فيقرأ وأتبعه ويكررها حتى حفظتها، فقال لي: أعد علي، فأعدت عليه، فقال لي: حفظت.

ثم قال لي، إن لنا بالجزيرة موعداً نجتمع فيه يومنا هذا، وهو موضع بجبل نفوسة، أريد أن أحضره، وأنا راجع إليك، إن شاء الله، فلا تغيب وجهك عن هذا المكان، وأنا راجع إليك، إن شاء الله. فقلت، نعم.

(وبينما) نحن في ذلك إذ طلعت الشمس، فقال لي: تكلم، ادع الله، فرددت إليه، فقال لي، بل أنتم الأفضل، فادع. فدعوت، فلما فرغت من دعائي أخذ هو أيضاً في الدعاء، والعجوز بحذائنا تسمع كلامنا.

فلما فرغ، قال لها: زيدي، يا مرأة، فتكلمت، فقال: سبحان الله، سبحان الله!

ثم إنه مضى علي وانتشر الخبر في تلك القرية أن جنياً تكلم إلى رجل من الأنس، فتنحيت على الناس، فدخلت قرية بحذاء تلك القرية، فنمت فيها.

فلما انتبهت، أتيت إلى العجوز، فسلمت عليها، وسألتها عن الخبر، فقالت لي: أين تغيبت؟ وقد جاءني الجني، صاحبك، بعدك، فدخل علي فسألني عنك، فقلت لا أدري فرمى علي بحصيات، فقال لي، إن جاء بعدي، فادفعيها إليه.

قال علي، فأخذتها، فوجدت عليها خطاً رقيقاً لا أكاد أتبينه، فمضيت واشتريت من تلك البلاد كساة أنطاكية فأخذت على ناحية نفزاوة، ومعي صاحب لي، فأخذنا على طريق بشري حين صدرنا من نفزاوة إلى

تيقيوس[9] فلما توسطنا السبخة، إذا بخيل في مقابلتنا، لا نستطيع الهروب ولا نجد ما يسترنا عنهم، فأخذنا إليهم الطريق، فأخذوه إلينا.

فلما وصلنا إليهم، حلقوا علينا، وكنت أقرأ الآيات التي علمنيها الجني، وكان على تلك الخيل أمير، فتكلم إلينا، فتطلع وتصعد فينا ببصره من فوق إلى أسفل، حتى غشيني لعاب فرسه، والكساة الأنطاكية على كتفي.

فسألنا: من أنتم؟ فقلنا له، تلامذة. فقال، امضوا على طريقكم راشدين.

قال فمضينا، وكنت توقعت أن يقول لي، دع الكساة، فخلصنا الله منهم، فكانت تلك الحصباء معنا حتى وصلنا بها إلى بلاد مكة، ولم يوكل لي مقدار قيد قط.

وذكر يعقوب بن أبي القاسم ان أبا الحسن، أفلح[10] كان تعلم عند حمو بن اللؤلؤ واستقضته بنو ورتيزلن برأي الشيخ أبي عبد الله، محمد بن بكر، ـ رضي الله عنه ـ، فمكث فيهم سنين عدة قاضياً عليهم يحكم بينهم بالعدل، ووقعوا فيه عند الشيخ، وكثرت الشكوى في أمره.

---

(9) وصف الإدريسي تيقيوس (تقيوس) بأنها مدينة تبعد عن الحمة بنحو عشرين ميلاً، وهي مدينة عامرة لها غلات الحناء والكمون والكروية وبها نخل وتمر حسن، وجملة بقول طيبة ناعمة. وبين تيقيوس وقفصة مرحلة. الادريسي (ص 104).

(10) راجع طبقات الدرجيني (381/2) الذي نقل معظم أقوال أبي زكرياء في هذه الفقرات، وقد خصص الشماخي بضعة أسطر في سيره للحديث عن أبي الحسن أفلح المادغاسني، وقال عنه انه كان «شيخاً عالماً وإماماً حاكماً، أخذ العلم من الشيخ حمو بن اللؤلؤ، وكان صديقاً لأبي عبد الله محمد بن بكر». راجع السير (ص 518-519).

فلما طال ذلك، بعث إلى جماعة عزابة بني ورتيزلن وغيرهم من أهل تلك الناحية، فاجتمعوا عليه، وحلقوا حلقة، وسكتوا طويلاً.

فقال لهم الشيخ، لم سكتم (وقد) اشتكيتم بأبي الحسن. فقال قائلهم، إن أبا الحسن يحكم بين بعضنا ولا يحكم بين بعضه.

فقال الشيخ، يا أبا الحسن، أكان ذلك؟ قال له، نعم. ثم قال لهم الشيخ، ثم ماذا؟ قالوا حكم على رجل بصداق امرأته بغير إقرار ولا شهادة.

فقال له الشيخ، أكان ذلك يا أبا الحسن؟ فقال له، نعم.

فقال لهم الشيخ، ثم ماذا؟

قالوا اختصم عنده رجلان في أمر الشفعة، فأبطلها الشفيع الذي ادعاها، فقال له، الشيخ، أكان ذلك، يا أبا الحسن؟ قال نعم.

قال لهم الشيخ، ثم ماذا؟

قالوا مات رجل من بني ورتيزلن بقرية يقال لها عين الحمار، فأكل وصيته. فقال له، أكان ذلك يا أبا الحسن؟ فقال له، سأخبرك بما فعلت فيها. ثم قال لهم، ثم ماذا؟ فلم يجدوا ما يزيدونه ولا ينقصونه.

ثم قال أبو الحسن، يا أبا عبد الله، هل يثبت الحاكم الخصومة في أرض المشاع؟ فقال له الشيخ، لا.

فقال له أبو الحسن، إن هؤلاء القوم حين دخلت هذه البلاد، شهد عندي خيارهم ان ما بين الموضع الفلاني إلى الموضع الفلاني، لبني ورتيزلن، فوقعوا فيه، فصاروا يعمرون في ذلك المشاع، وهم الذين لم أثبت الخصومة بينهم.

ثم قال أبو الحسن، ما تقول، يا شيخ في رجل أقر بالنشوز، هل يحكم عليه بالصداق؟ قال الشيخ، نعم. فقال له أبو الحسن، اختصم عندي الخير بن فسار وامرأته تزوراغت، فأقر الخير بالنشوز، فحكمت عليه بصداق امرأته.

ثم قال أبو الحسن، ما تقول، يا شيخ، في نخلة نبتت في مجرى العامة، هل يحكم فيها القاضي بالشفعة لبعضهم دون بعض؟ قال الشيخ، لا.

فقال له أبو الحسن، ان رجلين اختصما عندي في نخلة على مجرى العامة، فطلبها رجل من تلك العامة بالشفعة ممن اشتراها من صاحبها، فلم أحكم له.

ثم قال، أما أمر الوصية، فان الرجل الذي مات من بني ورتيزل قد استحلف امرأته على وصيته، فجاءتني في أمر الوصية، فقالت لي: أرسل معي من يعلمني كيف أنفذ الوصية، فأرسلت معها الصبي، وهو ابني، وبلغني أنها تصدقت عليه من تلك الوصية بربع شاة لحم، فلم أره ولم آكله.

ثم قال، يا شيخ، لي إليك كلام أريد أن أبلغه، فقال له الشيخ، دع عنك كلامك، فحلف له أن لا يدخل قضاهم من حين ذلك إلى سبع سنوات، فصاح عليهم الشيخ فتفرقوا كل في جهته.

فقال الشيخ ليعقوب بن أبي القاسم، إدرك أبا الحسن وارده.

قال. فأدركته، ومضى مع الشيخ إلى الغار، فقال الشيخ ليعقوب، انتظرني و(كان) ذلك في أول الليل. فانتظرته حتى أصبح، فلم يخرج، ثم إلى غروب الشمس، فلم يخرج، ثم حتى الصباح، فخرج إلَيّ.

قال يعقوب، فقمت إليه، فقال لي، من هذا؟ ثم قال، وأنت قاعد هنا إلى الآن؟ فقلت له أجل.

فتودع الشيخ مع أبي الحسن، ثم قال لي، منذ دخلت عنك إلى وقتي هذا لم يفتر لساني عن مسائل الأحكام ولم ينقطع سؤاله، إلاّ إذا قمنا إلى الصلاة. فلا يقوم بسؤال العالم إلاّ العالم مثله. ثم قال: هيهات، إن جيرانك يتصارعون مع من لا يقدرون له على شيء.

وحدث محبوب بن أبي عبد الله السدراتي، ـ رضي الله عنه ـ ان الشيخ أبا عبد الله وصل إلى أحروان (هو) وأصحابه ذات مرة، وأحضرت لهم موائد الطعام. فوضع الشيخ يده على المائدة التي وضعت بين يديه، فوجد عليها ودك عجز شاة من اللحم، ثم قال لرجل بجنبه، قم وتأمل الموائد، ان كان عليها مثل ما على هذه.

فقام الرجل ففتشها. فلم يجد عليها مثل ذلك، فرجع فأخبره، فقام الشيخ، فترك الطعام.

وبلغنا عنه حين خرج من وارجلان، وصل إلى تين بامطوس، (حيث) أرسل إليه رجل من ورجلان باللفائف وشيء من الجمار، فأبى أخذ اللفائف وقال: هذه ترجع إلى صاحبها، فردها وقال: وما نحن والهدايا؟ فأكل الجمار.

وذكر علي بن يعقوب السيتني، قال، رأيت في منامي بعد موت الشيخ أني أتيت إلى تين يسلي وسألت عائشة، زوج الشيخ عنه، فقالت قد خرج. (وبينما نحن)[11] في ذلك، إذ أقبل على فرس حسن أدهم، فنظرت إليه أكحل العينين ناعم الوجه، فقال لي، امض بنا، فقلت له،

---

(11) في الأصل: وكيف.

يا شيخ، عاد لست بماض. فقال الشيخ، تركته للناقضين الذين يموت الدين على أيديهم، ثم توجه إلى ناحية المشرق.

وبلغنا عنه أنه أرسل محبوب بن الشيخ وأبا بكر بن محمد، ــ رضي الله عنهما ــ ليشتريا له خادماً، فاشترياها له، فلما علم صاحب الخادم لمن يشتريانها، نزع لهما من الثمن خمسة دنانير، واشترياها وأتيا بها الشيخ، وأخبراه خبرها وما فعل صاحب الخادم في الخمسة دنانير، فردها وأبى أخذها، تحرجاً منه، ــ رضي الله عنه ــ.

أخبار الشيخ أبي الربيع، سليمان بن يخلف المزاتي[1] رضي الله عنه

وكان أبو الربيع، سليمان بن يخلف ممن تعلم عند الشيخ أبي عبد الله محمد بن بكر، ـ رضي الله عنه ـ. فلما تعلم عنده الأصول وبلغ بها مبلغاً عظيماً توجه نحو جربة. فلما انتهى إليها يريد تعلم الفقه عند مشائخ بني يهراسن، أبي محمد، وأبي زكرياء، ويونس، وأبي بكر بن يحيى، ـ رضي الله عنهم ـ، وجدهم في زمان الاشتغال وتكلموا فيما بينهم إلّا يدعوه وحده في المسجد، فاتفق رأيهم على أن يعملوا له كل يوم من يقعد معه، فكانوا يتداولون عنده يوماً فيوماً، وكان يستفيد من كل واحد منهم.

---

(1) ترجم له الدرجيني في الطبقات وصنفه ضمن الطبقة العاشرة (سنة 450-500) ووصفه بأنه «الأصولي الفقيه، الزكي النبيه... وخرج من تلامذته كل نجيب، وقيد عنه كل جواب مصيب». وأكثر ماذكره عنه منقول عن أبي زكرياء.

راجع الطبقات (429-425/2) ومثل أبي زكرياء روى عنه أبو الربيع الوسياني كثيراً مما أورده في سير مشائخ المغرب (النسخة المحققة 69/2) وقال ان أبا الربيع سليمان توفي في سنة 471 هـ، وهي السنة التي ذكرها الدرجيني أيضاً لوفاته. وأما أبو زكرياء الذي يسجل وفاة أبي الربيع في هذه الترجمة، فإنه لا يذكر سنة وفاته، وأنه لمن غرائب الصدف أن هذه هي السنة التي توفي فيها أبو زكرياء نفسه. وكذلك خصص الشماخي مكاناً بارزاً في سيره لترجمة أبي الربيع سليمان بن يخلف. راجع السير (ص 412 وما يليها).

ثم إن التلامذة قصدوا إلى أبي محمد ويسلان ليتعلموا عنده الفقه وكانت الحلقة عليه وكثروا وكان فيهم من يتعلم عند الشيخ أبي عبد الله محمد بن أبي بكر، ـ رضي الله عنه ـ مسائل الحجة والنظر في الأصول ويريد تعلم الفقه، فقصد عند أبي محمد ويسلان (عدد) منهم أبو الربيع، سليمان بن يخلف، ويعقوب بن يغلي، ومصالة بن يحيى[2] ممن اجتمعوا من بلاد شتى، فكانت مشائخ بني يهراسن يجتمعون إليهم يعينونهم ويؤيدونهم على عزمهم (تعلم) على الكلام، وهم أولاد الشيخ أبي زكرياء والشيخ أبي بكر بن يحيى.

ثم إن المشائخ المذكورين من بني يهراسن اهتموا بهؤلاء الفتيان الذين أرادوا تعلم علم الكلام، فأرسلوا إلى النفر الذين تعلموا عند الشيخ أبي عبد الله محمد بن بكر، ـ رضي الله عنه ـ، رسولاً يرغبهم في القعود للفتية الذين أرادوا علم الكلام ويحببونهم إليهم.

فلما وصل إليهم الرسول، أخبرهم بما أرسله إليهم به الشيخ وبمراده، فتكلم أحدهم، فقال إنما جئت لأتعلم عند الشيخ أبي محمد ويسلان ولم آت لأعلم غيري. وقال له الآخر، مثل ذلك.

فقال لهم أبو الربيع، ـ رضي الله عنه ـ، أما أنا، فلا أشترك معكم في هذا الرأي.

فرجع الرسول إلى المشائخ، فأخبرهم بما قال كل واحد منهم.

ثم إن المشائخ اجتمعوا بالفتية فأخبروهم بجواب القوم. فقال لهم

---

(2) ترجم له ولفلفول بن يحيى الدرجيني في الطبقات (453-451/2) وقال ان لكل واحد من هذين الشيخين «مآثر وفضائل مخلدة في بطون الدفاتر» وكذلك ترجم له الشماخي في السير (428-429) ولكن معظم مادته مأخوذة من طبقات الدرجيني.

أبو القاسم يونس بن أبي زكرياء، ـ رضي الله عنه ـ، خذوا في عزمكم ولا تطلبوا الراحة وتمثل لهم بقول الأولين.

ثم إن الفتية اجتهدوا غاية الاجتهاد، وكان المشائخ يحضرون مجالسهم، والشيخ أبو الربيع يأتيهم إذا قامت الحلقة عن الشيخ أبي محمد ويسلان، ـ رضي الله عنه ـ، فيجد مصباحهم يتلألأ.

وكانوا كذلك برهة من الدهر، وقعودهم أبا بيز سجهان(؟) ولها شجرتان من الحروف (؟).

وكانت القبلية موضع حلقة أبي محمد ويسلان، والشمالية بها أصحاب الكلام والحجة.

ثم انتقلوا إلى المسجد الكبير، وكثر أصحاب الكلام، فاجتمع إليهم من أهل البلد وغيرهم كثير.

فلما رأى الشيخ أبو محمد كثرة أصحاب الكلام وقلة أصحابه، انتقل بمن يتعلم عنده الفقه إلى بيت قبالة المسجد الكبير، وكانوا يتعلمون فيه.

وكانوا على حالهم ذلك حتى أرادوا الخروج إلى الجبل، فخرجوا كلهم.

فلما رجعوا من الجبل، قصد أبو محمد إلى جربة، وقصد الشيخ أبو الربيع إلى تمولست، فاجتمعت جموع زنزفة وزناتة ولماية، فأيدوا الشيخ بما قدروا عليه، فمكثوا فيها ما شاء الله، وكانت تمولست طريق الغرب في الغرب من طرابلس إلى افريقية، وكانوا في خوف شديد، فبلغ ذلك أبا القاسم يونس بن أبي زكرياء، ـ رضي الله عنه ـ، فأرسل إلى الشيخ أبي الربيع وتلاميذه رجلاً قاصداً إليهم، فحجر عليهم إلاّ يقعدوا في تمولست من أجل الخوف، فقالوا: نحن في أمان، وسليمان وتلاميذه في

خوف، فتفرق من كان مع الشيخ أبي الربيع، سليمان في لماية وجبال زنزفة لئلا يكسروا نهي الشيخ أبي القاسم.

ثم انهم اجتمعوا عليه بعد ذلك ومضى بهم إلى جبال زنزفة، وقصد بهم إلى قلعة بني علي، وكانوا في غار، فكثر التلامذة حتى (لم يعد) يسعهم الغار الواحد، فانتقل بعضهم إلى غار آخر، فكان الشيخ ليلة عند هؤلاء وليلة عند هؤلاء.

ثم انهم أرادوا زيارة أهل دعوتهم، فأرسلوا إلى أهل جربة في ذلك، فلحقهم بعضهم قبل أن يخرجوا من الجبل، فساروا حتى وصلوا إلى قسطالية، وذلك بقية سنة تسع وأربعين وأربعمائة، ووصلوا قنطرارة فخرجوا منها، وكان معهم رجل من نفطة خرج من مذهبه إلى أهل الدعوة، واسمه عمران بن علي. بلغني عنه أنه قال للشيوخ، وددت لو أنكم ركبتم البغال كلكم، فجاء ذلك الرجل المسمى إلى أبي الربيع بكسوة ليلبسها، فأبى أن يأخذها. وسار الشيخ ومن معه حتى وصلوا إلى أسوف، فأراد أهل أسوف أن يلزموا المشائخ عندهم، فقال الشيخ خليفة بن عمارة، خفت أن يقطعوا بنا وأن يحبسونا، ولا يصيبوا هنا إلّا ما يكرهون.

وقال الشيخ أبو الربيع، اصبروا حتى يأتي أقوام مرادكم على مرادهم.

فمكثوا في أسوف ما شاء الله، ثم خرجوا منه فساروا حتى وصلوا إلى وغلانه، فأخذوا منه حتى وصلوا إلى تماسين، فاستعجل المشائخ المسير، فتعلق إليهم أهل البلد في القعود عندهم.

فلما نظر الشيخ أبو عبد الله محمد بن بكر، ــ رضي الله عنه ــ إلى

تعجيل الشيوخ وكراهيتهم للقعود، قال لأهل المنزل، مهلاً عليكم، ليس شيء أحب إلى نفسي من أن يأكلوا طعامي. وموافقتهم أحب إلي من ذلك.

قال أبو الربيع، سليمان بن يخلف، ــ رضي الله عنه ــ، لخليفة ابن عمار، هذا الذي أقول لك في أسوف.

ثم ساروا من عندهم، فكل من ساروا عليه وجازوا به من المشائخ جاءوا به، حتى وصلوا ورجلان.

فلما قربوا من حيز ورجلان، اجتمع المشائخ ومن معهم من التلامذة، ونهوا عن فعل ما لا يليق، فحدوا لأنفسهم حدوداً، إلاّ يتكلموا في أمور أهل ورجلان إلاّ على وجه الزيارة، من المواعظ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإقامة بحق الله تعالى. فنهوا عن الأخلاق الدنيئة وأخلاق السوء، وكل ما يدنس دين الله وما يجر إلى تدنيسه من المطامع.

فلما وصلوا إلى ينجوسا، اجتمعت إليهم جموع أهل ورجلان وخيار أهل الدعوة، حتى قال قائل، لم يجتمع من أهل الدعوة ومن الأخيار، مثلما اجتمع هذه المرة في بلد من البلدان في ذلك العصر.

وكانت مشائخ تين بامطوس، اشتكوا إلى المشائخ أمر خليفة بن برارة، وأنه منع الحق عنهم ويفعل الباطل (وكذلك) اشتكوا إليهم أشياء (أخرى) كثيرة.

ثم إن خليفة خرج إلى الشيوخ ومعه من بني باجين جماعة، أبت جماعة المشائخ مصافحتهم، فصار يتوب أمامهم، ونزل عن دابته.

فلما وصلوا إلى طرف السبخة، طلبهم بالدخول و(قال لهم) إنه سيفعل ما يريدون، فاشترطوا عليه أن ينزلوا بطرف المنزل. حتى يرضيهم

من نفسه، فنزلوا على عين بحد المنزل. فنحروا لهم ثلاث نوق، وانتظروا خليفة أن يأتيهم ليعطيهم الحق من نفسه، فلم يأتهم وامتنع عن إعطاء الحق، فخرجوا وتوجهوا نحو وارجلان، فلما وصلوا السبخة التي وراء بعمون، تلقاهم جموع أهل ورجلان، كلهم، بأمرائهم وسلاحهم وهيئتهم، (وكذلك تلقاهم) من يليهم من منازل وارجلان بعدة عظيمة عجيبة، حتى قال قائل منهم، لم أر مثل هذه العدة في صنهاجة ولا في غيرها، فقصدوا مسجد الشيخ أبي صالح جنون بن يمريان، ــ رضي الله عنه ــ، فأخذوا على منازل سدراته أجمع.

فإذا دخلوا منزلاً، اجتمع إليهم أهله، فيأمرونهم بالمعروف واتباع سيرة أوائلهم وبإقامة حقوق الله عليهم.

وكان ذلك حالهم من ورجلان (حتى خرجوا) متوجهين إلى بلادهم، فأخذوا على ناحية.

وقد كان الشيخ أبو القاسم سليمان بن موسى، ــ رضي الله عنه ــ، حين سمع بخبر الشيوخ مقبلين إلى وارجلان، أرسل إلى غنمه باندرار و(كان) له بها غنم كثير، وأمر رسوله أن يأتي بأسمن غنمه، فوصل الرسول إلى اندرار، فتباطأ في سيره ولم يأت حتى خرج المشائخ من وارجلان.

(وبعد وارجلان) نزلوا البكرات، فأخذهم المطر بها ولم يتجه لهم السير، فمكثوا حتى جاء رسول الشيخ بالغنم، وقد اختار ما كان فيها سميناً.

فلما وصلهم، أخذوها وذبحوها وأكلوا، ودخلت عليهم سنة خمسين وأربعمائة من التاريخ في البكرات.

مضت جماعة الشيوخ متوجهين إلى بلادهم، فلما جاوزوا حد سماطس، (توجه من كان يقيم) بقسطالية إليها وما وراءها، وتوجه الطرابلسيون إلى بلادهم، ومضى أبو الربيع سليمان بن يخلف، ـ رضي الله عنه ـ إلى زنزفة.

ثم ان الشيخ، انتقل من الجبل إلى تمولست. ثم إن التلامذة طلبوا أن يدون لهم ديواناً من تأليفه، ووضعه، فلم ينعم لهم بذلك. فمكثوا دهراً طويلاً يراودونه على ذلك، وهو يأبى لهم، فألحوا في الطلب، فما زال حتى أنعم لهم وأجابهم إلى ذلك، على كره.

ثم إن إبراهيم بن إبراهيم(3) رأى رؤيا أن جماعة التلامذة أخذوا الشيخ أبا الربيع فنقبوا صدره، فنزعوا منه قصعتين من عسل. فلما انتبه من منامه، هاله ذلك وأقلقه حتى ظن بالشيخ أنه يموت عن عجلة قبل أن يصنع لهم شيئاً.

ومضى إلى قابس، فسأل عن معبر الرؤيا، فاطلع عليه. فلما رآه سأله عن رجل أخذ قوم ينقبون صدره فاستخرجوا منه قصعتين من عسل.

فقال له المعبر، إن كان تاجراً صاحب مال، فانه يستخرج منه المال كرهاً. فقال له إبراهيم، ليس بصاحب مال.

فقال له المعبر، ان كان عالماً فيستخرج منه العلم كرهاً. قال له: ذاك. فرجع إبراهيم إلى الشيخ والتلامذة فأخبرهم خبر الرؤيا وما كان من شأنها، فألحوا على الشيخ في الطلب في تنظيم المسائل، فأخذ كبير تلامذته ألواحاً فافترقوا على تأليفه. فإذا قام من مجلسه، وقد نظم لهم فنوناً من العلم، يؤلفون كل ما جاز في مجلسه، حسبما سمعوا منه.

فلما استفضوا كثيراً من مجالسه وقد ألفوا ألواحاً كثيرة، أتوا بها

---

(3) راجع أخباره في طبقات الدرجيني (413/2 و428 و439).

فعرضوها عليه، فطائفة منهم أسقط ألواحها كلها، وطائفة أسقط كثيراً منها، وطائفة أثبتها. ثم عرضوها عليه مرة بعد مرة، ومكثوا زماناً يعرضون عليه (الألواح) ينقص ويزيد منها، حتى حققها وأمر بتدوينها، فكانا دفترين يقال لأحدهما الأول، وللثاني، الثاني.

ومكث الشيخ وتلامذته في تمولست، ما شاء الله، ثم خرجوا منها، وكانوا عرضوا الكتب على الشيخ أبي عبد الله، محمد بن سدرين، فلم يزد فيها إلّا حرفين.

ومضى سائر التلامذة إلى الجبل وبقيت منهم بقية، فلما كان أوان رجوع التلامذة من الجبل، رجعوا إلى تمولست فمكثوا (فيها) سنتهم.

واتصلت الأخبار إلى الشيخ وتلاميذه أن منجا بن عقيل أراد اغتيالهم، وأرسلت بذلك بنو يهراسن إلى الشيخ. فكانوا كذلك إلى ذات يوم غدوة، عند فراغهم من الصلاة، فطائفة أخذوا في القراءة، وطائفة لم يأخذوا بعد في القراءة، إذ سمعوا صيحة حول تمولست، ابتدرت التلامذة إليهم بالرماح، فجاز بعضهم على بعض. فلما وصلوا الصيحة، وجدوا منجار بن عقيل في خيل مغيرة على أهل تمولست وقتلوا رجلاً من التلامذة يقال له زيري الرنداجي، فهربت التلامذة إلى الغار، فلما وصلوا إلى باب الغار، تراموا عليهم، فانحجزوا فيه، والشيخ أبو الربيع خلفهم، فأدركه العرب ونزعوا كسوته وجرحوه، رحمة الله عليه، ثم انتقلوا بعد إلى موضع يقال له توتير، فنزلوا فيه بالخيل، حتى صار منزلاً ومأوى للعزابة، فجرى فيه العزم والاجتهاد أجلّ قدره الله، حتى فشى خبره وسمع ذكره في الخير، فأحيوا فيه السنن وأقاموا سير من كان قبلهم من أهل الدعوة، حتى توفي فيها أبو الربيع، سليمان بن يخلف، ـ رضي الله عنه وعنهم ـ أجمعين، وغفر لهم ولنا وتاب عليهم وعلينا إنه هو التواب الرحيم والحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

انتهى الكتاب

المراجع

1 ــ المراجع العربية للتحقيق:

(أ) الاباضية في الجريد لصالح باجية، تونس 196.
الاباضية في موكب التاريخ، لعلي يحيى معمر، 3 أجزاء، القاهرة، 1964.
آثار البلاد وأخبار العباد لزكرياء، بن محمد القزويني، بيروت، 1969.
الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الاباضية لسليمان البيروني، المطبعة البيرونية (الجزء الثاني)، بدون تاريخ.
أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، في خمس مجلدات، مصر 1280 هـ.
الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، 4 مجلدات، مصر 1358 هـ.
أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام للسان الدين بن الخطيب، تحقيق احمد مختار العبادي وابراهيم الكتاني، الدار البيضاء، 1964.
الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، طبع الساسي في 21 جزء، مصر، 1353.
أمالي المرتضى للشريف علي بن الحسين العلوي، 4 مجلدات. طبع مصر، 1325.
الأنوار السنية في تسب من سجلماسة من الاشراف (مخطوط محفوظ بالخزانة العامة بالرباط).
الأنيس المطرب القرطاس لابن أبي زرع، طبعة حجرية، فاس 1305 هـ.

(ب) البدء والتاريخ المنسوب لأحمد بن سهل البلخي، 6 أجزاء، طبع شالون، 1916.
بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ليحيى بن خلدون، تحقيق الفرد بيل، مجلدان، الجزائر، 1903.

البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب، تحقيق كولان وليفي بروفنسال، 4 أجزاء بيروت، 1948.
البيان والتبيين للجاحظ، 4 أجزاء، مصر 1367-1369.

(ت) تاج العروس من جواهر القاموس لمحمد مرتضى الزبيدي، في عشرة مجلدات، طبع مصر، 1306-1307.
تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري في 11 جزء، طبع مصر، 1326 هـ.
تاريخ ابن الصغير المالكي، طبع وتحقيق المستشرق دوموتلينسكي، اعادة الطبع في LesCahiers de Tunisie (Tome XXIII) 1975.
تاريخ الخميس في أحوال انفس نفيس، لحسن بن محمد الدياربكري، طبع مصر، 1283.
تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية لمحمد بن ابراهيم اللؤلؤي المعروف بالزركشي، طبع تونس 1289 هـ.
تاريخ الفتح العربي لليبيا للطاهر الزواوي، طبع ليبيا.
تاريخ اليعقوبي لأحمد بن اسحاق اليعقوبي، 3 أجزاء، طبع النجف 1358.

(ج) جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس للحميدي، طبع مصر، 1952.

(ح) حاشية الجامع الصحيح، تأليف عبد الله السالمي طبع مطبعة الأزهار البيرونية.
الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية للسان الدين بن الخطيب (؟) طبع تونس، 1911.
الحلة السيراء لابن الابار، في جزأين، طبع القاهرة، 1963.
حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني في عشرة مجلدات، مصر، 1351 هـ.

(د) الدرر البهية والجواهر النبوية لادريس بن احمد العلوي، في مجلدين، طبع حجري، 1314.
الديارات للشابشتي، بغداد، 1951.
دائرة المعارف الاسلامية، الطبعتين الفرنسية والانجليزية.

(ذ) الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة لعلي بن بسام، 3 أجزاء، طبع القاهرة، 1358-1364 هـ.

(ر) رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار) طبع مصر، 1322 هـ.
رحلة التيجاني، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، تونس 1958.
رسالة افتتاح الدعوة للقاضي النعمان بن محمد، تحقيق وداد القاضي، طبع بيروت، 1970.

(ز) زهرة الآس في بناء مدينة فاس للجزناتي، طبع الجزائر، 1923.

(س) سلم العامة والمبتدئين لعبد الله بن يحيى البيروني، طبع مصر، 1324 هـ.
سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس فيمن اقبر من العلماء والصالحين بمدينة فاس، لمحمد ابن جعفر الكتاني، طبع فاس، 1316.
السير لأحمد بن سعيد الشماخي، طبعة حجرية (قسنطينة؟).
سير مشائخ المغرب لأبي الربيع الوسياني، تحقيق اسماعيل العربي.

(ش) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، 8 أجزاء، القاهرة 1350 هـ.

(ص) صبح الأعشى في صناعة الانشا لأبي العباس القلقشندي، 14 جزءاً، طبع مصر 1331-1338.
صفة المغرب وأرض مصر والسودان للشريف الادريسي، تحقيق دوخويه ودوزي، ليدن 1866.

(ض) ضحى الاسلام لأحمد امين في 3 أجزاء، طبع ار الكتاب العربي، بيروت.

(ط) طبقات المشايخ بالمغرب لأحمد بن سعيد الدرجيني في جزأين، تحقيق ابراهيم طلال، طبع قسنطينة، 1974.
طبقات ابن سعد، 8 أجزاء، طبع ليدن 1321 هـ.

(غ) غاية النهاية في طبقات القراء لشمس الدين الجزري، في مجلدين، طبع مصر 1951.

(ف) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم، طبع مصر، 1914.
فجر الاسلام لأحمد امين، طبع بيروت.

(ق) قلائد العقيان للفتح بن خاقان، طبع باريس.

(ك) الكامل لابن الأثير، 12 جزءاً، تحقيق طور نبرج، اعادة الطبع ببيروت، 1965.

الكامل في اللغة لأبي العباس المبرد في جزأين، طبع مصر، 1333 هـ.
كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار للكاتب المجهول، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، طبع الاسكندرية، 1958.
كتاب الجغرافيا لابن سعيد المغربي، تحقيق ونشر اسماعيل العربي، بيروت 1970.
كتاب العبر لابن خلدون، طبع بولاق، 7 أجزاء 1284.
كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، طبع القاهرة، 1312 هـ.
كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، لأبي عبيد البكري تحقيق دوسلان، طبع باريس، 1965.

(م) مختصر كتاب البلدان لأبي بكر الهمذاني، تحقيق دوخويه، ليدن 1885.
المختصر في اخبار البشر للملك المؤيد اسماعيل ابي الفدا، طبع بيروت، 4 أجزاء.
مرآة الجنان وعبرة اليقظان لمحمد بن عبد الله ابن سليمان عفيف الدين اليافعي، طبع بيروت، 1338.
مراصد الاطلاع على اسماءالأمكنة والبقاع لعبد المؤمن بن عبد الحق في ثلاثة مجلدات، طبعة ليدن 1852-1854.
مروج الذهب ومعادن الجوهر، للمسعودي، في 9 أجزاء، طبع باريس، 1861.
المقتضب من تحفة القادم للبلفيقي، طبع بيروت.
معالم الايمان في معرفة اهل القيروان لعبد الرحمن بن محمد الدباغ، 4 أجزاء، تونس 1320.
معجم البلدان لياقوت الحموي، 8 أجزاء، طبع مصر 1323-1325 هـ.
معجم قبائل العرب القديمة والحديثة لعمر رضا كحالة، ثلاثة اجزاء، دمشق، 1949.
معجم المطبوعات العربية والمعربة ليوسف اليان سركيس، طبع مصر، 1928.
الملل والنحل للشهرستاني لمحمد بن عبد الكريم الشهرستاني في ثلاثة أجزاء، طبع مصر 1317-1320.
المؤنس في اخبار افريقية وتونس لابن ابي دينار، تونس 1967.
ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي في 3 مجلدات، طبع مصر، 1323.

(ن) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب لأحمد المقري، تحقيق احسان عباس، طبع بيروت، 1968.
نهاية الأرب في معرفة انساب العرب للقلقشندي، طبع بغداد.
نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري، طبع منه في مصر 21 جزءاً.

(و) وفيات الأعيان وانباء ابناءالزمان لابن خلكان، في 8 مجلدات، تحقيق احسان عباس، طبع دار الثقافة، بيروت.

2 ـ المراجع الأجنبية:

- مقالة «إباضية» لدوموتلينكي في دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الأولى).
- مقالة «إباضية» لتادوزليويك في دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الثانية).
- مقالة «الخوارج» لليفي دلافيدا (الطبعة الأولى).

— Basset (R), la Zenaha du Mzab et de l'oued Right, Alger, 1898.

— Basset (R). Les Sanctuaires du Djebel Nefoussa.

— Basset (R), Note sur les Chaouia de la province de Constantine, Paris, 1897.

— Colvin (L), Le Maghreb central à l'époque des Zirides, Alger, 1957.

— Dureau de la Malle, Esquisse Générale sur l'Afrique Ancienne, Paris, 1852.

— Fournel, les Berbères, en 2 vol., Paris 1875.

— Gautier (F), le Passé de l'Afrique du Nord, Payot, 1952.

— Marçais (G.), les Arabes en Berbérie, Paris, 1913.

— Motylinski (A. de), les livres de la secte Abathite.

- (مجموعة الأبحاث التي نشرت ضمن اعمال مؤتمر المستشرقين الرابع عشر، ص 409 وما يليها).

— Wellhausen (I), Die Religios — Politischen oppositions, parteis in Alten Islam, Berlin, 1901.

— Xavier de Planhol, les Fondements Geographiques de l'Islam, Paris, 1968.

فهرس عام
لأسماء الأشخاص والأماكن

(أ)

(غ)

(ف)

الفهرس

الموضوع	الصفحة

- أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفراني 175

tionne ses victoires éclatantes, aussi bien que son échec retentissant, avec un esprit critique, dénué cependant de toute trace de sympathie, voire même de tout essai de compréhension.

Abû Zakariyâ nous fournit parfois des détails que nous ne trouvons nulle part ailleurs, et qui se trouvent souvent en contradiction avec les versions des chroniques connues sur l'histoire des 'Ubaydites, notamment sur les débuts de cette histoire, après l'arrivée du Mahdi 'Ubayd Allâh à Sidjilmâssa. Mais la contribution la plus importante qu'apporte le *Kitâb as-siyar* est incontestablement, l'exposé relatif aux Imâms rostémides, depuis le chef de file 'Abd ar-Rahmân ibn Rustum, qui a brandi le drapeau de la secte après la mort d'Abû'l-Hattâb, vaincu par Muhammed ibn al-As'ath, jusqu'à la chute de l'état de Tihart survenue sous le régne du dernier Imâm rostémide, Ya'qûb Ibn Aflah, qui, détrôné par les 'Ubaydites, se réfugie à Ouargla. L'étude qu'Abû Zakariyâ fait de la dynastie rostémide dépasse le champ politique, pour englober des questions idéologiques ayant trait à la doctrine ibâdite, laquelle avait, depuis le règne de l'Imâm Abd al Wahhâb, à combattre sur deux fronts : contre les Nukkarites, qui sont des Kharidjites, et contre les Mu'tazilites, célèbres par leur rationalisme et la force de leur argumentation.

Alger, le 15 mai 1979

aujourd'hui une édition critique, suivie de notes et d'index. La Bibliothèque Nationale en assure la publication, permettant ainsi de le mettre à la disposition des chercheurs qui s'intéressent à l'histoire du Maghreb au Moyen-Age, et à l'évolution de l'Ibâdisme en Afrique du Nord.

Le manuscrit qui a servi de base à cette édition critique, est complet. C'est une copie dont l'écriture maghrébine est soignée et de lecture facile, de sorte que l'auteur de cette édition critique, n'a rencontré que des difficultés mineures qu'il a aplanies en s'aidant des sources ibâdites connues, ce qui lui a permis d'enrichir ce travail à l'aide de notes et de références, et de comparer le récit d'Abû Zakariyâ avec celui d'autre auteurs.

Quelle place occupe cet ouvrage dans la littérature ibâdite, et quelle contribution peut-il apporter à la recherche scientifique ?

Sa caractéristique essentielle est que son auteur, Abû Zakariyâ (mort en 471/1078), a vécu à une époque peu éloignée des événements qu'il relate, et que les sources de sa narration sont essentiellement orales, et remontent, par ses maîtres, aux grands savants de la secte ibadite. Il n'est donc pas étonnant que cet auteur soit entouré d'une auréole de considération, qui confine à la vénération, dans les milieux ibâdites, et que son ouvrage soit une source essentielle pour les historiens et écrivains de l'époque contemporaine.

La principale contribution qu'apporte Abû Zakariyâ à la recherche, est de premier ordre, car il nous fait connaitre un certain nombre de centres de rayonnement de l'Ibâdisme au Maghreb, tels que Guentrara, Gafsa, Ouargla, Tihart ; il nous renseigne sur l'activité qui y régnait dans les domaines de l'éducation et de l'enseignement, les controverses, l'ijtihâd, la jurisprudence, etc..., en même temps qu'il nous fournit la biographie d'un certain nombre de docteurs de la secte et de ses maîtres, et nous dépeint, en plus de leur science, leurs vertus, leur piété, leur penchant pour l'équité et la défense de la secte.

Abù Zakariyâ, suivi par Abû'r-Rabî'al Wasyânî, nous présente les biographies vivantes d'un certain nombre de savants qui furent ses contemporains, tels Sa'îd Ibn Zanjîl (Abû Nûh), et Sulaymân Ibn Abî'r-Rabî ; mort la même année qu'Abû Zakariyâ ; il nous entretient de leur enseignement, de leurs fatwâs, du rôle joué par chacun d'entre eux dans la lutte contre la domination 'ubaydite, leur souci de veiller à l'application des principes de la religion.

Les pages qu'Abû Zakariyâ a consacrées à la révolte d'Abû Yazîd, l'Homme à l'âne, sont pleins de détails intéressants et de remarques précises. Il y étudie la personnalité de ce rebelle nukkarite d'une manière objective, men-

Le Kitâb as-Siyar

d'Abû Zakariyâ Yahyâ Ibn Abi Bakr

Le Kitâb as-Siyar d'Abû Zakariyâ est demeuré inédit jusqu'à nos jours, victime de circonstances défavorables, qui ont privé ainsi la bibliothèque arabe en général, et la littérature ibâdite en particulier, d'un ouvrage important. En effet, ce livre qui fut la source principale utilisée par ad-Darjînî, ach-Chammâkhi, par l'auteur du *Kachf al-Ghummah* et, plus tard, Sulaymàn al-Bârûnî, est demeuré aux yeux des chercheurs, un ouvrage perdu. Nul n'avait connaissance de l'existence d'un manuscrit du *Kitâb as-siyar,* dans aucun pays du monde, si ce n'est une copie qui, dit-on, faisait partie du fonds oriental d'une bibliothèque en Pologne, avant la seconde guerre mondiale, mais que personne n'a retrouvée, de même que de nombreux autres manuscrits arabes précieux qui ont disparu dans ce pays, au cours de la seconde guerre mondiale.

Une autre copie, dont on connaissait l'existence, au siècle précédent, est celle que possédait Masqueray, qui l'a utilisée pour la traduction de cet ouvrage en langue française (édité en 1878). Mais cette copie a disparu elle aussi, et l'on ignore ce qu'elle est devenue, après la mort du traducteur.

Parmi les circonstances défavorables à cet ouvrage, il y a également celles qui ont trait à sa traduction française. En effet, la copie manuscrite que possédait Masqueray comptait deux importantes lacunes l'une au milieu, la seconde à la fin de l'ouvrage, qui se trouvait ainsi amputé du tiers de son volume. Il faut ajouter à celà, que le traducteur ne possédait pas une connaissance suffisante de la langue arabe, et n'était pas rompu à la lecture des manuscrits ; il s'ensuivit de nombreuses erreurs de lecture et, par conséquent, une traduction souvent dénaturée du texte.

Malgré tout celà, les chercheurs n'ont pas cessé, jusqu'à nos jours, de se référer à la traduction française de cet ouvrage.

Ce n'est que tout dernièrement, que l'historien Ismâ'îl al-'Arabî a eu la chance de découvrir un manuscrit unique du *Kitâb as-siyar* d'Abû Zakariyâ, appartenent à l'un des cheikhs ibâdites de Ghardaia, en Algérie. Il en présente

---

Imprimé sur les Presses de la
Société Nationale d'Edition et de Diffusion
Imprimerie ZABANA - Alger

ABU ZAKARIYA YAHYA IBN ABI BAKR

KITAB SIYAR AL-A'IMMA WA AKHBARIHIM

Texte établi et annoté par
ISMA'IL AL-'ARABI